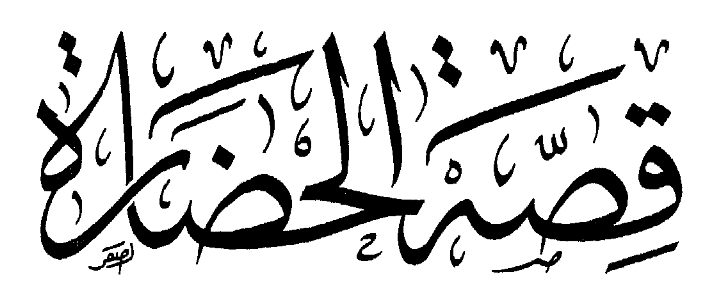

ول
وايرل ديورانت
قصة
الحضارة
24
الإصلاح الديني



ول وايريل ديورانت

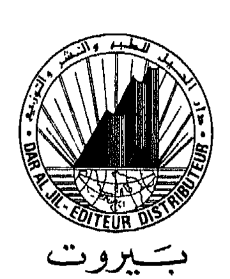
الإصلاح الديني

ترجمة
الدكتور عبد الحميد يونس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثالث من المجلد السادس





بيروت



تونس

فهرس الجزء الثالث من المجلد السادس

صفحة

الكتاب الثانى

الثورة الدينية

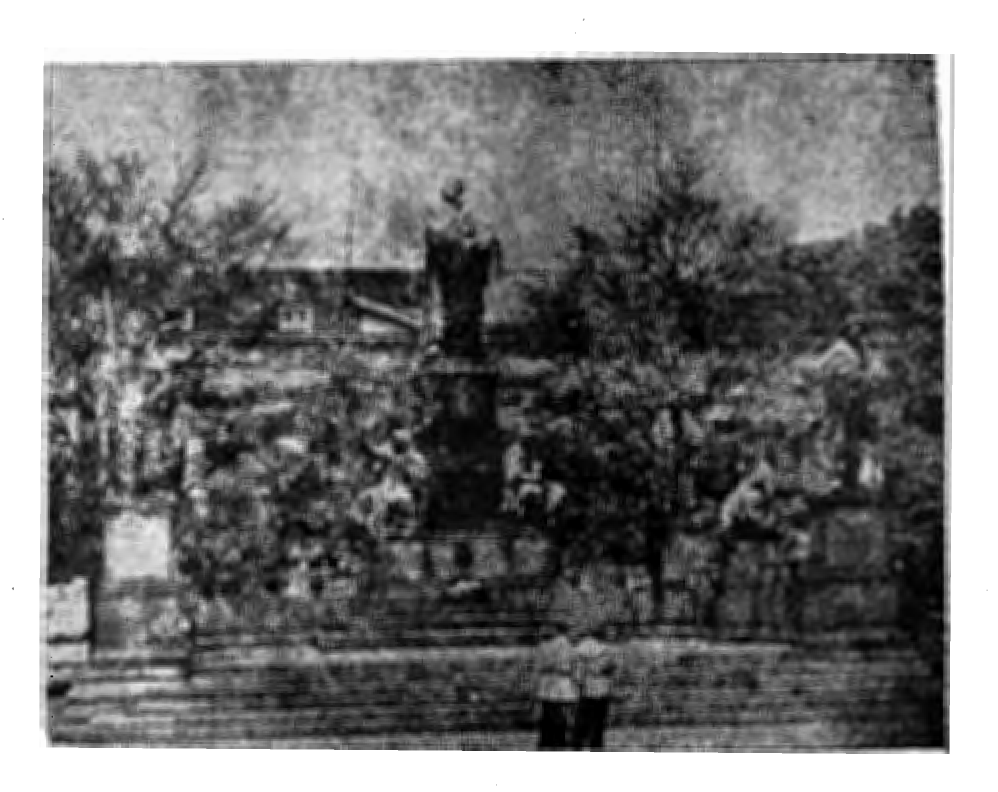
١٥١٧ – ١٥٦٤

صفحة



الصورة رقم (١) البرخت ديرر : فيليب
ميلانكتون — متحف الفنون الجميلة فى بوستن

(صفحة ٢٢)

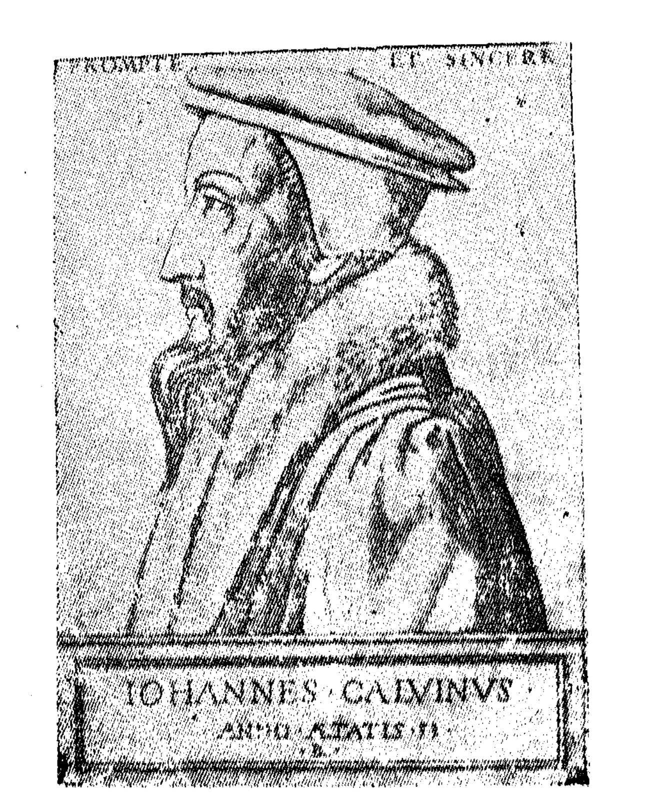


الصورة رقم (٢) تمثال لوثر التذكارى فى مدينة فرمز

(صفحة ٤٢)



الصورة رقم (٣) تيتيان : شارل الخامس في موبلبرج — برادو ، مدريد
(صفحة ١٩٨)



الصورة رقم (٤) رينيه بويفن : كالفن —
المكتبة العمومية والجامعية بجينيف

(صفحة ٢٣٥)



الصورة رقم (٥) النصب التذكارى للإصلاح الدينى

(صفحة ٢٥٦)

الكتاب الثاني

الثورة الدينيــة

١٥١٧ - ١٥٦٤

الفصل السادس عشر

لوثر : الإصلاح الدينى فى ألمانيا

١٥١٧ – ١٥٢٤

١ – تيتزل

أصدر البابا ليو العاشر فى اليوم الخامس عشر من مارس عام ١٥١٧ أشهر صكوك الغفران . ومما يؤسف له – وإن كان له مايسوغه – أن الإصلاح الدينى فرض عليه أن يحارب فى عهد سلطة بابوية جمعت فى روما كثيراً من ثمار عصر النهضة وجانباً كبيراً من روحها ؛ فلقد أصبح ليو ، ابن لورنزو العظيم ، وقتذاك عميداً لأسرة مديتشى ، التى غذت عصر النهضة فى فلورنسا ، وكان بحاثة وشاعراً وسيداً مهذباً رقيق القلب كريماً ، يعشق الأدب الكلامى والفن الرقيق . وكان حسن الأخلاق فى وسط منحل ، ويميل بطبعه إلى المرح المشروع الذى يشيع البهجة فى النفوس ، وأضحى مثالا للسعادة فى مدينة كانت منذ قرن خراباً بلقعاً . وكانت كل أخطائه جميعاً سطحية ، إذا استثنينا سطحيته هو نفسه ، ولم يكن يفرق إلا قليلا بين مصلحة أسرته ومصلحة الكنيسة ، وبدد أموال البابوية على شعراء أصالتهم محل شك وعلى حروب هى موضع نظر . وكان متسامحاً فى العادة يستطيب الهجاء الموجه ضد رجال الدين الوارد فى كتاب « الثناء على الطيش » لارازموس ، وقد عمل إلا فى فترات عارضة بالاتفاق غير المكتوب الذى منحت بموجبه الكنيسة فى عصر النهضة حرية لا بأس بها للفلاسفة والشعراء والعلماء – الذين كانوا يوجهون أحاديثهم باللاتينية – إلى الأقليـة المتعلمة وإن تركوا عقيدة – الجماهير الراسخة دون مساس .

وكان ليو ابن مصرفى اعتاد أن يبادر إلى إنفاق المال ، وبخاصة على الآخرين . وورث خزائن بابوية مفعمة بالأموال من يوليوس الثانى وأفرغها قبل أن يموت . ولعله لم يبال كثيراً بالكنيسة الضخمة التى فكر يوليوس فى إنشائها وشرع فى ذلك إلا أن كنيسة القديس بطرس القديمة لم تكن صالحة للترميم ، وكان لا بد أن تتدفق مبالغ كبيرة لإنشاء الكنيسة الجديدة ووجدت سلطات الكنيسة من العار عليها أن تدع هذا المشروع العظيم يقبر فى مهده . ولعله عرض فى شيء من التردد أن يمنح فى عام ١٥١٧ صك غفران لكل من يسهم فى نفقات تكملة هذا المعبد العظيم . واحتج الحكام فى انجلترا وألمانيا وفرنسا وأسبانيا لأن ثروات بلادهم كانت تستنزف ، ولأن اقتصادياتها القومية تتعرض للضرر بالحملات المتكررة لتحويل المال إلى روما ، وكان ليو أحرص ما يكون على إرضاء الملوك وهم أقوياء : فوافق على أن يحتفظ هنرى الثامن بربع الأموال التى تجمع من انجلترا وقدم قرضاً قدره ١٧٥,٠٠٠ دوكات إلى الملك شارل الأول (الإمبراطور شارل الخامس فيما بعد) فى مقابل الأموال المنتظر جمعها من أسبانيا ووافق على أن يحتفظ فرانسيس الأول بجزء من المبلغ الذى يجمع فى فرنسا ، أما ألمانيا فقد قوبلت بمعاملة أقل كرماً ، فلم تكن فيها ملكية قوية تستطيع أن تساوم البابا ومهما يكن من الأمر ، فإن الإمبراطور ماكسمليان نال مبلغاً متواضعاً قدره ٣,٠٠٠ فلورين من الإيرادات ، وفوض آل فوجر فى أن يأخذوا من الأموال التى تجمع مبلغ ٢٠,٠٠٠ فلورين كانوا قد أقرضوه لالبرخت البراندنبرجى لكى يدفعها للبابا لتثبيته فى منصب كبير أساقفة ماينز . ولسوء الحظ كانت تلك المدينة قد فقدت ثلاثة من كبراء أساقفتها فى عشر سنوات (١٥٠٤ — ١٥١٤) ودفعت مرتين نفقات باهظة للحصول على تأييد البابا ، ومن ثم اقترض ألبرخت ليعفيها من الدفع مرة ثالثة — ووافق ليو وقتذاك على أن أن يتولى رئيس الأساقفة الشاب توزيع صكوك الغفران فى ماجدبرج وهالبرشتادت وفى ماينز أيضاً . وكان يصحب كل واحد من واعظى

ألبرخت وكيل لآل فوجر يراجع المصروفات والإيرادات وكان يحتفظ بأحد مفاتيح الخزانة التي تضم الأموال[1] .

وكان جوهان تيتزل وكيل ألبرخت الأول ، وهو راهب دومينيكاني اكتسب مهارة وشهرة في جمع المال . وكان عمله الرئيسي منذ عام ١٥٠٠ توزيع صكوك الغفران ، وكان يلقى عادة في هذه المهام عون رجال الدين المحليين وإذا دخل مدينة استقبله موكب من القساوسة والحكام والأتقياء من العامة وهم يحملون الأعلام والشموع ويرتلون الأناشيد ويرفعون نشرة صك الغفران عالية فوق وسادة من المخمل أو وسادة مذهبة في حين تقرع الكنيسة أجراسها وتعزف على آلات الأرغن فيها ، وهكذا استطاع تيتزل[2] بفضل هذه المساندة أن يقدم بصفة مؤثرة صك غفران كامل لهؤلاء الذين يعترفون بخطاياهم وهم نادمون ويسهمون في بناء كنيسة جديدة للقديس بطرس حسب ما تسمح به مواردهم :

ألا فليرحمك الرب يسوع المسيح ويغفر لك بفضل ما لقي من آلام مقدسة وإنا بتفويض منه ومن رسوليه المباركين بطرس وبولس ، ومن البابا المقدس منح لي وعهد به إلي في هذه الأجزاء إن أحلك أولا من كل لوم ديني مهما كانت الطريقة التي تعرضت لها ، ثم من كل خطاياك ومن كل تجاوز للحدود وكل إفراط في الملذات مهما بلغت من الجسامة ، بل حتى من أي إثم تحتفظ بتقريره وإدراكه السدة البابوية ، وبقدر ما يمتد نطاق سلطان الكنيسة المقدسة أعفيك من كل عقاب تستحقه في المطهر بسبب هذه الآثام ، وأعيدك إلى القربان المقدس للكنيسة وإلى البراءة والطهر اللذين حزتهما في العماد ، ولهذا فإنك عند ما تموت ستغلق أمامك أبواب العذاب وتفتح لك أبواب جنة النعيم ، وإذا لم تمت الآن فإن هذا الفضل سوف يظل في أوج قوته عندما تصبح على وشك الموت باسم الأب والابن والروح القدس[3] .

وكانت هذه الصفقة الرائعة بالنسبة إلى مؤمن تتفق مع المفهوم الرسمي

لصكوك الغفران بالنسبة للأحياء ، وها هو اسم تيتزل يتردد مرة أخرى خلال الخطاب المتضمن لتعليمات أسقفه عند ما استغنى عن الاعتراف التمهيدى إذا لجأ المتبرع إلى تقديم صك الغفران لروح فى المطهر . ويقول مؤرخ كاثوليكى : ليس من شك فى أن تيتزل أعلن طبقاً لما كان يتصوره من العقيدة المسيحية وفق التعليمات المخولة له أنه لا داعى لشىء سوى تقديم المال للحصول على صك غفران للميت فى غير ما حاجة إلى الندم أو الاعتراف . ومن تعاليمه أيضاً ، طبقاً للرأى الذى كان يعتنقه ، أن صك الغفران يمكن أن يمنح لأى روح معينة ويكون له أثر لا يخيب . وبناء على هذا الغرض فإن مما لا شك فيه أن مذهبه كان متفقاً مع هذا المثل السائر : « ما أن ترن قطع النقود فى الخزانة حتى تقفز الروح من نار المطهر » . ولم تنص نشرة البابا الخاصة بصكوك الغفران على أى دليل لهذا الرأى . وكان رأيا غامضاً لأنصار فلسفة اللاهوت . . . ولم يكن يمثل عقيدة ما للكنيسة(٤) .

وسمع مايكونيوس ، وهو راهب فرنسسكانى ربما كان معادياً للدومينيكان بصنيع تيتزل فكتب تقريراً عن هذا العام ١٥١٧ ، يقول : « إن ما قاله هذا الراهب الجاهل وبشر به أمر لا يصدق . لقد أعطى خطابات مختومة ضمنها أن الخطايا التى يعتزم المرء أن يرتكبها سوف تغفر له ، وقال إن البابا يملك سلطاناً يفوق سلطان الرسل والملائكة والقديسين ، بل يفوق سلطان العذراء مريم نفسها ، لأن هؤلاء جميعاً كانوا أتباعاً للمسيح أما البابا فإنه ند للمسيح » . وقد يكون فى هذا مبالغة ، ولكن مثل هذا الوصف يمكن أن يقدمه أى شاهد عيان يشير إلى ما يثيره تيتزل من مقت . ومثل هذا العداء يبدو فى الشائعة التى ذكرها لوثر(٥) فى ارتياب والتى استشهد بها تيتزل عند ما قال فى هال إنه إذا حدث المستحيل واغتصب رجل أم الرب فإن صك الغفران كفيل بأن يمحو عنه هذا الإثم . وحصل تيتزل على شهادات من السلطات المدنية والكهنوتية فى هال بأنهم لم يسمعوا القصة قط(٦) . كان بائعاً متحمساً ولكنه لم يكن يفتقر تماماً إلى الضمير .

وكان يمكن أن ينجو من حكم التاريخ لو لم يقترب كثيراً من أراضى فردريك الحكيم الأمير المختار لسكسونيا(*) . وكان فردريك حاكماً ورعاً حسن التدبير ، ولم يكن لديه اعتراض من الناحية النظرية على صكوك الغفران وقد جمع ١٩,٠٠٠ من مخلفات القديسين فى كنيسة قصره بفيتنبرج(٧) ، واتخذ التدابير اللازمة للحصول على صك غفران يرتبط بتوقيرها كما حصل على صك غفران آخر للمتبرعين بالأموال اللازمة لبناء قنطرة فى تورجاو ، وعهد إلى تيتزل بأن يعلن عن فوائد هذا الصك البابوى(٨) ، ومهما يكن من أمر فإنه أمسك من البابا الكسندر السادس (١٥٠١) المبلغ الذى جمع فى إمارة سكسونيا بموجب صك غفران يمنح مقابل التبرعات اللازمة للحرب الصليبية ضد الأتراك ، وقال إنه سوف يرفع يده عن المال عندما تتجسم الحرب الصليبية فى صورة مادية ، ولما لم يتحقق هذا قط احتفظ فردريك الحكيم بالأموال واستخدمها فى بناء جامعة بفيتنبرج(٩) . وحرم فى أرضه وقتذاك التبشير بصك غفران عام ١٥١٧ مدفوعاً بنفوره من السماح لعملة ساكسونيا بالهجرة ، أو لعل هذا كان بدافع من التقارير عن مبالغات تيتزل ؛ بيد أن تيتزل اقترب كثيراً من الحدود حتى أن أهالى فيتنبرج عبروا الحدود للحصول على صك الغفران ، وجاء عدد من المشترين لهذه « الرسائل البابوية » بها إلى مارتن لوثر أستاذ علم اللاهوت فى الجامعة وطلبوا منه أن يشهد بفاعليتها فرفض ، وترامى الرفض إلى مسامع تيتزل فتوعد لوثر وهكذا خلد إسمه فى التاريخ .

(*) فى عام ١٤٨٥ قسمت أملاك آل فتين إلى إقليمين . وكان القسم الأصغر والأغنى ، ويشمل ليبزج ودرسدن من نصيب الابن الأصغر الدوق ألبرت ، وأصبح هذا القسم يعرف باسم دوقية ساكسونيا أو ساكسونيا الألبرتية . أما القسم الأكبر وهو أقل سكانا ويشمل فيتنبرج وفيمار فأصبح من نصيب الأخ الأكبر وهو إرنست الأمير المختار الإمبراطورى وعرف باسم ساكسونيا إمارة المختار أو ساكسونيا الإرنستية ، وكان لهذا القسم شأن يذكر فى حركة الإصلاح الدينى .

كان قد أساء تقدير خصام الأستاذ إذ أن لوثر سرعان ما ألف باللاتينية خمساً وتسعين رسالة أطلق عليها اسم Disputatio pro declaratione virtutis indulgentiarum « بحث فى بيان قوة صكوك الغفران » . ولم يعتبر آراءه من قبيل الهرطقة ولم تكن كذلك بكل تأكيد . وكان لا يزال كاثوليكياً متحمساً ليست لديه أدنى فكرة لقلب الكنيسة . . . . كان غرضه أن يدحض الادعاءات المغالى فيها بشأن صكوك الغفران وأن يصحح المساوئ التى تنشأ عن توزيعها . وشعر بأن سهولة إصدار صكوك الغفران والإتجار فيها على نطاق واسع قد أضعف الإحساس بالندم الذى يجب أن يثيره ارتكاب الإثم ، وجعل الخطيئة تبدو أمراً تافهاً يمكن تسويته ودياً بصفقة تعقد مع بائع يتجر بالغفران ، ومع ذلك فإنه لم ينكر « السلطة » البابوية فى غفران الخطايا ، وسلم بسلطة البابا فى إحلال (إعفاء) النادم المعترف من العقوبات الدنيوية التى يفرضها عليه رجال الكنيسة ولكن وجهة نظر لوثر هى أن سلطة البابا فى تحرير الأرواح من المطهر أو فى تقليل مدة عقابها ، هناك تتوقف لا على السلطة التى تمثلها مفاتيح بطرس الرسول والتى لا تصل إلى أبعد من القبر — ولكن تتوقف على تأثير الشفاعة لصلوات البابا ، وهى قد تسمع وقد لا تسمع (الرسائل : ٢٠ — ٢٢) يضاف إلى هذا كله أن لوثر قال إن كل المسيحيين يشاركون آلياً فى خزينة الفضائل التى كسبها المسيح والقديسون حتى وإن لم ينص خطاب بابوى بالغفران على منحهم مثل هذا النصيب . وأعفى البابوات من مسئولية مبالغات الوعاظ ، ولكنه أردف فى خبث : « إن التبشير المطلق العنان بالغفران يجعل من الصعب حتى على الناس المتعلمين ، أن ينقذوا الاحترام الواجب للبابا من التساؤلات الذكية الماحة للعامة : لم لا يفرغ البابا مطهراً من أجل الحب المقدس والحاجة الملحة للأرواح الهائمة هناك إذا كان يفتدى . . . عدداً من الأرواح من أجل المال التعس الذى يبنى به كنيسة ؟ (رسائل من ٨١ — ٨٢) .

وفى وقت الظهيرة فى اليوم الحادى والثلاثين من أكتوبر عام ١٥١٧ ألصق هذه الرسائل على الباب الرئيسى لكنيسة القصر فى فيتنبرج ، وفى اليوم الأول من نوفمبر فى يوم عيد جميع القديسين عرضت هناك المخلفات المقدسة التى جمعها الأمير المختار ، وكان من المتوقع حضور جمع غفير . ولاشك أن عملية إعلان هذه الرسائل على الجمهور ، والتى قام بها مقدمها لمواجهة كل المتحدين ، كانت عادة قديمة فى جامعات القرون الوسطى وأن الباب الذى استخدمه لوثر فى لصق هذا الإعلان به ، كان قد استخدم بانتظام لوحة النشرات الأكاديمية . وقدم لهذه الرسائل بدعوة ودية تقول :

بدافع من الحب للعقيدة والرغبة فى تسليط الضوء عليها سوف تناقش الآراء التالية فى فيتنبرج تحت رعاية الأب الموقر مارتن لوثر ، أستاذ الآداب واللاهوت المقدس والمحاضر الثبت لنفس العلم فى ذلك المكان . ولهذا نرجو من هؤلاء الذين لا يستطيعون الحضور والجدال شفوياً أن يفعلوا هذا بخطاب .

وقام لوثر بترجمة هذه الرسائل إلى الألمانية ووزعها على الناس لكى يتأكد من أنها سوف تفهم على أوسع نطاق . وأرسل نسخة من هذه الرسائل إلى ألبرخت كبير أساقفة ماينز بجرأة لا نظير لها ، وهكذا بدأ الإصلاح الدينى فى جو من الرقة والورع وعن غير قصد .

٢ — تكوين لوثر

ترى ما هى ظروف الوراثة والبيئة التى صاغت من راهب مغمور ، فى مدينة لا يتعدى سكانها ثلاثة آلاف نسمة داود الثورة الدينية ؟ كان أبوه هانز رجلا صارماً فظاً يستثار بسهولة ، ومناهضاً لرجال الدين ، وكانت أمه امرأة خجولا متواضعة تكرس كثيراً من أوقاتها للصلاة ، وكان كلاهما مقتصداً . وعمل هانز فلاحاً فى موهرا ثم اشتغل بالتعدين فى مانسفيلد ، إلا أن

مارتن ولد فى أيسليبين فى اليوم العاشر من نوفمبر عام ١٤٨٣ ، وأعقب والداه بعده ستة أطفال . وكان هانز وجريتا يؤمنان بالعصا كوسيلة سحرية لتقويم الأخلاق ، ويقول مارتن إن أباه ثابر على ضربه يوماً حتى إنهما ظلا زمناً طويلا يناصب كل منهما الآخر العداء ، وفى مناسبة أخرى جلدته أمه حتى سال دمه لأنه سرق جوزة . وقال مارتن مفكراً فيما بعد : « إن الحياة الخشنة القاسية التى عشتها معهما هى التى دفعتنى إلى أن ألجأ فيما بعد إلى الدير وأصبح راهباً »(١٠) . وليس من شك فى أن صورة الرب التى نقلها له والداه عكست مزاجهما الخاص . أب قاس وقاض صارم يطالب بفضيلة عبوس ويطلب استرضاءه دائماً ويلعن أخيراً الجانب الأكبر من البشر ويدعو عليهم بأن يخلدوا فى النار . وكان والداه كلاهما يؤمنان بوجود سحرة وعفاريت وملائكة وشياطين من فصائل متعددة وتخصصات متنوعة ، وحمل مارتن معه حتى النهاية معظم هذه الخرافات . وهكذا أسهم دين قام على الفزع فى بيت يحتفل بالتأديب الصارم فى تكوين شباب لوثر وعقيدته الدينية .

والتحق بمدرسة فى مانسفيلد كان الطلبة يتلقون فيها مزيداً من العصى وكثيراً من الوعظ وجلد فيها مارتن خمس عشرة مرة فى يوم واحد لأنه أخطأ فى إعراب اسم . وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره نقل إلى مدرسة ثانوية تديرها جمعية دينية فى ماجديبرج ، وفى سن الرابعة عشرة حول إلى مدرسة سانت جورج فى أيزيناخ ، وأمضى ثلاث سنوات سعيدة نسبياً أقام فيها بمنزل السيدة كوتا المريح . ولم ينس لوثر قط قولها إنه ليس على ظهر الأرض ما هو أثمن للرجل من حب امرأة فاضلة . وكانت هذه نعمة لم يظفر بها إلا بعد اثنين وأربعين عاماً ، وفى هذا الجو الصحى استكمل السحر الطبيعى للشباب ، إذ كان سليماً معافى صريحاً ومنشرحاً من الناحية الاجتماعية . وكان يحسن الغناء والعزف على العود .

وأرسله والده الميسور الحال عام ١٥٠١ إلى الجامعة فى أرفورت ، وكان

برنامج الدرس يركز على اللاهوت والفلسفة ، وكانت لا تزال كلامية ولكن المذهب الإسمى لأوكهام كان قد انتصر هناك ، ولعل لوثر قد فطن إلى رأى أوكهام الذى يذهب إلى أن البابوات والمجالس الدينية يمكن أن تخطئ : وكان من رأيه أن فلسفة الكلام فى أية صورة من صورها غير مستحبة حتى إنه امتدح لصديق له « ألا يتعلم الروث الذى يقدم باعتباره فلسفة »(١١) .

وكان فى أرفورت بعض علماء الإنسانيات المعتدلين ، وتأثر بهم قليلا ولكنهم لم يهتموا به عندما وجدوه يحتفل بالعالم الآخر . وتعلم قليلا من اليونانية والنذر اليسير من العبرية ولكنه قرأ أمهات الكتب الكلاسية باللاتينية ، وحصل عام ١٥٠٥ على درجة الماجستير فى الآداب ، فأرسل له أبوه المزهو به نسخة غالية من مجموعة قوانين البلد هدية بمناسبة تخرجه . واغتبط عند ما بدأ ابنه فى دراسة القانون . وفجأة بعد شهرين من هذه الدراسة قرر الشاب أن يصبح راهباً ، الأمر الذى أفزع والده .

وهذا القرار يعبر عن التناقض فى خلقه ، فقد كان قوياً يفيض بالحيوية إلى حد الانغماس فى الشهوات ، وكان من الواضح أنه خلق لحياة يرضى فيها الغرائز الطبيعية ، ومع أنه لقن فى البيت والمدرسة عن اقتناع أن الإنسان آثم بطبعه ، وأن الإثم معصية لإله قادر على كل شيء شديد العقاب ، فإنه لم يوفق قط ، فى الفكر أو فى السلوك ، بين غرائزه الطبيعية وبين معتقداته المكتسبة . ويبدو أنه عند ما كان يمر بالتجارب الغرامية العادية ونزوات المراهقة لم يستطع أن ينظر إلى هذه التجارب على أنها مراحل من التطور ، بل رأى أنها من أعمال شيطان نذر نفسه للإيقاع بالأرواح فى لعنة أبدية لا فكاك منها . وكان مفهومه الذى لقن له عن الله لا يكاد يشمل أى عنصر من الحنان ، ولم يكن لصورة مريم المواسية موضع كبير فى هذا اللاهوت القائم على الخوف ، ولم يكن يسوع هذا هو الابن المحب الذى لا يستطيع أن يرفض طلباً لأمه ، بل كان عيسى فى يوم الدينونة الذى كثيراً ما صور فى

الكنائس ، المسيح الذى هدد الخاطئين بعذاب جهنم الأبدى . وليس من شك فى أن الفكرة المتواترة عن الجحيم وضعت غشاوة على عقل كان شديد التمسك بتعاليم الدين بحيث نسيها وهو ينتهب لذة الحياة كل يوم . وبينما كان عائداً يوماً من بيت أبيه فى أرفورت (يوليو سنة ١٥٠٥) واجهته عاصفة رهيبة ، ولمع البرق حوله ، وأصابت الصاعقة شجرة قريبة منه ؛ وخيل للوثر أن هذا إنذار من الله وأنه ما لم يكرس أفكاره للخلاص فسوف يفاجئه الموت ويلقى حتفه دون أن يسمع اعترافه وتطارده اللعنة . ترى أين يستطع أن يحيا حياة ينصرف فيها إلى التعبد ؟ إن هذا لا يتيسر إلا حيث يقيم حاجزاً بينه وبين العالم والشهوة والشيطان ، بين أربعة جدران ، أو يقهر النفس بالانصراف إلى التقشف ، ونذر عهداً للقديسة آن أنه لو نجا من هذه العاصفة فسوف يصبح راهباً .

وكاى هناك عشرون ديراً فى أرفورت فاختار واحداً عرف بالإخلاص فى مراعاة قواعد الأديرة ، وهو دير الرهبان الأوغسطينيين ، ودعا أصدقاءه جميعاً وشرب وغنى معهم فى حفل قال لهم إنه يقوم به لآخر مرة وفى اليوم التالى استقبل فى خلوة بدير كمبتدئ فى الرهبنة ، وقام بأحقر الأعمال فى تواضع لا يخلو من الاعتزاز بالنفس ، وتلا الصلوات مراراً وتكراراً كمن نوم نفسه تنويماً مغناطيسياً ، وتجمد جسده فى مضجع بارد وصام وعذب نفسه ، أملا فى أن يطرد من جسده الشياطين وقال : « كنت راهباً ورعاً أراعى أحكام الطائفة التى أنتمى إليها بشدة إلى حد أنه . . . إذ قدر لراهب أن يدخل الجنة عن طريق الرهبنة فإنى أدخلها لا محالة . . . ولو أن هذا الأمر طال أكثر من هذا لكنت عذبت نفسى حتى الموت بالسهر والصلاة والقراءة وغيرها من الأعمال »[١٢] . وفى إحدى المناسبات عندما اختفى عن الأعين بضعة أيام اقتحم أصدقاؤه عليه خلوته فوجدوه يرقد على الأرض غائب الوعى ، وكانوا قد أحضروا معهم عوداً وعزف عليه واحد منهم فاسترد قواه وشكرهم . وفى سبتمبر عام ١٥٠٦ أقسم قسماً مغلظاً بأن يلتزم

الخصاصة والعفة والطاعة ، وفى مايو عام ١٥٠٧ رسم قساً ومحضه زملاؤه الرهبان نصيحة ودية وأكد له أحدهم أن عذاب المسيح إنما هو تكفير عن طبيعة الإنسان الخاطئة وأنه فتح للتائب أبواب الجنة .

وما قرأه لوثر عن الصوفيين الألمان وبخاصة عن تاولر أعطاه أملا فى أن يجتاز الثغرة الرهيبة بين روح تنزع بطبيعتها إلى الخطيئة وبين إله مقسط قادر على كل شيء . ثم وقعت فى يديه رسالة بقلم جون هس فساورته شكوك عقائدية زادت من اضطرابه الروحى . وتساءل قائلا : « ترى لماذا أحرق رجل استطاع أن يكتب بمثل هذه الروح المسيحية وبهذه القوة ؟ لقد أغلقت الكتاب وأشحت بوجهى وقلبى جريح »[١٣] . وأولى جوهان فون شتاوبتز ، وهو قسيس إقليمى من الرهبان الأوغسطينيين ، الراهب القلق ، اهتماماً أبوياً ، وأمره أن يستبدل بالتقشف قراءة الكتاب المقدس وتعاليم القديس أوغسطين بكل عناية . وأعرب الرهبان عن جزعهم لما أصابه فأعطوه كتاباً مقدساً باللاتينية — وكان وقتذاك من المقتنيات النادرة — بالنسبة لأى فرد .

وفى أحد أيام عام ١٥٠٨ أو عام ١٥٠٩ استرعت انتباهه عبارة وردت فى رسالة القديس بولس إلى الرومان (١ : ١٧) « إن الحق يحيا بالإيمان » وقادته هذه الكلمات فى بطء إلى العقيدة التى تذهب إلى أن الإنسان يمكن أن يزكى — أى يرجع إلى الصواب وينجو من النار — لا بالأعمال الطيبة التى لا يمكن أن تكفى أبداً للتكفير عن معصيته لإله لا حد لقدرته ، بل بالإيمان المطلق بالمسيح وبتكفيره عن خطايا البشر . ووجد لوثر فى تعاليم أوغسطين فكرة أخرى لعلها جددت من مخاوفه — تلك هى القدر — أن الله قدر حتى قبل الخليقة أن تحظى بعض الأرواح بالخلاص وأن يزج بالباقى فى جهنم ، وأن الاختيار تم بمشيئة الله أن يكون الخلاص بالتضحية بالمسيح . ومن هذا المجال الصريح فر مرة أخرى إلى أمله الأساسى فى الخلاص عن طريق الإيمان .

وحول عام ١٥٠٨ نقل إلى دير أوغسطين فى فيتنبرج بناء على توصية من

شتاوبيتز ، وعين فى وظيفة معلم للمنطق والفزياء ، ثم عين أستاذاً للاهوت فى الجامعة . وكانت فيتنبرج عاصمة الشمال — وقلما كانت محل إقامة — لفردريك الحكيم وقال أحد المعاصرين عنها : « مدينة فقيرة لا أهمية لها بيوتها خشبية صغيرة ، قديمة قبيحة الشكل » ووصف لوثر السكان بقوله : « إنهم سكارى يفتقرون إلى التهذيب منغمسون فى العربدة إلى حد يجاوز الاعتدال ، وقد اشتهروا بأنهم أشد الناس إدماناً على الشراب فى ساكسونيا التى كانت تعد أعظم مقاطعة فى ألمانيا يغرم أهلها بالشراب » . وقال لوثر إن الحضارة انتهت على بعد ميل من الشرق وبدأت الهمجية وظل هناك الجانب الأكبر من حياته إلى نهاية أيامه .

ولا بد أنه قد أصبح راهباً مثالياً وقتذاك لأنه أرسل فى أكتوبر من عام ١٥١٠ مع زميل له من الرهبان ، إلى روما فى مهمة غامضة للرهبان الأوغسطينين ، وكان أول رد فعل عنده لدى مشاهدته المدينة رهبة مشوبة بالورع ، فسجد ورفع يديه وهتف يقول : « سلاماً عليك يا روما المقدسة ! » وقام بكل الشعائر شأنه شأن أى حاج ، وانحنى فى إجلال أمام مخلفات القديسين وصعد على السلم المقدس **Scala Santa** وهو يسير على ركبتيه ، وزار عشرين كنيسة وظفر بكثير من صكوك الغفران ، حتى إنه تمنى أو كاد لو كان والداه ميتين حتى يستطيع أن ينقذهما من المطهر . وارتاد المنتدى الرومانى ولكن كان من الواضح أنه لم يتأثر بفن عصر النهضة ، وكان رافائيل ومايكلانجلو ومئات غيرهما قد بدأوا فى تزيين العاصمة . وظل سنوات عديدة بعد القيام بهذه الرحلة دون أن يقوم بتعليق واضح جلى على تعلق رجال الدين الرومان بالدنيا ، أو على الانحلال الخلقى الذى كان شائعاً وقتذاك فى المدينة المقدسة . ومهما يكن من أمر فإنه بعد عشر سنوات وصف روما عام ١٥١٠ بأنها « تدعو للمقت » ولا يزال من هذا المزيد فى ذكرياته التى تتسم بالخيال المتوقد ، والتى تخطر له أحياناً فى أحاديثه حول مائدة الطعام فى سن الشيخوخة :

وقال إن البابوات أسوأ من الأباطرة الوثنيين وإن اثنتي عشرة فتاة عارية كن يقمن بخدمة رجال البلاط البابوى وقت العشاء »[١٤] . ومن المحتمل أنه لم يتيسر له الدخول فى أوساط رجال الكهنوت الكبار ولم تكن له معرفة مباشرة بأخلاقهم المنحلة التى لا شك فيها .

وارتقى بسرعة فى المناصب التعليمية بعد عودته إلى فيتنبرج « فبراير عام ١٥١١ » ونصب نائباً للأسقف فى طائفته . وألقى محاضرات فى الكتاب المقدس ، وقام بالوعظ بانتظام فى كنيسة الأبرشية ونهض بعبء العمل فى وظيفته بجد وولاء . ويقول عالم كاثوليكى مشهور : « إن خطاباته الرسمية تنم على اهتمام شديد بالذين ساورتهم الشكوك وتفيض بعطف رقيق على الآثم وتفصح عن لمسات عميقة من الشعور الدينى والرأى العملى النادر وإن كانت لم تخل من تشويه نصائح لها اتجاهات مخالفة للعقيدة ؛ وعندما اجتاح الطاعون فيتنبرج عام ١٥١٦ لزم مكانه بشجاعة ، ورفض أن يتخلى عنه على الرغم مما أبداه أصدقاؤه من قلق »[١٥] . وخلال هذه السنوات (١٥١٢ — ١٥١٧) تحولت آراؤه الدينية ببطء عن المذاهب الرسمية للكنيسة . وبدأ يتحدث عن « لاهوتنا » مقابل ما كان يدرس فى أرفورت . وفى عام ١٥١٥ عزا ما أصاب العالم من فساد إلى رجال الكهنوت الذين قالوا للناس كثيراً جداً من أمثال وحكايات خرافية من إبداع البشر وليست من الكتب المنزلة ، واكتشف عام ١٥١٦ مخطوطة ألمانية مجهولة المؤلف أيد ما بها من التقوى الصوفية رأيه فى اعتماد الروح الكلى فى الخلاص على رحمة الله إلى حد أنه أعدها للنشر وطبعها باسم « لاهوت ألمانى Theologia Germanica » . ووجه اللوم إلى المبشرين بصكوك الغفران لاستغلالهم سذاجة الفقراء ، وبدأ فى مراسلاته الخاصة يبرهن على أن « ضد المسيح » الوارد فى الرسالة الأولى ليوحنا شبيه بالبابا[١٦] . ودعاه الدوق جورج صاحب ألبرتين ساكسونيا عام

١٥١٧ إلى الوعظ فى درسدن ، فأثبت بالدليل أن مجرد قبول فضائل المسيح يحقق الخلاص للمؤمن . وشكا الدوق من أن مثل هذا التشدد فى الإيمان أكثر من الفضيلة « سوف يجعل الناس مغرورين ومتمردين فحسب »[١٧] ، وبعد ثلاثة شهور تحدى الراهب المشهور العالم إلى مناظرته فى الرسائل الخمس والتسعين التى علقها فى كنيسة فيتنبرج .

٣ ـ الثورة تتخذ شكلا

قد توحى الصورة التى حفرها كراناخ على الخشب عام ١٥٢٠ أن لوثر فى عام ١٥١٧ كان راهباً حليـــق الرأس متوسط القامة رشيق الجسم إلى حين ، وله عينان واسعتان ينمان على العزم الجاد ، وأنف كبير وذقن يدل على قوة العزيمة ووجه يفصح فى هدوء لا فى لجاجة عن الشجاعة وقوة الشخصية ، ومع ذلك فإنه كتب هذه الرسائل بدافع من الغضب المتسم بالإخلاص لا عن جرأة حمقاء ولم ير فيها الأسقف المحلى شيئاً من الهرطقة ولكنه نصح لوثر فى لطف ألا يكتب شيئاً آخر فى الموضوع لفترة ما . وقد هال المؤلف نفسه ما أثاره من غضب . وفى مايو عام ١٥١٨ أبلغ شتاوبتز أن أمله الحقيقى هو أن يقضى حياته فى عزلة هادئة ولكنه كان يخدع نفسه فقد كان تلذ له المعركة .

وأصبحت الرسائل حديث الطبقة المتعلمة فى ألمانيا . كان الآلاف ينتظرون احتجاجاً كهذا ، وهللت الحركة المضادة لرجال الدين وانطلقت من عقالها إذ وجدت صوتاً يعبر عنها . وقل الإقبال على شراء صكوك الغفران . ولكن كثيراً من أنصاره تصدوا لمواجهة التحدى وأجاب تيتزل ، بمعاونة بعض المحترفين ، فى « مائة وست رسالة مضادة » (ديسمبر عام ١٥١٧) . ولم يسلم فيها بأى شيء ولم يقدم أى اعتذار بل « إنه أصدر فى بعض الأحيان

حكماً لا يقبل التفاهم مؤيداً لآراء لاهوتية بحتة لا تكاد تتفق مع أعظم الدراسات دقة»[١٨] . وعند ما وصل هذا المؤلف إلى فيتنبرج وعرضه بائع جوال للبيع تألبت عليه جمهرة من طلبة الجامعة ، وأحرق المخزون لديه وقدره ٨٠٠ نسخة فى ساحة السوق — وهو إجراء استهجنه لوثر فى جذل . ورد على تيتزل فى « عظة حول صكوك الغفران والرحمة » ، وختمها بقوله فى تحد لا نظير له : « إذا كنت هرطيقاً فى نظر من تعانى أكياس نقودهم من الحقائق التى أذكرها فإنى لا أبالى كثيراً بصياحهم لأنه لا يقول هذا إلا من رانت على عقولهم غشاوة فلم يعرفوا قط الإنجيل»[١٩] .

وأمطر جاكوب فان هوجستراتين الكولونى ، لوثر وابلا من عبارات التنديد ، واقترح أن يحرق على السارية ، وأصدر جوهان إيك ، نائب مدير جامعة انجولشتادت كتيباً باسم **Obeilsci** (مارس عام ١٥١٨) اتهم فيه لوثر بنشر « السم البوهيمى » (هرطقات هس) وتقويض النظام الإكليروسى بأسره .

وفى روما نشر سيلفستر بريرياس ، رقيب الأدب البابوى ، حواراً « يؤيد فيه سيادة البابا المطلقة بألفاظ لا تخلو تماماً من المبالغة وبخاصة عند ما يبسط نظريته إلى نقطة خاصة بالتجارة فى صكوك الغفران ليس لها سند ولا عليها دليل »[٢٠] .

ورد لوثر فى كتيب اسمه **Resolutiones** قرارات (ابريل عام ١٥١٨) وأرسل نسخاً منه إلى أسقفه المحلى وإلى البابا — مع تأكيدات بالمحافظة والطاعة فى كلتا الحالتين وتحدث النص فى رفق عن ليو العاشر : « على الرغم من أن فى عالم الكنيسة رجالا يجمعون بين العلم والقداسة فإن من سوء طالع عصرنا مع ذلك أنهم لا يستطيعون أن يمدوا يد المعونة للكنيسة . . . وها نحن أولاء نجد حبراً أعظم لا يبارى هوليو العاشر ، يمتاز بكمال وعلم هما بهجة لكل آذان الناس الطيبين ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل وحده أرق الرجال

قلباً فى مثل هذه البلبلة الكبيرة بين الأمور مهما كان جديراً بأن يحكم فى أوقات خير من هذه ؟ . . . إننا فى هذا العصر لا نستحق إلا بابوات من أمثال يوليوس الثانى وألكسندر السادس . . . إن روما نفسها — نعم روما ، أكثر من الكل ، تسـخر الآن من الناس الطيبين ، ترى فى أى جزء من العالم المسيحى غير روما ، حصن بابيلون الحقيقى ، يهزأ الناس بحرية من أحسن الأساقفة ؟ » وأكد لليو مباشرة خضوعاً غريباً بقوله : « أيها الأب المبارك أقدم تحت أعتاب قداستك تذللى وخضوعى بكل ما أكونه وما أملك هيا وسارع ، واقتل وادع واستدع واستحسن واستهجن إذا راق ذلك فى نظرك . إنى سأقر بأن صوتك هو صوت المسيح ، إذ يقيم فى جسدك ويتحدث . وإذا كنت أستحق الموت فلن أرفض أن أموت »(٢١) .

ومهما يكن من أمر فإن كتابة قرارات **Resolutiones** كما لاحظ مستشارو ليو أكد أن المجلس المسكونى أعلى رتبة من البابا ، وتحدث مستخفاً عن المخلفات المقدسة وعن الحج وأنكر فضائل القديسين الزائدة ونبذ كل الإضافات التى قام بها البابوات فى القرون الثلاثة الأخيرة على نظرية صكوك الغفران وممارستها ، ولما كانت هذه مصدراً له أهميته للدخل البابوى ولما كان ليو فى حيرة لا يدرى كيف يمول مشروعاته الإنسانية ومنازله وحروبه وإدارة وتنفيذ برنامج بناء الكنيسة أيضاً فإن الحبر الأعظم الذى استبد به القلق ، والذى لم يعبأ فى مبدأ الأمر بالنزاع باعتباره ضجة عابرة بين الرهبان تصدى للأمر وأخذه وقتذاك على عاتقه واستدعى لوثر إلى روما (٧ يوليو سنة ١٥١٨) .

وواجه لوثر قراراً حرجاً فحتى إذا عامله أرق البابوات برفق فإنه قد يجد نفسه ملزماً بإيثار الصمت فى أدب واعتقال نفسه فى دير رومانى وبسرعان ما ينساه هؤلاء الذين يهتفون له الآن . وكتب إلى جورج سبالاتان القسيس الخاص بالأمير المختار فردريك يقترح عليه أن يبادر الأمراء الألمان بحماية

مواطنيهم من التسليم الإجبارى لإيطاليا فوافق الأمير إذ كان يجل لوثر الذى كان له الفضل فى نجاح جامعة فيتنبرج ، وفضلا عن هذا فإن الإمبراطور ماكس رأى أن لوثر ورقة رابحة يمكن أن يلعب بها فى نزاعه الدبلوماسى مع روما فأشار على الأمير المختار أن « يهتم جداً بذلك الراهب »(٢٢) .

وفى هذا الوقت نفسه كان الإمبراطور قد دعا المجلس النيابى الإمبراطورى إلى الاجتماع فى أوجسبورج للنظر فى طلب البابا فرض ضريبة على ألمانيا للمعاونة فى تمويل حملة صليبية جديدة ضد الأتراك فرجال الإكليروس (كما رأى ليو) يجب أن يدفعوا عشر دخلهم والعلمانيون جزءاً من اثنى عشر جزءاً من دخلهم ، وكل خمسين من أرباب البيوت يجب أن يجهزوا رجلا ورفض المجلس النيابى بل أنه على النقيض سجل مرة أخرى . . . المظالم التى كانت تهيئ الدعامة التى قام عليها لوثر ، وأوضح للقاصد الرسولى أن ألمانيا كثيراً ما فرضت على نفسها الضرائب للحملات الصليبية فوجدت أن الأموال تنفق فى أغراض البابا الأخرى وأن الناس يعارضون بشدة أية تنازل آخر عن المال لإيطاليا وأن المبالغ السنوية التى تدفع للبابا عن ريع أول عام ورسوم التثبيت الدينى ونفقات القضايا الكنسية المحالة إلى روما كانت عبئاً ثقيلا لا يطاق ، وأن التبرعات الألمانية كانت تعطى مثل ثمار البرقوق إلى القساوسة الإيطاليين . وقال أحد النواب إن مثل هذا الرفض الجرىء للمطالب البابوية لم يعرف قط فى تاريخ ألمانيا(٢٣) . وعند ما لاحظ ماكسمليان روح الثورة بين الأمراء كتب إلى روما ينصح بالحرص فى معاملة لوثر ، ولكنه وعد بالتعاون فى القضاء على الهرطقة .

وكان ليو ميالا أو مضطراً إلى التسامح ، والحق أن مؤرخاً بروتستانتياً عزا انتصار الإصلاح الدينى إلى اعتدال البابا(٢٤) واستبعد الأمر بمثول لوثر أمامه فى روما ، وبدلا من ذلك أمره بأن يمثل أمام الكاردينال كاجيتان فى أوجسبورج وأن يجيب على التهم الموجهة إليه بالخروج على النظام والهرطقة . وأصدر

تعليماته إلى قاصده الرسولى بأن يعرض على لوثر صفحاً كاملا ومناصب فى المستقبل إذا تراجع عن أقواله وأقر بذلك وإلا فإنه سوف يطلب من السلطات الزمنية أنه ترسله إلى روما[٢٥] . وفى الوقت نفسه أعلن ليو عن نيته فى تقديم تكريم لفردريك طالما تطلع إليه الأمير المختار الورع — ألا وهو « الوردة الذهبية » التى كان البابوات يمنحونها للحكام الزمنيين الذين يودون أن يخصوهم بأرفع هباتهم ، ولعل ليو عرض وقتذاك أن يؤيد فردريك كوارث للعرش الإمبراطورى[٢٦] .

وقابل لوثر فى أوجسبورج الكردينال كاجيتان وهو متسلح بجواز أمان من الإمبراطور (١٢ — ١٤ أكتوبر عام ١٥١٨) ، وكان الكردينال رجلا متضلعاً فى اللاهوت ويعيش حياة مثالية ، ولكنه أساء تفسير وظيفته على أنه قاض وليس دبلوماسياً ، ورأى أولا وقبل كل شىء أن الأمر مسألة تتعلق بالنظام الكنسى وضبطه : هل يسمح لراهب أن ينتقد علناً رؤساءه — الذين أقسم أن يدين لهم بالطاعة وأن يدافع عن آراء أدانتها الكنيسة ؟ ورفض أن يناقش صحة آراء لوثر أو خطأها وطالبه بأن يسحب أقواله وأن يتعهد بألا يعكر صفو الكنيسة . ولم يستطع أحدهما صبراً على الآخر ، وعاد لوثر إلى فيتنبرج دون أن يتوب وطالب كاجيتان من فردريك أن يرسله إلى روما فأبى فردريك . وكتب لوثر بياناً شائقاً عن المقابلات نشر فى أرجاء ألمانيا ، وعندما قدمه إلى صديقه فينتسل لينك أضاف قائلا : « أرسل لك عملى التافه لكى ترى ما إذا كنت مخطئاً فى رأيى ، طبقاً لتعاليم بولس ، أن المناهض الحقيقى للمسيحية يسيطر على البلاط الرومانى وأنا أعتقد أنه أسوأ من أى تركى »[٢٧]. وفى خطاب أكثر اعتدالا بعث به إلى الدوق جورج طالب بقوله : « يجب القيام بإصلاح دينى عام للطبقات الروحية والزمنية »[٢٨] والمعروف أن هذه هى المرة الأولى التى استخدم فيها الكلمة التى أضفت على ثورته اسمها التاريخى .

واستمر ليو فى محاولاته للتوفيق ، فأصدر نشرة بابوية فى التاسع من نوفمبر عام ١٥١٨ أنكر فيها كثيراً من المزاعم المتطرفة التى نسبت إلى صكوك الغفران ، فهذه لا تمحو الآثام أو الذنوب ولكنها تعفى فحسب من العقوبات الدنيوية التى فرضتها الكنيسة — لا الحكام الزمنيون — أما بالنسبة لإطلاق سراح الأرواح من المطهر فإن سلطة البابا محدودة بصلواته التى يبتهل فيها إلى الله أن يمنح روح ميت البركة الزائدة للمسيح والقديسين . وفى الثامن والعشرين من نوفمبر قدم لوثر طلباً إلى مجلس عام يستأنف فيه حكم البابا . وفى ذلك الشهر نفسه عهد ليو إلى كارل فون ميلتيتز ، وهو نبيل من الطبقات الصغرى فى روما ، بأن يأخذ « الوردة الذهبية » إلى فردريك وأن يقوم أيضاً بجهد سلمى للعودة بلوثر « ابن الشيطان » إلى حظيرة الطاعة[٢٩] .

وعند ما وصل ميلتيتز إلى ألمانيا دهش عند ما وجد أن نصف أهالى البلد يجاهرون بالعداء للسدة الرومانية وأن من بين كل خمسة من أصدقائه فى أوجسبورج ونورمبرج ثلاثة يؤيدون لوثر . وفى ساكسونى كان الشعور المناهض للبابوية قوياً إلى حد أنه تنصل من كل الدلائل التى تشير إلى أنه مبعوث بابوى . وعند ما التقى بلوثر فى ألتنبورج (٣ يناير سنة ١٥١٩) وجده صريحاً يؤثر أن يقرع الحجة بالحجة ولا يهاب أحداً . وربما كان لوثر فى هذه المرحلة يتوق فى إخلاص إلى الحفاظ على وحدة العالم المسيحى الغربى . وقام بتنازلات كريمة : أن يلزم السكوت إذا التزم خصومه بذلك وأن يكتب رسالة يعلن فيها خضوعه للبابا وأن يقر علناً بصحة الصلوات للقديسين وبحقيقة المطهر وبفائدة صكوك الغفران فى الإعفاء من العقوبات الكنسية وأن ينصح الناس بالولاء المسالم للكنيسة ، وفى غضون ذلك يجب أن تعرض تفاصيل الخلاف على أسقف ألمانى يقبله الطرفان[٣٠] للفصل فيها . فسر ميلتيتز كثيراً وانطلق إلى ليبتسيج واستدعى تيتزل وعنفه على تطاوله واتهمه بالكذب وخيانة الأمانة وعزله فانزوى تيتزل فى ديره ومات بعدها بقليل (١١ أغسطس سنة ١٥١٩) وتلقى ، وهو على فراش الموت ، خطاباً

رقيقاً من لوثر يؤكد له فيه أن بيع صك الغفران لم يكن إلا مناسبة وليس سبباً للفتنة و « أن المسألة لم تكن قد بدأت من أجل ذلك ولكن لأن للموضوع الوليد أباً آخر »[٣١] . وفى الثالث من مارس كتب لوثر رسالة إلى البابا يعلن فيها خضوعه التام فرد عليه ليو بروح ودية (٢٩ مارس) ودعاه للحضور إلى روما ليدلى باعترافه ، وعرض عليه مالا لتغطية نفقات رحلته[٣٢] . ومهما يكن من أمر فإن لوثر ، فى تناقض صريح كان قد كتب إلى سبالاتان فى الثالث عشر من مارس : « إنى فى حيرة لا أدرى هل البابا مناهض للمسيح أم أنه رسوله »[٣٣] . ورأى فى هذه الظروف أن من الأسلم له أن يبقى فى فيتنبرج .

وهناك كانت الكلية والطلبة والمواطنون يعطفون فى الغالب على قضيته ، ولقد أسعده بصفة خاصة أن يلقى التأييد من شاب ألمعى ، عالم بالإنسانيات واللاهوت ، كان قد عينه الأمير المختار عام ١٥١٨ وهو فى الحادية والعشرين من عمره لتدريس اللغـــة اليونانية بالجامعة . وكان فيليب شفارتسرت (الأرض السوداء) قد صبغ اسمه بالهيلينية وغيره إلى ميلانكتون على يد عمه العظيم رويخلين ، كان رجلا صغير القامة ضعيف البنية ، يعرج فى مشيته ، وله تقاطيع لطيفة ، وحاجبان مرتفعان ، وعينان تنمان عن الخجل ، وقد أصبح مفكر الإصلاح الدينى هذا محبوباً فى فيتنبرج إلى حد أن خمسمائة أو ستمائة من الطلبة كانوا يتجمهرون فى قاعة محاضرته ، بل إن لوثر نفسه الذى وصفه بأنه « يتحلى بكل فضيلة معروفة للإنسان »[٣٤] كان يجلس فى تواضع بين تلاميذه . وقال أرازموس : « إن ميلانكتون رجل رقيق الحاشية فحتى أعداؤه يذكرونه بالخير »[٣٥] .

كان لوثر يلذ له الصراع بينما كان ميلانكتون يؤثر المسالمة والتراخى . وكان لوثر يؤنبه أحياناً على أنه حليم أكثر مما يجب ، إلا أن أنبل جانب للوثر وأشده اعتدالا قد اتضح فى حبه الذى لم ينقطع لرجل يختلف عنه فى المزاج والسياسة . « لقد خلقت للحرب والقتال مع الأحزاب والشياطين ، ومن هنا فإن كتبى عاصفة خليقة بمحارب . لا بد أن أجتث جذور جذوع

الأشجار وبقاياها وأن أنتزع الأشواك وأقلم نباتات الأسوار وأن أردم الحفر ، فأنا خبير بالأحراج وأستطيع أن أقتحم فيها طريقاً وأن أهيئ الأمور ، أما الأستاذ فيليب فإنه يسير فى رفق وهدوء ويفلح الأرض ويزرع ويبذر ويسقى وهو مسرور كما حباه الله فى سخاء »(٣٦) .

وثمة أستاذ آخر فى فيتنبرج لمع ببريق أشد من بريق ميلانكتون ذلك هو أندرياس بودينشتاين ، المعروف من محل ميلاده باسم كارلشتادت ، وقد انضم إلى هيئة التدريس بالجامعة وهو فى الرابعة والعشرين من عمره (١٥٠٤) وفى الثلاثين عين أستاذاً لكرسى الفلسفة التومية واللاهوت . وفى اليوم الثالث عشر من إبريل عام ١٥١٧ سبق احتجاج لوثر التاريخى بنشر ١٥٢ مقالا ضد صكوك الغفران . وكان فى مبدأ الأمر معارضاً للوثر ولكنه سرعان ما تحول إلى نصير غيور حتى لقد قال عنه الثائر العظيم « إنه أشد تحمساً منى للأمر »(٣٧) . وعندما تحدى إيك فى كتابه **Obelisci** رسائل لوثر دافع عنها كارلشتادت فى ٤٠٦ قضية منطقية وإحدى هذه القضايا المنطقية تحتوى على أول بيان محدد بالألمانية عن الإصلاح الدينى الألمانى وعن سلطة الإنجيل العليا على مراسيم الكنيسة وتقاليدها . فرد إيك وتحداه أن يدخل معه فى مناظرة علنية ، فوافق كارلشتادت فى الحال وقام لوثر بعمل التدابير اللازمة ، ثم نشر إيك بياناً أورد فيه قائمة بثلاثة عشر مقالا عرض أن يقيم عليها الدليل فى المناظرة . وجاء فى إحداها « نحن ننكر أن الكنيسة الرومانية لم تكن أعلى من الكنائس الأخرى قبل عهد سيلفستر وقد اعترفنا لشاغل كرسى بطرس بأنه خليفة المسيح ونائبه » . ولكن لوثر وليس كارلشتادت هو الذى أثار فى كتابه « قرارات » **Resolutiones** مسألة أن السلطة الرومانية فى القرون الأولى من المسيحية لم يكن لها من السلطان ما يزيد على سلطان عدة أساقفة آخرين من أساقفة الكنيسة ، وشعر لوثر بأن هذا التحدى موجه له وزعم أن مقال إيك قد حرره من عهده الذى قطعه على نفسه بالتزام السكوت وقرر أن ينضم إلى كارلشتادت فى المباراة اللاهوتية .

وفى يونيه عام ١٥١٩ انطلق المحاربان إلى ليبتسيج يصحبهما ميلانكتون

وستة أساتذة آخرون ، ويرافقهما ٢٠٠ طالب من فيتنبرج فى عربات ريفية وهم مسلحون ومسربلون بالدروع وكأنهم مقبلون على معركة ، والحق أنهم كانوا يدخلون أرضاً معادية للوثر . وفى القاعة الكبيرة المفروشة بالطنافس فى قلعة بلايسينبورج ووسط جمهرة من المشاهدين المتلهفين وتحت رئاسة الدوق المحافظ جورج صاحب ألبرتين ساكسونى بدأ إيك وكارلشتادت المثاقفة بين القديم والجديد (٢٧ يونية) . ولم يكد أحد فى ليبتسبورج يعبأ بأن إمبراطوراً جديداً سوف ينتخب غداً فى فرانكفورت الواقعة على المين .

وبعد أن عانى كارلشتادت أياماً من براعة إيك العالية فى المناظرة ناب لوثر عن فيتنبرج . وكان ألمعياً قوى الحجة فى النقاش ، ولكنه كان قليل المبالاة إلى درجة التهور ، فأنكر بشدة رئاسة أسقف روما فى أيام المسيحية الأولى وذكر أشد مستمعيه كراهة بأن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية الواسعة الانتشار لا تزال ترفض سيادة روما ، وعند ما هاجم إيك رأى لوثر وقال إنه إنما يردد وجهة نظر هس التى أدانها مجلس كونستانس ، رد لوثر بقوله إن المجالس المسكونية يمكن أن تخطىء وأن كثيراً من آراء هس كانت صحيحة وعند ما انتهى هذا الجدل (٨ يولية) كان إيك قد وصل إلى غرضه الحقيقى — وهو أن يستدرج لوثر إلى أن يرتكب بنفسه جريمة هرطقة محددة ، فقد تحول الإصلاح الدينى من خلاف صغير حول صكوك الغفران إلى تحد كبير للسلطة البابوية على العالم المسيحى .

وانطلق إيك إلى روما وقدم إلى السدة البابوية تقريراً عما دار من نقاش وأوصى بحرمان لوثر من غفران الكنيسة ، ولكن ليو لم يكن متعجلا إلى هذا الحد إذ كان لا يزال يراوده الأمل فى حل سلمى ثم إنه كان بعيداً جداً عن ألمانيا فلم يدرك مدى ما بلغته الثورة . كما أن مواطنين بارزين مبجلين من أمثال جوهان هولتسشوهر ولازاروس شبينجلر وفيليبالد بيركهايمر ، دافعوا عن لوثر ودعا ديرر له بالنجاح وكان علماء الإنسانيات يطلقون

وابلاً من الكتيبات تطعن فى البابوية بكل ما استوعبه العصر من نقد جارح .
وعند ما وصل أولريخ فون هوتن إلى أوجسبورج عام ١٥١٨ تحول بقصائده
ضد نداء ليو بجمع الأموال للحرب الصليبية وأعرب عن أمله فى أن يذهب
الجباة إلى الوطن بحقائب خاوية . وعند ما بلغته أنباء المناظرة فى ليبتسيج
حيى لوثر كمحرر لألمانيا وشرع قلمه ابتداء من ذلك الوقت سيفاً مصلتاً
للدفاع عن الإصلاح ، وانخرط فى سلك فرسان فرانتس فون سيكنجن —
الذين كانوا يتلهفون على الثورة — وأغراه على أن يقدم إلى لوثر كل التأييد
والحماية اللتين يمكن لعصبته المسلحة أن تزوده بهما ، ورد لوثر معبراً عن
تقديره الحار ، ولكنه لم يكن على استعداد لاستخدام القوة دفاعاً عن
شخصه .

وفى مارس عام ١٥٢٠ نشر هوتن مخطوطة ألمانية قديمة كتبت فى عيد
الإمبراطور هنرى الرابع (حكم من ١٠٥٦ — ١١٠٦) ، وكانت تؤيد
هنرى فى صراعه مع البابا جريجورى السابع ، وأهدى الكتاب إلى الإمبراطور
الشاب شارل الخامس إشارة إلى أن ألمانيا تتوقع منه أن ينتقم لإذلال هنرى
وهزيمته . وقال هوتن إن تحرير ألمانيا من روما أشد إلحاحاً من صد الأتراك .
« فى الوقت الذى رأى فيه أجدادنا أنه لا يخلق بهم أن يخضعوا للرومان
عند ما كان هؤلاء أعظم أمة حربية فى العالم نجد أننا لا نخضع لهؤلاء العبيد
المخنثين المنغمسين فى حمأة الشهوة والترف فحسب بل إننا نعرض أنفسنا
للاغتصاب ونهيء لهم إرضاء شهواتهم الحسية »[٣٨] . وفى إبريل عام ١٥٢٠
أصدر هوتن أول سلسلتين من Gesprache وهو محاورات منظومة لعبت
دوراً لا يفوقه إلا مؤلفات لوثر ، وذلك فى الإعراب عن الرغبة القومية فى
الاستقلال عن روما واستنهاضها ووصف روما بأنها : « دودة ضخمة تمتص
الدماء » . وصرح بأن « البابا زعيم لص وأن عصابته تحمل اسم الكنيسة . . .
وروما بحر من الدنس وحمأة من القذارة وبالوعة ليس لها قرار من الظلم .

ألا يجدر بنا أن نتقاطر من كل حدب وصوب لنقوم بإزالة هذه اللعنة الشائعة التي حاقت بالبشرية ؟ »[٣٩] ، وأقام أرازموس الحجة مع هوتن ليلطف من أسلوبه وحذره ودياً بأنه فى خطر وعرضة للقبض عليه . واختبأ هوتن نفسه فى قلاع سيكينجن واحدة إثر أخرى ولكنه استمر فى حملته . ونصح الأمير المختار فردريك باستيلاء السلطة الزمنية على كل ثروة الأديرة ، وأوضح الوجوه السامية التى يمكن لألمانيا أن تنفق فيها الأموال التى ترسل سنوياً إلى روما[٤٠] .

ولكن مركز الحرب ظل فى فيتنبرج الصغيرة . وفى ربيع عام ١٥٢٠ نشر لوثر موجزاً به ملاحظات عنيفة استشهد بها أحدث المزاعم التى لا تلين والتى يرددها علماء اللاهوت المحافظون عن سيادة البابوات وسلطانهم . وقابل لوثر التطرف بالتطرف : « إذا كانت روما تؤمن وتعلم بمعرفة البابوات والكرادلة (التى أرجو ألا تكون تلك هى الحالة) فإنى أعلن بحرية فى هذه الكتابات بأن المناهض للمسيحية الحقيقى يجلس فى معبد الرب ويحكم فى روما — بابل هذه المصبوغه بلون الأرجوان — وأن مجلس تلك العشيرة الرومانية هو هيكل الشيطان . . . وإذا استمر هياج أنصار روما على هذا النحو فلن يكون أمامنا من علاج سوى أن يتولى الأباطرة والملوك والأمراء ، تحيط بهم القوة والأسلحة ، مهاجمة هذه الأوبئة فى العالم وحسم الأمر بالسيف لا بالكلمات . . . وإذا كنا نقضى على اللصوص بالمشانق ونضرب أعناق الناهبين بالسيوف ونلقى بالهراطقة فى النار فلماذا لا نهاجم أيضاً بالأسلحة أساتذة الدمار هؤلاء ، أعنى هؤلاء الكرادلة وهؤلاء البابوات وكل هذه البالوعة من سدوم الرومانية التى أفسدت كنيسة الرب بلا حدود ، ونغسل أيدينا فى دمائهم ؟ »[٤١] .

وأصدر كارلشتادت فيما بعد فى العام نفسه « كتيباً » **De Canonicis Scripturis libelus** جعل فيه الكتاب المقدس يعلو على البابوات والمجالس

الدينية والتقاليد والأناجيل أعلى من الرسالات الإنجيلية ، ولو أن لوثر اتبع هذا الخط الأخير لكانت البروتستانتيه قد أصبحت أقل بولسية وأوغسطينية وجبرية كان كتاب libellus على رأس عصره فى الشك فى تأليف موسى للأسفار الخمسة (التوراة) وصحة الأناجيل ولكنه كان ضعيفاً فى حجته الرئيسية : فقد قرر صحة الكتب الإنجيلية أستناداً إلى الروايات المأثورة عن القرون الأولى ثم رفض الرواية التى تؤيد الكتب الثابتة على هذا النحو .

وتشجع لوثر بتأييد ميلانكتون وكارلشتادت وهوتن وسيكنجن فكتب إلى سبالاتان (١١ يونية سنة ١٥٢٠) : « لقد ألقيت النرد . وأنا أحتقر الآن غضب الرومان بقدر ما احتقر رضاهم . ولن أهادنهم إلى الأبد . . . فليدينوا ويحرقوا كل ما يمت لى بصلة ، وأنا فى مقابل هذا سوف أفعل لهم الكثير . . . إنى لم أعد اليوم أخشى أحداً وسوف أنشر كتاباً باللغة الألمانية عن الإصلاح المسيحى وهو موجه ضد البابا بلهجة عنيفة كما لو كنت أوجهها إلى مناهض للمسيحية »(٤٢) .

٤ — نشرات بابوية ملتهبة

أصدر ليو العاشر فى اليوم الخامس عشر من شهر يونية عام ١٥٢٠ نشرة أدان فيها واحداً وأربعين بياناً للوثر ، وأمر بأن تحرق علناً مؤلفاته التى ظهرت فيها ، وأنذر لوثر بأن يتراجع عن أخطائه وأن يعود إلى حظيرة الدين . وإذا رفض أن يأتى إلى روما فى خلال ستين يوماً ويسحب أقواله علنا فإنه سوف يبتر من عضوية العالم المسيحى بحرمانه من غفران الكنيسة ، وسوف يعرض عنه كل المؤمنين باعتباره هرطيقاً ، وسوف تتوقف العبادة فى جميع الأماكن التى يقيم فيها ، وعلى جميع السلطات الزمنية أن تطرده من أملاكها أو تسلمه إلى روما

وأعلن لوثر نهاية عهد التسامح بنشر أول كتاب من الكتيبات الثلاثة

التى كونت برنامج الثورة الدينية . وكان حتى هذا الوقت قد كتب باللغة اللاتينية مخاطباً الطبقات المستنيرة ، أما الآن فإنه كتب باللغة الألمانية — كوطنى ألمانى — خطاباً مفتوحاً إلى أشراف الأمة الألمانية المسيحيين بشأن إصلاح طبقة رجال الدين ، وشمل نداءه « استغاثة بالنبيل الشاب » الذى كان قد اختير منذ عام إمبراطوراً باسم شارل الخامس « وأنعم به الله علينا ليكون زعيماً لنا وبهذا ينعش فى كثير من الأفئدة آمالا كباراً فى الخير »(٤٣). وهاجم لوثر « الجدران الثلاثة » التى شيدتها البابوية حول نفسها وهى : التمييز بين رجال الأكليروس والعلمانيين وحق البابا فى أن يفسر الكتاب المقدس على هواه ، وحقه المطلق فى دعوة مجلس عام للكنيسة ، وقال لوثر إن كل هذه الدعاوى الدفاعية يجب أن تهدم . فأولا ليس هناك فرق حقيقى بين رجال الإكليروس والعلمانيين إذ أن كل مسيحى ينصب قساً بالتعميد ومن ثم فإن على الحكام الزمنيين أن يمارسوا سلطاتهم « دون عائق أو اعتراض بغض النظر عما إذا كانوا يسيئون إلى البابا أو الأسقف أو القس . . . وكل ما نص عليــه القانون الكنسى مما يناقض ذلك من خالص بنات أفكار الوقاحة الرومانية »(٤٤) . وثانياً بما أن كل مسيحى يعد قساً فإن له الحق فى أن يفسر الكتب المقدسة طبقاً لما يراه(٤٥) . وثالثاً : يجب أن يكون الكتاب المقدس مرجعنا الأخير للعقيدة أو أداء الشعائر فالكتاب المقدس لا يقدم أية بينة على حق البابا المطلق فى دعوة مجلس . وإذا كان يندد بالحرمان من غفران الكنيسة أو التحريم أن يمنع مجلساً ، « فإننا يجب أن نستخف بسلوكه كأنه تصرف رجل مجنون ونقذفه بحرمانه معتمدين فى ذلك على الله ونقمته بقدر الإمكان»(٤٦) ويجب دعوة مجلس فى أقرب وقت وعليه أن يفحص المفارقة الفظيعة فى أن زعيم العالم المسيحى يعيش فى ترف دنيوى يفوق ما يحلم به أى ملك ولا بد أن يضع هذا حداً لاستيلاء رجال الدين الإيطاليين على التبرعات الألمانية وأن يقلل إلى واحد فى المائة من « زمرة الهوام » الذين يشغلون فى روما مناصب دينية تدر عليهم دخلا دون أن يؤدوا عملا ويعيشون بصفة أساسية على الأموال التى يسلبونها من ألمانيا .

« لقد قرر البعض أن أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ جولدن تجد طريقها كل عام من ألمانيا إلى إيطاليا . . . وها نحن أولاء نصل الى لب الموضوع . . . كيف يتأتى أن يكون لزاماً علينا نحن الألمان أن نتسامح فى مثل هذه السرقة ومثل هذا السلب لأملاكنا على يدى البابا ؟ . . . وإذا كنا بحق نشنق اللصوص ونضرب أعناق السارقين بالإكراه فكيف نسمح للشره الرومانى أن يفلت من العقاب ؟ ذلك لأنه أكبر لص وسارق بالإكراه جاء أو يمكن أن يجيء إلى العالم بل وشرهم قاطبة بالاسم المقدس للمسيح والقديس بطرس ومن فى وسعه بعد هذا أن يتحمل أو يلزم السكوت ؟ »(٤٧) .

لماذا يتحتم على الكنيسة الألمانية أن تدفع هذه الجزية الدائمة إلى سلطة أجنبية ؟ فليتخلص رجال الدين الألمان من تبعتهم لروما ولينشئوا كنيسة قومية تحت زعامة كبير أساقفة ماينز . إن أوامر الاستجداء يجب أن تقل ويجب أن يسمح للقساوسة بالزواج ويجب ألا تؤخذ عهود الرهبنة قبل سن الثلاثين ، وأن تلغى التحاريم والحج وشعائر القداس على أرواح الموتى . . والعطلات (ما عدا أيام الآحاد) وعلى الكنيسة الألمانية مصالحة الهسيين فى بوهيميا ، إن هس أحرق دون أن يشفع له حصوله على جواز الأمان من الإمبراطور ، وفى أية حال فإننا « يجب أن نتغلب على الهراطقة بالكتب لا بالحرق »(٤٨) « ويجب أن ينبذ كل قانون كنسى وألا يكون هناك إلا قانون واحد يطبق على رجال الدين والعلمانيين على السواء — « يجب علينا فوق كل شيء أن نطرد من الأراضى الألمانية مبعوثى البابا بكل ما لهم من « قوى » — وهى التى يبيعونها لنا مقابل مبالغ كبيرة من المال — لإقرار الأرباح الجائرة ، للتحلل من الأقسام والعهود والاتفاقيات بحجة أن البابا له سلطة القيام بهذا العمل — وإن كان هذا خداعاً لا مراء فيه . . . وإذا لم يكن هناك أضاليل خبيثة أخرى لإثبات أن البابا هو المناهض الحقيقى للمسيحية فإن هذا الشيء يكفى لإثبات هذا . أتسمع هذا أيها البابا ، ولا أقول أقدس الرجال بل أكبرهم إثماً ؟

ثق بأن الله رب السموات سوف يقوض عرشك قريباً ويغرقه فى هاوية الجحيم . . . يا سيدى المسيح أطل علينا من عليائك ودع يوم قصاصك يشرق ودمر عش الشيطان فى روما !(٤٩)

وأصبح هذا الهجوم العنيف الذى قام به رجل ضـــد سلطة تشمل كل أوروبا الغربية ، حديث ألمانيا ، فالحذرون من الرجال عدوه من قبيل الإفراط والتهور وعده الكثيرون من بين أعظم الأفعال البطولية فى تاريخ ألمانيا . وسرعان ما نفدت أول طبعة من كتاب « خطاب مفتوح » وشغلت مطابع فيتنبرج بإخراج طبعات جديدة . وكانت ألمانيا مثل انجلترا ، مهيأة لتقبل الدعوة إلى القومية ولم يكن هناك إبان هذا العهد دولة اسمها ألمانيا على الخريطة ولكن كان هناك ألمان بدأوا يشعرون بأنفسهم كشعب . وبما أن هس قد أكد وطنيته البوهيمية ، وبما أن هنرى الثامن لم ينبذ العقيدة الكاثوليكية بل رفض أن يمتد سلطان البابا إلى إنجلترا ، فإن لوثر وقتذاك زرع بذرة الثورة لا فى صحارى اللاهوت بل فى الأرض الخصبة لروح ألمانيا القومية وحينما فازت البروتستانية حملت القومية العلم .

وفى سبتمبر عام ١٥٢٠ أصدر إيك وجيروم الياندر منشور الحرمان من غفران الكنيسة فى ألمانيا فرد عليهم لوثر الطعنة بإصدار بيان ثان هو : « الأسر البابلى للكنيسة » (٦ أكتوبر) ولما كان موجهاً إلى علماء اللاهوت والدارسين فإنه عاد إلى الكتابة باللاتينية ، ولكن سرعان ما ترجم البيان وكان له تأثير عظيم على العقيدة المسيحية قارب تأثير « خطاب مفتوح » على التاريخ الدينى والسياسى . فكما قاسى اليهود طويلا من الأسر فى بابل فإن الكنيسة كما أنشأها المسيح ، وكما نص عليها فى العهد الجديد قد تعرضت للأسر ما يزيد على ألف عام تحت حكم البابوية فى روما . وفى خلال تلك الفترة تعرض دين المسيح إلى الفساد فى الإيمان والأخلاقيات والشعائر . وبما أن المسيح قد أعطى حوارييه نبيذاً وخبزاً فى العشاء الأخير فإن المسيين كانوا

على حق فيما ذهبوا إليه : إذ يجب أن يناول القربان المقدس بكلا الشكلين كما يشاء الناس ، والقس لا يغير الخبز والنبيذ إلى جسد ودم المسيح ؛ فليس هناك قس يملك هذه القدرة الصوفية ، ولكن المسيح سيجىء روحياً ومادياً لكل من يتناول القربان المقدس لا عن طريق أى تحول معجز على يد أحد القساوسة بل سيجىء بإرادته وبقوته ، فهو حاضر فى القربان المقدس مع الخبز والنبيذ عن طريق التجاسد لا عن طريق التجسيم[٥٠] . ورفض فى هلع الفكرة التى تذهب إلى أن القس يقدم المسيح إلى أبيه فى القداس قرباناً للتكفير عن خطايا البشر ولو أنه لم يجد ما يفزعه فى الفكرة التى تقول إن الرب قد سمح للبشر بأن يصلبوا الرب قرباناً للرب تكفيراً عن خطايا البشر .

وأضاف بعض المستحدثات الأخلاقية إلى هذه الأمور الدينية التى تدق على الفهم ، فالزواج ليس قرباناً مقدساً لأن المسيح لم يقطع على نفسه عهداً بأن يبث فيه الرحمة الإلهية وقال « إن زيجات الأقدمين لم تكن تقل قداسة عن زيجاتنا كما أن زيجات الكفار ليست أقل صحة من زيجاتنا »[٥١] . وعلى ذلك يجب ألا يحرم الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين « فكما آكل وأشرب وأنام وأمشى . . . وأتعامل مع وثنى أو يهودى أو تركى أو هرطيقى فإن فى وسعى أن أتزوج من أى واحدة من نسائهم ، فلا تبالوا بالقانون الذى سنه الأحمق لتحريم هذا . . . إن الشخص الوثنى سواء كان رجلا أو امرأة خلقه الله كما خلق القديس بطرس والقديس بولس أو القديسة لوسى »[٥٢]. وأى امرأة تتزوج من رجل عنين يجب أن يسمح لها ، إذا وافق زوجها ، بأن تضاجع رجلا آخر لكى تنجب منه طفلا ويجب أن يسمح لها بأن تدعى أن الطفل هو ابن زوجها وإذا أبى الزوج فإنها تستطيع بحق أن تطاق منه . ومع ذلك فإن الطلاق مأساة لا نهاية لها ، ولعل تعدد الزوجات خير منه[٥٣]. ثم أضاف لوثر التحدى إلى الهرطقة وانتهى إلى أن يقول « إنى أسمع إشاعة تقول إن نشرات بابوية جديدة ولعنات بابوية ترسل ضدى تتضمن حثاً على سحب أقوالى »[٥٤]...

وإذا كان هذا حقاً فإنى أود أن يكون هذا الكتاب جزءاً من الإنكار الذى أقوم به » .

وكان حرياً بمثل هذه السخرية أن تزيغ ميلتيتز عن حلمه بالمهادنة . ومع ذلك فإنه سعى مرة أخرى إلى لوثر (١١ أكتوبر سنة ١٥٢٠) وأقنعه بأن يرسل للبابا ليو خطاباً يتنصل فيه من أى قصد فى مهاجمته شخصياً ويعرض القضية باعتدال للإصلاح وسوف يحاول ميلتيتز من جانبه أن يكفل له إلغاء النشرة فما كان من لوثر البالغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً « والفلاح ابن الفلاح » كما كان يدعو نفسه مفاخراً ، إلا أن كتب خطاباً لم يضمنه اعتذاراً بل نصيحة أبوية تقريباً إلى خليقة القديس بطرس وسليل آل مديتشى البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً . وأعرب عن احترامه للبابا كفرد ولكنه استنكر فى غير هوادة فساد البابوية فى الماضى والمحكمة البابوية فى الحاضر :
« إن ما تتمتع به من سمعة وشهرة فى حياتك الطاهرة الذيل أمر معروف تماماً وأسمى من أن يكون مجالا للهجوم . . . ولكن سدتك البابوية التى تسمى المحكمة الرومانية والتى لا يمكنك أنت أو أى إنسان أن تنكر أنها أكثر فساداً مما كان عليه أهل بابل أو سدوم والتى بقدر ما أستطيع أن أرى ، تتسم بخبث غوى لا أمل فيه قبيح الصيت — فهذه السدة أنا أزدريها . . . ولقد أصبحت الكنيسة الرومانية أكبر وكر داعر للصوص وأعظم المواخير التى ينددى لها الجبين ومملكة الإثم والموت والجحيم . . . ولطالما ساءنى يا صاحب المقام السامى ليو إنك تنصب بابا فى هذه العهود لأنك خليق بأيام خير منها . . .

« ولذلك أرجو « يا عزيزى ليو ألا تستمع إلى تلك الأقوال المعسولة التى لا تجعلك بشراً سوياً وترفعك إلى مصاف أنصاف الآلهة لكى تأمر . . . بما تشاء فأنت خادم الإجراء وبعد كل الرجال الآخرين فى مركز خطير يرثى له . فلا يخدعك هؤلاء الذين يدعون أنك سيد العالم . . . الذين

يهرفون بأن لك سلطاناً على السماء والجحيم والمطهر . . . إن الذين يعلون قدرك فوق المجلس وفوق الكنيسة العالمية يخطئون . والذين ينسبون إليك الحق فى تفسير الكتاب المقدس يخطئون لأنهم ينشدون تحت ستار اسمك أن يرسوا قواعد خبثهم فى الكنيسة ، ومما يؤسف له أن الشيطان من خلالهم قد أحرز نجاحاً تحت حكم أسلافك . والخلاصة لا تصدق أحداً يعلى من قدرك ، وصدق هؤلاء الذين يضعون من شأنك(٥٥) .

وأرسل لوثر مع هذا الخطاب ثالث بياناته وأطلق عليه اسم « عجالة فى الحرية المسيحية » (نوفمبر عام ١٥٢٠) وشعر بأنه « ما لم أكن مخدوعاً فإنها الحياة المسيحية بأسرها فى شكل موجز »(٥٦) . وعبر هنا باعتدال يخلو من الرقة عن مذهبه الأساسى — أن ذلك الإيمان وحده لا الأعمال الصالحة هى التى تخلق المسيحى الصادق وتخلصه من عذاب النار . لأن الإيمان بالمسيح هو الذى يجعل الإنسان صالحاً وأعماله الصالحة تترتب على ذلك الإيمان . « فالشجرة تحمل الثمار أما الثمرة فلا تحمل الشجرة »(٥٧) . والإنسان القوى الإيمان بالله والذى يكفر عن تضحية المسيح لا ينعم بحرية الإرادة فحسب ولكن ينعم بأعمق الحريات كلها : التحرر من نداء الجسد ومن كل القوى الشريرة ومن اللعنة الأبدية بل ومن القانون لأن الإنسان الذى تتدفق فضيلته تلقائياً من إيمانه فى غنى عن الأوامر بالاستقامة(٥٨) . ومع ذلك فإن هذا الإنسان الحر يجب أن يكون خادماً لكل الناس لأنه لن يكون سعيداً إذا عجز عن عمل كل ما فى وسعه لإنقاذ الآخرين كما ينقذ نفسه . إنه بالإيمان يرتبط بالله وبالحب مع جاره . وكل مسيحى مؤمن يعد قساً يقوم بالخدمات الدينيـــة .

وبينما كان لوثر يكتب تلك الرسائل التاريخية كان إيك والياندر يواجهان الثورة الدينية مباشرة وأحرزا نجاحاً فى إعلان نشرة الحرمان من غفران الكنيسة فى مايسن ومرسيبورج وبرانديبورج ، أما فى نورمبرج فانهما

لم يستخلصا إلا الاعتذارات من بيركهايمر وشينجلر وفى ماينز طرد كبير أساقفتها ألبرخت من بلاطه هوتن بعد أن هادن فترة الإصلاح الدينى وسجن طابعى كتب هوتن وصودرت كتب لوثر فى أنجولسستادت وأحرقت فى ماينز ولوفان وكولونيا ، ولكن فى ليبتسيج وتورجاو وديبيلين لطخت النشرة المعلقة بالقـذاوة ومزقت وفى أرفورت انضم كثير من الأساتذة ورجال الدين فى رفض عام للاعتراف بالنشرة ، وألقى الطلبة بكل ما وصل إلى أيديهم من النسخ فى النهر ، وأخيراً فر إيك من المسرح الذى شهد انتصاراته قبل ذلك بعام(٥٩) .

وندد لوثر بالإعلان فى سلسلة من الكتيبات التى تقطر مرارة وفى إحدى هذه الكتيبات أعلن موافقته الكاملة على آراء هس ، وحوالى ٣١ من أغسطس عام ١٥٢٠ استغاث بالإمبراطور طالباً الحماية مثل « برغوث واحد يجرؤ على مخاطبة ملك الملوك » وفى السابع عشر من نوفمبر نشر استغاثة رسمية من البابا بمجلس للكنيسة . وعند ما علم أن مبعوثى البابا يحرقون كتبه قرر أن يرد عليهم بالمثل ؛ فأصدر نداء إلى الشباب التقى المثقف فى فيتنبرج لكى يتجمع خارج بوابة « الستر » فى المدينة صباح يوم ١٠ ديسمبر ، وهناك أمسك بيديه نشرة البابا وقذف بها فى النار مع بعض المراسيم الكنسية ومجلدات من لاهوت أصحاب الفلسفة الكلامية ، ورمز فى عمل واحد إلى رفضه للقانون الكنسى وفلسفة الاكوينى وكل سلطة للكنيسة تأخذ بسياسة القمع . وجمع الطلبة كتباً أخرى من نفس النوع فى ابتهاج وألقوا بها فى النار لتظل مشتعلة حتى ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم . وفى الحادى عشر من ديسمبر أعلن لوثر أنه لا يمكن لإنسان الخلاص ما لم يتبرأ من حكم البابوية(٦٠) وهكذا حرم الراهب البابا من غفران الكنيسة .

٥ — المجلس النيابى فى ورمس

ولقد ظهر على المسرح وقتذاك ممثل ثالث قام منذ تلك اللحظة بدور كبير استمر ثلاثين عاماً وذلك فى الصراع بين اللاهوت والحكومات . ولسوف يفرض نفسه على سردنا التاريخى فى اثنى عشر فصلا أو يزيد .

واستهل الرجل ، الذى قدر له أن يصبح الإمبراطور شارل الخامس ، سيرته بميراث ملكى وإن يكن مدنساً ، فجده من جهة أبيه الإمبراطور ماكسمليان وجدته مارى البورغندية ابنة شارل الجسور ، وجده من جهة أمه فرديناند وجدته إيزابلا ، أما أبوه فهو فيلب الجميل ملك قشتالة الذى ارتقى العرش فى السادسة والعشرين ومات وهو فى الثامنة والعشرين من عمره ، وأمه هى جوانا لالوكا التى جنت عندما بلغ شارل السادسة ، وعاشت حتى بلغ الخامسة والخمسين من عمره . وقد ولد فى غنت (٢٤ فبراير سنة ١٥٠٠) ونشأ فى بروكسل وظل فلمنكى اللسان والطبع إلى أن اعتزل الحكم نهائياً فى إسبانيا . ولم تغفر له هذا إسبانيا ولا ألمانيا ولكنه بمرور الوقت تعلم الحديث بالألمانية والأسبانية والإيطالية والفرنسية ، وكان يستطيع أن يلتزم الصمت فى اللغات الخمس . وحاول أدريان الأوترختى أن يعلمه الفلسفة ولكنه لم يصب نجاحاً يذكر ، وتلقى على يدى هذا الأسقف الصالح تأديباً صارماً ، يتفق مع عقيدة المستمسكين بأهداب الدين ، وربما تشرب مع ذلك فى منتصف العمر نزعة شك خفية من مستشاريه ورجال بلاطه الفلمنكيين الذين شاع بينهم قدر يكتنفه الرضا من عدم المبالاة بالعقيدة على طريقة أرازموس .

ولكم شكا بعض القساوسة من إطلاق حرية الرأى الدينى بين حاشية شارل[61] . واعتصم بالتقوى ولكنه عكف على دراسة فن الحرب . وقرأ كومينيس وتعلم فى مرحلة الطفولة حيل الدبلوماسية وعدم تمسك الدول بالأخلاق .

وعند وفاة أبيه (١٥٠٦) ورث الفلاندرز وهولنده وكونتيه فرانش وادعاء الحق فى حكم برغنديا ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره نهض

بمسئولية الحكم ووقف نفسه على الإدارة ، وفى السادسة عشرة أصبح شارل الأول ملك إسبانيا وصقلية وساردينيا ونابلى وأمريكا الإسبانية ، وفى التاسعة عشرة طمح إلى أن يصبح إمبراطوراً ، وكان فرانسيس الأول ملك فرنسا يصبو إلى الشرف نفسه فى ذلك الوقت أيضاً ، وسر الأمراء المختارون الإمبراطوريون بدماثة أخلاقه إلا أن شارل أنفق ٨٥٠,٠٠٠ فلورين ليكسب هــذه المباراة واستطاع أن يفوز بها (١٥١٩) . واضطر فى سبيل جمع هذا المبلغ الطائل إلى أن يقترض مبلغ ٥٤٣,٠٠٠ فلورين من آل فوجر ، وهكذا أصبح شارل(٦٢) منذذاك صديقاً لآل فوجر ، كما أصبح آل فوجر أوفياء له ، ولكنه لما تأخر فى سداد القرض أرسل له جاكوب فوجر الثانى مذكرة حادة اللهجة : من المعروف جيداً أن جلالتكم ما كنتم تستطيعون الحصول على الشرف الإمبراطورى لولا مساعدتى وفى وسعى أن أثبت ذلك بالبيانات المسجلة من جميع المندوبين ولم أنشد فى هذا منفعتى الخاصة . . . وإنى أطلب بكل احترام أن تتفضـــلوا . . . بإصدار الأمر بإعادة المبلغ الذى كنت قد دفعته هو والفائدة دون تأخير(٦٣) .

وواجه شارل جانباً من التزامه بمنح آل فوجر حق الاستيلاء على رسوم الجمارك فى ميناء أنتورب(٦٤) ، وعند ما أوشك آل فوجر على الخراب نتيجة لغزوات الأتراك لهنغاريا هب لنجدتهم بمنحهم حق الإشراف على المناجم الإسبانية(٦٥) ، ومنذ ذلك الوقت صار مفتاح كثير من التاريخ السياسى « فتش عن المصرف » .

وهذا الفتى الذى وجد نفسه فى التاسعة عشرة من عمره زعيماً بالاسم لكل وسط أوروبا وغربها ما عدا انجلترا وفرنسا والبرتغال والولايات البابوية قد يميز بالصحة الضعيفة التى ضاعفت من تقلباته . . . كان شاحب الوجه قصير القامة ، تبدو عليه البساطة ، له أنف حاد أقنى ، وذقن ينم على التحدى ، خافت الصوت رصين السمات ، وكان رقيق القلب لطيف المعشر بطبعه ، ولكنه سرعان ما تعلم أن الحاكم يجب أن يحافظ

على المسافة والاتجاه ، وأن السكوت نصف الدبلوماسية ، وأن روح الفكاهة الصريحة تكدر عبير جلال الملك . وعند ما التقى به ألياندر عام ١٥٢٠ كتب إلى ليو العاشر يقول : « فى رأيى أن هذا الأمير قد وهب . . . فطنة تفوق عمره وأنه يخفى فى رأسه أكثر مما يبدو على وجهه »(٦٦) . ولم يكن متوقد الذكاء إلا فى الحكم على الرجال — مما يكسبه نصف المعركة ، وكان يرتفع إلى مستوى الأزمات التى تواجهه بالجهد الجهيد — بيد أن ذلك كان يتكلف الكثير حقاً . ثم إن استمرار وهنه فى الجسم والعقل . ‍ـ يضطر إلى أن يتأزم الموقف ويضطره إلى اتخاذ قرار حاسم وعندئذ يواجهه بعزم مفاجىء وإصرار يتسم بالدهاء . كانت الحكمة تواتيه لا بالسليقة ولكن بالتجارب .

وفى الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٥٢٠ انطلق شارل الخامس ؛ ولم يكن أكبر سناً من القرن الذى وجد فيه ، إلى مدينة آخن بلدة شارلمان ليتوج فيها ، وانطلق الأمير المختار فردريك لحضور الحفل ولكنه اضطر إلى التوقف فى كولونيا بسبب داء النقرس ، وهناك قدم له الياندر التماساً آخر للقبض على لوثر ، فما كان من فردريك إلا أن استدعى أرازموس وطلب منه النصيحة ، فدافع أرازموس عن لوثر وأشار إلى أن هناك عيوباً صارخة فى الكنيسة ، وقال إن الجهود التى تبذل لإصلاحها يجب ألا تقمع ، وعندما سأله فردريك ما هى الأخطاء الرئيسية التى ارتكبها لوثر أجاب : « خطأين : هاجم البابا فى تاجه ، والرهبان فى بطونهم »(٦٧) . وناقض صحة النشرة البابوية ، وقال إنه يرى أنها لا تتفق مع ما عرف به ليو العاشر من رقة الحاشية(٦٨) وأبلغ فردريك القاصد الرسولى أن لوثر قدم التماساً وأن لوثر يجب أن يظل طليقاً إلى أن يبت فى هذا الالتماس .

ورد الإمبراطور بالجواب نفسه . . . كان قد وعد الأمراء المختارين كشرط لانتخابه ، ألا يدان ألمانى دون محاكمة عادلة فى ألمانيا . ومهما يكن من أمر فإن مكانته جعلت — مذهب المحافظة على الدين لا مندوحة عنه ،

وكانت أسبانيا تعترف به ملكاً عليها اسمياً أكثر من اعتراف ألمانيا به إمبراطوراً عليها وهى بلد ينفر من نظام الحكم المركزى ، ولم يعد رجال الدين فى اسبانيا يحتملون طويلا ملكاً يترفق بالهراطقة . يضاف إلى ذلك أن الحرب مع فرنسا كانت تلوح فى الأفق ولسوف يدور القتال حول ميلان باعتبارها مغنماً ، ومن هنا كان تأييد البابا يساوى جيشاً بأسره . . . كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة مرتبطة بالبابوية بمائة وشيجة ، وليس من شك فى أن سقوط إحداها سوف يلحق بالأخريات ضرراً بليغاً فكيف يستطيع الإمبراطور أن يحكم ممالكه المتناثرة المتباينة دون أن يلقى العون من الكنيسة فى النظام الأخلاقى والإدارة السياسة ؟ كان كبار وزرائه إلى ذلك الوقت من رجال الدين كما أنه كان فى حاجة إلى أموال الكنيسة ونفوذها لحماية هنغاريا من الأتراك .

كان شارل يقلب فى ذهنه هذه المشاكل على اختلافها ، وكانت تشغله أكثر من مسألة راهب مشاكس ، فدعا مجلساً نيابياً إمبراطورياً لعقد اجتماع فى ورمس ، ولما اجتمع هناك كبار النبلاء ورجال الدين ممثلو المدن الحرة (٢٧ يناير عام ١٥٢١) إذا بلوثر هو الموضوع الرئيسى فى المناقشة وليس من شك فى أن القوى التى كانت تعد الإصلاح الدينى خلال قرون بلغت أوجها فى مسرح من أعظم المسارح الدرامية فى التاريخ الأوروبى . ويقول مؤرخ كاثوليكى : « لقد امتدحت الطائفة العظمى لنبلاء الألمان محاولات لوثر وأيدتها »[٦٩] . بل إن الياندر نفسه كتب تقريراً قال فيه : « إن ألمانيا بأسرها ترفع السلاح ضد روما والعالم كله يصرخ مطالباً بمجلس يجتمع على الأرض الألمانية . ولقد أصبحت النشرات البابوية التى تنص على الحرمان من غفران الكنيسة تثير السخرية وامتنع عدد كبير من الناس عن تناول القربان المقدس للتكفير . . . أما مارتن فإنه يصور وفوق رأسه هالة ويقبل الناس هذه الصورة . ولقد بيعت منها مقادير هائلة حتى أنى عجزت عن الحصول على

صورة واحدة . . . وأنا لا أستطيع أن أخرج إلى الطرقات خشية أن يرفع الألمان سيوفهم فى وجهى ويصرون بأسنانهم غضباً عند رؤيتى . وإنى لأرجو من البابا أن يمنحنى صك غفران كامل وأن يرعى إخوتى وأخواتى إذا أصابنى مكروه »[٧٠] .

وهبت عاصفة من الكتيبات المناهضة للبابوية زادت من الإثارة وقال ألياندر فى أسى أن عربة لا تسع كل هذه المقالات البذيئة . وأصدر هوتن ، من قلعة سيكنجن فى ابرنبورج على بعد أميال قليلة من ورمس ، نشرة تضمنت هجوماً محموماً ضد رجال الدين الألمان : « اذهبوا أيها الخنازير القذرة . . ارحلوا عن الهيكل المقدس أيها التجار المتبذلون ولا تلمسوا المذابح بأيديكم الدنسة . . . كيف تجرؤون على إنفاق المال المخصص لأغراض دينية فى مظاهر الترف وفى التبذل والأبهة بينما الناس الشرفاء يتضورون جوعاً ؟ لقد فاضت الكأس . ألا ترون أن نسمة الحرية قد بدأت تهب ؟ »[٧١] وكان تعاطف الناس مع لوثر قوياً إلى حد أن كاهن الاعتراف عند الإمبراطور الراهب الفرنسسكانى جان جلابيون اختلى بجورج سبالاتان راعى كنيسة فردريك فى محاولة للتوفيق بين الطرفين . وأعرب عن عطفه الكبير على كتابات لوثر الأولى ، ولكن « الأسر البابلى جعله يشعر » كما لو كان قد جلد بالسياط وضرب بمقبض السيف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . . » وأشار إلى أنه لا يمكن أن يقوم أساس سليم لعقيدة دينية تعتمد على الكتاب المقدس لأن « الإنجيل يشبه شمعاً طرياً يستطيع كل إنسان أن يفتله أو يمطه على هواه » . وسلم بالحاجة الملحة إلى إصلاح كهنوتى ، والحق أنه كان قد حذر إمبراطوره التائب من أن « الله سوف يعاقبه هو وكل الأمراء إذا لم يحرروا الكنيسة من مثل هذه المساوئ التى تنطوى على الغرور » . ووعد بأن شارل سوف ينجز الإصلاحات الكبرى خلال خمس سنوات . وحتى ذلك الوقت وبعد كل تلك الثورات اللوثرية المردعة كان يعتقد أن السلام ممكن إذا تراجع لوثر عما قاله[٧٢] . ولكن لوثر أبى عند ما أخطر بذلك فى فيتنبرج . . .

وفى الثالث من مارس قدم الياندر إلى المجلس النيابى (الدايت) اقتراحاً بالإدانة الفورية للوثر فاحتج المجلس بأن الراهب يجب ألا يدان دون سماع أقواله ، وعلى ذلك وجه شارل دعوة إلى لوثر للحضور إلى ورمس ليؤدى الشهادة عن تعاليمه وكتبه . وكتب له يقول : « لا حاجة بك إلى الخوف من التعرض لأى عنف أو إزعاج لأننا أعطيناك جواز الأمان »(٧٣) . وتوسل أصدقاء لوثر إليه ألا يذهب وذكروه بجواز الأمان الذى كان الإمبراطور سيجسموند قد أعطاه لهس وأرسل أدريان الأوترختى ، وكان وقتذاك كاردينالا لتورتوزا ، ثم نصب بابا بعد قليل ، التماساً إلى الإمبراطور تلميذه السابق طلب فيه أن يتجاهل جواز الأمان وأن يقبض على لوثر ويرسله إلى روما ، وفى اليوم التالى من ابريل غادر لوثر مدينة فيتنبرج ، وعند ما وصل إلى أرفورت حياه حشد كبير من بينهم أربعون أستاذاً من الجامعة باعتباره بطلا . وعند ما اقترب من ورمس سارع سبالاتان وأرسل له تحذيراً ألا يدخل المدينة وأن يقفل راجعاً على جناح السرعة إلى فيتنبرج . فرد عليه لوثر بقوله : « على الرغم من أن فى ورمس كثيراً من الشياطين بقدر عدد طوب القرميد على الأسطح فسوف أذهب إلى هناك »(٧٤) . وانطلقت عصبة من الفرسان الى لقائه ومرافقته إلى المدينة (١٦ ابريل) . وانتشر نبأ وصوله فى الطرقات فتجمع ٢٠٠٠ نسمة حول عربته ، وقال أليالندر « يخيل إلى أن العالم بأسره أقبل لرؤيته بل وحتى شارل حجب فى الظلال » .

وفى يوم ١٧ ابريل مثـل لوثر فى رداء الرهبان أمام المجلس النيابى (الدايت) الإمبراطور وستة أمراء مختارون محكمة رهيبة من الأمراء والنبلاء والبطاركة وأوساط الناس وجيروم أليالندر مسلحاً بسلطة بابوية ووثائق رسمية وفصاحة قضائية ورصت على منضدة قريبة من لوثر مجموعة من الكتب . وتصدى جوهان ايك — ولم يكن صاحب مناظرة ليبتسيج بل موظفاً عند كبير أساقفة ترير — وسأله هل هذه الكتب من تأليفه وهل هو

على استعداد لإنكار كل هذه الهرطقة التى تضمها ؟ ومرت لحظة على لوثر وهو واقف أمام هذا الجمع الذى يمثل هيئة الإمبراطورية والساطة النيابية وجلال الكنيسة ، فخانته شجاعته وأجاب بصوت خافت حتى أن الكتب من تأليفه ، وأما بالنسبة للسؤال الثانى فإنه التمس منحه مهلة للتفكير فأمهله شارل يوماً . وعند ما عاد إلى مسكنه تلقى رسالة من هوتن يناشده فيها الثبات فى موقفه ، وأقبل كثير من أعضاء المجلس النيابى لزيارته زيارة خاصة لتشجيعه ويبدو أن الكثيرين كانوا يحسون بأن جوابه النهائى سوف يكون نقطة تحول فى التاريخ .

وفى يوم ١٨ إبريل واجه المجلس النيابى بثقة كاملة ، وكانت قاعة المجلس تموج بالحاضرين إلى حد أن الأمراء المختارين وجدوا صعوبة بالغـــة فى الوصول إلى مقاعدهم ووقف معظم الحضور . وسأله ايك عما إذا كان على استعداد لإنكار المؤلفات التى كان قد كتبها كلياً أو جزئياً ، فأجاب بأن تلك الأجزاء التى تناولت المفاسد الكهنوتية صحيحة بإجماع الآراء فقاطعه الإمبراطور بصوت جهورى دوى فى القاعة « لا » . ولكن لوثر استأنف حديثه وهاجم شارل نفسه فقال : « إذا أنكرت ما قلت فى هذا الوقت فإنى أفتح الباب لمزيد من الطغيان والزندقة وسوف يصبح هذا كله أسوأ ما يكون إذا ظهر أنى فعلت هذا بناء على طلب الإمبراطورية الرومانية المقدسة » . أما بالنسبة للفقرات العقائدية فى كتبه فقد وافق على أن يسحب أى فقرة منها إذا ثبت أنها تخالف ماجاء فى الكتاب المقدس ، فأبدى إيك على هذا باللاتينية اعتراضاً عبر تماماً عن وجهة نظر الكنيسة : « يا مارتن إن التمسك بسماع ما جاء فى الكتاب المقدس هو نفس ما كان يتذرع به دائماً الهراطقة انك لا تفعل شيئاً سوى أن تكرر الأخطاء التى ارتكبها ويكليف وهس . . . كيف تدعى أنك الوحيد الذى يفهم معنى آيات الكتاب المقدس ؟ وهل تضع حكمك فوق حكم كتبه كثيرون من الرجال المشهورين وتزعم أنك تعرف أكثر ممايعرفون

جميعاً ؟ ليس لك الحق فى أن تدخل فى المناقشة العقيدة الأرثودكسية المقدسة التى لقنها المسيح المشرع الكامل والتى نشرها الرسل فى أرجاء العالم ، والتى ختمت بدماء الشهداء وأكدتها المجالس المقدسة وعرفتها الكنيسة . . . والتى يحرم علينا البابا والإمبراطور مناقشتها خشية ألا ينتهى النقاش . إنى أسالك يا مارتن . أجب بأمانة وصدق بغير مواربة — هل تنكر أو لا تنكر كتبك والأخطاء التى تحتويها ؟ »[٧٥] فرد لوثر بجوابه التاريخى بالألمانية : ما دام جلالتكم وسيادتكم تريدون جواباً بسيطاً فإنى سأجيب بغير مواربة . . . ما لم تدينى آية فى الكتاب المقدس أو الحجة الواضحة (وأنا لا أقبل سلطة البابوات والمجالس الدينية لأن كلا منهم يناقض الآخر) فإن ضميرى أسير لكلمة الله . وأنا لا أستطيع أن أسحب شيئاً من أقوالى . ولن أفعل هذا ، لأن مخالفــة ضميرى ليس من الصواب والأمن فى شىء . أسأل الله العون . آمين »[٧٦](*) .

فواجهه إيك بأنه لا يمكن إثبات أى خطأ فى المراسيم العقائدية التى أصدرتها المجالس ، فرد عليه لوثر بأنه على استعداد لإثبات مثل هذه الأخطاء ، ولكن الإمبراطور اعترض قائلا بلهجة قاطعة : « هذا يكفى . ما دام أنه أنكر المجالس فإننا لا نود سماع كلمة أخرى »[٧٨] . وعاد لوثر إلى مسكنه وقد أنهكه الصراع ولكنه كان واثقاً من أنه قدم شهادة طيبة فيما أسماه كارلايل « أعظم لحظة فى التاريخ الحديث للإنسانية »[٧٩] .

كان الإمبراطور لا يقل رجفة عن الراهب . ولما كانت تجرى فى عروقه الدماء الملكية ولأنه ألف السلطة فإنه اعتقد أن من الأمور التى لا تحتاج إلى برهان أن حق كل فرد فى تفسير الكتاب المقدس وقبول المراسيم المدنية أو الدينية أو رفضها طبقاً لهواه الشخصى وما يمليه عليه ضميره سوف

(*) ليس فى وسعنا أن نؤكد صحة الكلمات المشهورة التى حفرت على النصب التذكارى الفخم الذى أقيم تخليداً للوثر فى ورمس — « هنا أقف ولا أستطيع أن أعمل شيئاً آخر » . ولم ترد الكلمات فى النسخة المطابقة لرد لوثر كما هو مثبت فى سجلات المجلس النيابى (الدايت) لأول مرة فى أول رواية طبعت لخطابه[٧٧] .

يعجل بتقويض أسس النظام الاجتماعى لأن هــذا كما بدا له قائم على قانون أخلاقى يستمد بدوره قوته من الأحكام الخارقة للعقيدة الدينية .

وفى اليوم التاسع عشر من إبريل دعا كبار الأمراء إلى مؤتمر عقده فى حجراته الخاصة وقدم لهم بياناً عن الولاء والنية مكتوباً بالفرنسية ويبدو أنه كتبه بنفسه : « إنى أنحدر من صلب سلسلة طويلة من الأباطرة المسيحيين لهذه الأمة الألمانية النبيلة ومن ملوك أسبانيا الكاثوليكيين ومن أرشيدوقات النمسا ودوقات برغنديا . وكانوا جميعاً أوفياء حتى الموت لكنيسة روما ، ولقد دافعوا عن العقيدة الكاثوليكية ومجد الرب وقد عزمت على أن أحذو حذوهم . إن راهباً واحداً يسير ضد المسيحية بأسرها كما عرفت منذ ألف عام لا بد أن يكون على خطأ مبين ، ومن ثم فإنى قررت أن أخاطر ببلادى وأصدقائى وجسمى ودمى وحياتى وروحى . . . وبعد أن استمعت أمس إلى دفاع لوثر المتشبث برأيه فإنى آسف لأنى تأخرت طويلا فى اتخاذ الإجراءات ضده . وضد تعاليمه الزائفة . لن يكون لى معه شأن آخر . وفى وسعه أن يعود فقد منحته جواز الأمان ولكن عليه أن يمتنع عن الوعظ أو إحداث أية فتنة ولسوف أحاكمه على أنه هرطيق سيئ السمعة وإنى أطلب منكم أن تدلوا بآرائكم كما وعدتمونى »[٨٠] .

فوافق أربعة من الأمراء المختارين على هذا الإجراء وامتنع فردريك صاحب ساكسونيا ولودفيج صاحب بالاتينيت عن إبداء رأيهما — وفى تلك الليلة — ١٩ إبريل ثبت أشخاص مجهولون على باب قاعة المدينة وفى أماكن أخرى من ورمس إعلاناً كبيراً يحمل حذاء الفلاح رمز الثورة الاجتماعية . وأفزع هذا بعض رجال الدين وألحوا شخصياً على لوثر بإحلال الوئام محل الخصام مع الكنيسة ، ولكنه أيد تصريحه للمجلس النيابى . وفى السادس والعشرين من إبريل بدأ رحلة العودة إلى فيتنبرج وأرسل ليو أوامر تقضى باحترام جواز الأمان[٨١] ، ومع ذلك فإن الأمير المختار فردريك خشى أن يحاول رجال الشرطة الإمبراطورية القبض على لوثر بعد انتهاء مفعول جواز الأمان

يوم ٦ مايو ، فرتب — بعد أن رضى لوثر بهذا على مضض — كميناً له فى طريق عودته إلى وطنه ، كما لو كان من عمل قطاع الطرق وأخذه خفية إلى قلعة فارتبورج .

وفى السادس من مايو قدم الإمبراطور للمجلس النيابى ، وكان عدد أعضائه قد انخفض بسبب رحيل الكثيرين ، المسودة التى أعدها أليالدر عن منشور ورمس وفيه يتهم لوثر بأنه « دنس الزواج واستخف بالاعتراف وأنكر وجود جسد الرب ودمه . ثم إنه يجعل القربان المقدس يتوقف على إيمان من يتناوله . إنه وثنى فى إنكاره الإرادة الحرة . إن هذا الشيطان الذى يرتدى مسوح راهب قد جمع الأخطاء القديمة فى بركة آسنة منتنة ، بل وابتدع أخطاء جديدة أنه ينكر سلطة الرؤساء ، ويشجع العلمانيين على أن يغسلوا أيديهم من دم رجال الدين . وتعاليمه تدعو إلى العصيان والانقسام والحرب والقتل والسرقة والحرق عمداً وإلى انهيار العالم المسيحى وهو يحيا حياة بهيمية . لقد أحرق المراسيم البابوية ، إنه يحتقر الحرمان من غفران الكنيسة والسيف على السواء . وهو يلحق بالسلطة المدنية من الأذى أكثر مما يلحق بالسلطة الكهنوتية للكتاب المقدس الذى يفسره على هواه . لقد أمهلناه واحداً وعشرين يوماً من ١٥ أبريل . . . وعند ما تنقضى هذه المهلة فليس لأحد أن يؤويه ولسوف يدان أتباعه أيضاً . أما كتبه فيجب أن تمحى من ذاكرة الإنسان »(٨٢).

وبعد يومين من تقديم هذا المنشور حول ليو العاشر تأييده السياسى من فرانسيس الأول إلى شارل الخامس . ووافق المجلس النيابى (الدايت) المجرد من السلطة على المنشور ، وفى اليوم السادس والعشرين من مايو أصدره شارل رسمياً فحمد أليالدر الرب وأمر بإحراق كتب لوثر أينما وجدت .

٦ — الراديكاليون

كانت فارتبورج فى حد ذاتها قطعة من العذاب الكئيب ، فقد كانت القلعة القديمة تجثم على قمة جبل على مسيرة ميل من إيزيناخ ، وكانت مختفية

عن أنظار العالم وعن أنظار الإمبراطور أيضاً . وأقام لوثر هناك مدة تقرب من عشرة شهور (٤ مايو سنة ١٥٢١ إلى ٢٩ فبراير سنة ١٥٢٢) فى غرفة مظلمة مجهزة بفراش ومنضدة وموقد وجذع شجرة يستخدم كمقعد . وكان يحرس القلعة بضعة جنود ، ويعنى بالأراضى حارس ، ويقوم بخدمة لوثر صبيان يعملان وصيفين له . ورأى أن من الأوفق ، ولعل هذا كان من قبيل التنكر المحلى ، أن يخلع مسوح الرهبان ، ولبس رداء فارس ، وأطلق لحيته ، وأصبح وقتذاك يعرف باسم جورج النبيل الألمانى الشاب ، وخرج للصيد ولكنه لم يستطب قتل الأرانب فى الوقت الذى لا يزال فيه كثير من المناهضين للمسيحية بنجوة من القتل . وأسقمه الكسل والأرق وكثرة الطعام وشرب الجعة وأصيب بالبدانة وأخذ يسب ويلعن كما يفعل أى نبيل ألمانى شاب وكتب يقول : « ليتنى أحرق على جمرات ملتهبة فهذا خير لى من أن أتعفن هنا . . . بودى أن أخوض غمار المعركة »(٨٣) . ولكن وزير فردريك نصحه بأن يظل فى مخبئه لمدة عام ريثما تهدأ حماسة شارل . ومهما يكن من أمر فإن شارل لم يبذل أى جهد للعثور عليه أو لاعتقاله .

وراودت الشكوك والأوهام لوثر فى خلوته الفكرية وتساءل أيمكن أن أن يكون على حق وأن يكون مثل هؤلاء الأحبار على ضلال ؟ وهل كان من الحكمة أن يقوض دعائم عقيدة راسخة ؟ وهل مبدأ الاجتهاد الشخصى تذير بنشوب الثورة والقضاء على القانون ؟ إذا كنا نصدق القصة التى رواها فى أخريات أيامه فإن أصواتاً غريبة كانت تزعجه . . . أصواتاً لم يستطع تفسيرها إلا بأنها من صنع الشياطين وأكد أنه رأى الشيطان فى مناسبات عديدة وقرر أن الشيطان رجمه يوماً بالجوز(٨٤) . وتذهب أسطورة مشهورة إلى أن لوثر قذفه يوماً بزجاجة حبر ولكنها أخطأته(٨٥) . وكان يسلى نفسه بكتابة خطابات ناصعة العبارة لأصدقائه وأعدائه وبتأليف عجالات فى علم اللاهوت وبترجمة العهد الجديد إلى الألمانية وقام فى إحدى المرات برحلة خاطفة إلى فيتنبرج ليزكى نار ثورة ،

وكان تحديه لرجال الدين فى ورمس وبقاؤه على قيد الحياة قد أدارا رؤوس أتباعه وجعلهم يتيهون إعجاباً .

وفى أرفورت هاجم الطلبة وأصحاب الحرف والفلاحون أربعين بيتاً فى الأبرشيات وهدموها وأتلفوا مكتبات ومحفوظات وقتلوا عالماً بالإنسانيات (يونيه ١٥٢١) ، وفى خريف ذلك العام المثير هجر الرهبان الأوغسطينيون فى أرفورت الدير وبشروا بالعقيدة اللوثرية ونددوا بالكنيسة باعتبارها «أم الجمود والخيلاء والشح والترف والجحود والهرطقة »[٨٦] .

وحينما ألف ميلانكتون فى فيتنبرج كتابه **Loci Communes rerum theologicarum** (١٥٢١) — وهو أول عرض منهجى للاهوت البروتستانتى . طالب زميله الأستاذ كارلشتادت ، وكان قد أصبح وقتذاك رئيساً للشمامسة فى كنيسة القلعة ، بأن يتلى القداس (إذا كان لا بد منه) باللغة الوطنية وأن يتناول القربان المقدس بالنبيذ والخبز دون أن يسبقه اعتراف أو صوم ، كما يجب أن ترفع الصور الدينية من الكنائس وأن يتزوج رجال الدين — من رهبان وقساوسة علمانيين — وأن ينجبوا . واتخذ كارلشتادت خطوة بالزواج من فتاة فى ربيعها الخامس عشر (١٩ يناير سنة ١٥٢٢) وكان هو فى الأربعين من عمره .

ولم يستنكر لوثر هذا الزواج ولكنه كتب يقول : « يا للسماء ! أيقبل أهالى فيتنبرج أن يقدموا زوجات للرهبان ؟ »[٨٧] ومع ذلك فإنه وجد فى الفكرة ما يجذبه لأنه بعث إلى سبالاتان (٢١ نوفمبر سنة ١٥٢١) برسالة عن « عهود الرهبنة » دافع فيها عن نبذهم لهذه العهود . فتباطأ سبالاتان فى نشره لأنه كان صريحاً بصورة تخالف التقاليد إذ كان يسلم بأن الغريزة الجنسية أمر طبيعى لا يمكن قمعه ويعلن أن عهود الرهبنة من غوايات الشيطان وأنها تضاعف الآثام » وكان لا بد من مرور أربع سنوات قبل أن يتزوج لوثر نفسه إذ يبدو أن تقديره المتأخر للمرأة لم يلعب دوراً فى افتتاح عهد الإصلاح الدينى .

ومضت الثورة قدماً فى اليوم الثانى والعشرين من سبتمبر عام ١٥٢١ ناول ميلانكتون القربان المقدس بكلا الطريقتين وهنا ظفر الأواكويستيون فى بوهيميا بنصر جاءهم على مهل ، وتوقفت تلاوة القداس فى دير لوثر يوم ٢٣ أكتوبر وخرج ثلاثة عشر راهباً من الدير يوم ١٢ نوفبر وتقدموا للزواج ، وسرعان ما خلت نصف أديرة ألمانيا على إثر خروج مماثل . وفى الثالث من ديسمبر دخل بعض الطلبة وسكان المدينة وهم مسلحون بالمدى كنيسة الأبرشية فى فيتنبرج وطردوا القساوسة من المذابح ورجموا بعض المصلين الذين كانوا يؤدون الصلاة أمام تمثال للعذراء . وفى الرابع من ديسمبر هدم أربعون طالباً مذابح دير الفرنشيسكان فى فيتنبرج وفى اليوم نفسه زار لوثر ، وكان لا يزال متنكراً فى زى نبيل ألمانى شاب ، المدينة خفية وأقر زواج الرهبان ولكنه حذر رجال الدين والعلمانيين من الالتجاء إلى العنف وقال : « إن الإكراه ليس حقاً مطلقاً للجميع ولكنه يجب أن تمارسه السلطات الشرعية»(٨٨) . وفى اليوم التالى عاد إلى فارتبورج وبعدذلك بقليل أرسل إلى سبالاتان للنشر كتاب : « تحذير » جاد لكل المسيحيين يحذرهم من العصيان والثورة فقد خشى إذا انتشرت الثورة الدينية بسرعة أو إذا أصبحت ثورة اجتماعية أن تنفر منها طبقة النبلاء وتقضى على نفسها ، غير أن صفحاته الأولى ذاتها كانت موضع انتقاد لأنها كانت تحض على العنف .

« يخيل إلىّ أن المحتمل أن يكون هناك خطر من الثورة ، وأن القساوسة والرهبان والأساقفة والطبقة الروحية بأسرها يمكن أن تتعرض للقتل أو الإبعاد إلى المنفى ما لم يصلحوا من أنفسهم تماماً وبصورة حادة ، ذلك لأن الرجل العادى كان يتذكر دائماً فى فزع الضرر الذى حاق به فى المال والجسد والروح وأصبح هدفاً للاستفزاز . لقد أمعنوا فى اختباره إلى حد بعيد وحملوه ما لا طاقة له به بلا وازع من ضمير . ولم يكن فى وسعه ، هذا ولم يشأ ، أن يتحمله بعد ذلك واستطاع أن يتعلل بحجة قوية لكى يضرب

فى كل اتجاه بمدقات الحنطة والهراوات كما يهدد الفلاحون بالقيام بهذا العمل . وأنا الآن لست مستاء أن أسمع أن رجال الدين قد وصلوا إلى مثل هذه الحالة من الخوف والقلق . ولعلهم عادوا إلى رشدهم وخففوا من استبدادهم الجنونى . . . بل إنى سوف أمضى إلى أبعد من هذا . لو أن لى عشرة أجساد واستطعت أن أنال من الله منة فيقتص منهم (أى من رجال الدين) بالوسائل الرفيقة (ذيل الثعلب غزير الشعر) التى تؤدى إلى الوفاة أو العصيان فإنى أهب أجسادى العشرة كلها للموت وأنا مغتبط « فى سبيل الفلاحين الفقراء »(٨٩) . وأردف يقول : « ومع ذلك فإن على الأفراد أن يتحاشوا الالتجاء إلى القوة فالله منتقم جبار » .

« إن العصيان أمر غير معقول وهو بصفة عامة يضر الأبرياء أكثر مما يضر الآثمين . ولذلك فإن العصيان ليس من الصواب ، فى شىء ، مهما كان الدافع لأصحاب المصلحة فيه ، ذلك لأن الضرر الذى ينجم عنه يتجاوز دائماً قدر ما يتم من الإصلاح . . . وعندما يتخلص السيد فلان (أى سيد) من قيده فإنه لا يستطيع أن يميز الخبيث من الطيب ويضرب خبط عشواء وعندئذ لا مناص من وقوع ظلم فظيع . . . إن عواطفى ستكون دائماً ، ولسوف تظل ، مع أولئك الذين يوجه التمرد ضدهم »(٩٠) .

واستمرت الثورة سلمية إلى حد ما . وفى يوم عيد الميلاد منذ عام ١٥٢١ أقام كارلستادت القداس باللغة الألمانية ، وهو يرتدى ملابس مدنية ودعا الجميع إلى تناول القربان المقدس بأخذ الخبز فى أيديهم والشرب من كأس القـــداس .

وفى ذلك الوقت تقريباً دعا جابرييل تسفيلينج ، وهو أحد زعماء الطائفة الأوغسطينية ، مستمعيه إلى إحراق الصور الدينية وهدم المذابح حيثما وجدت .

وفى السابع والعشرين من ديسمبر صب « الأنبياء » الذين وصلوا من تسفيكا الزيت على النار . وكانت هذه المدينة من أعظم المدن الصناعية

فى ألمانيا ، وفيها عدد كبير من السكان يشتغلون بالنسيج فى ظل بلدية أعضاؤها من السادة التجار ، وشُجّعت حركة اجتماعية من العمال بأصداء وذكريات تجربة التابورية التى قمعت وأثارت بوهيميا القريبة ، وأصبح توماس مينتسر راعى كنيسة سانت كاترين للنساجين الناطق بلسانهم والمعبر عن آمالهم وأصبح فى الوقت نفسه نصيراً متحمساً للإصلاح الدينى ، وعند ما أدرك أن تعظيم لوثر للإنجيل باعتباره القاعدة الوحيدة للعقيدة قد أثار التساؤل عمن يفسر النص أعان منتسر واثنان من رفاقه — وهما نيكولاس ستورك النساج وماركوس شتيبنر العالم — أنهم وحدهم مؤهلون ليكونوا مفسرين للكتاب المقدس فقد أحسوا بأنهم يوحى إليهم من الروح القدس . وصرحوا بأن هذه الروح المقدسة أمرتهم بأن يؤجلوا العماد إلى حين بلوغ سن الرشد لأن القربان المقدس لا يكون له أثر إلا بالإيمان وهو أمر لا ينتظر من الأطفال . وتنبأوا بأن العالم سيتعرض قريباً لخراب شامل يهلك فيه كل الفجار — بما فيهم جميع القساوسة الجامدين بصفة خاصة ، ونبدأ بعد ذلك على الأرض مملكة الرب الشيوعية[٩١] وفى عام ١٥٢١ سحق تمرد قام به النساجون وأقصى ثلاثة من « رسل تسفيكاو » وانطلق منتسر إلى براغ فأخرج منها وحصل على أبرشية فى « الشتدت فى ساكسونيا » . وذهب ستورك وشتينر إلى فيتنبرج وكان لهما أثر طيب على ميلانكتون وكار لشتادت أثناء غياب لوثر .

وفى يوم ٦ يناير سنة ١٥٢٢ تبدد جمع الأوغسطينيين فى فيتنبرج ، وفى يوم ٢٢ يناير كان أنصار كارلشتادت قد بلغوا حظاً كبيراً من القوة فى المجلس البلدى إلى حد أنهم عملوا على إصدار مرسوم يقضى برفع كل الصور من كنائس فيتنبرج ، وتحريم القداس إلا إذا أقيم بالشكل المبسط الذى ينادى به كارلشتادت . وأدخل كارلشتادت صورة صلب المسيح ضمن الصور الممنوعة وحرم مثل المسيحيين الأوائل عزف الموسيقى فى

العبادات ، وقال : « إن ألحان الأرغن الفاجرة تدعو إلى التفكير في أمور الدنيا ، فني الوقت الذى ينبغى فيه أن نتأمل فى آلام المسيح التى تذكرنا بأسطورة بيراموس وتسيبيه Byramus Thibes . . . أبعدوا آلات الأرغن والأبواق والناى إلى المسرح »[٩٢] .

وعند ما أرجأ مندوبو المجلس إزالة الصور قاد كارلشتادت أتباعه إلى داخل الكنائس ، ومزقت الصور والصلبان من فوق الجدران ورجم القساوسة الذين قاوموهم أيضاً بالأحجار[٩٣] . وقبل كارلشتادت رأى أنبياء تسيفاكاو — أن الله يخاطب الناس مباشرة كما يخاطبهم من خلال الأسفار المقدسة ، بل ويتكلم مع بسطاء العقول والقلوب أكثر مما يتكلم مع المتبحرين فى اللغات والكتب — ولما كان هو نفسه علامة فإنه أعلن أن المدارس والدراسات تصرف الناس عن التقوى وأن المسيحيين حقاً سوف يعرضون عن كل الآداب والعلوم والفنون وعن التعليم ويصبحون فلاحين أميين أو حرفيين . وصرف أحد أتباعه وهو جورج مور طلبة المدرسة الذين يدرس لهم وحرض الآباء على أن يحافظوا على براءة أطفالهم من التأثر بالآداب والعلوم والفنون وترك عدد كبير من الطلاب الجامعة وانكفأوا إلى بيوتهم ليتعلموا حرفة يدوية وقالوا إنه لا حاجة بهم بعد هذا إلى الدراسة .

وعند ما سمع لوثر بهذا خشى أن يجد نقاده المحافظون ما يؤيد نبوءاتهم التى رددوها بأن رفضه التسليم بالسلطة الكنسية سوف يفصم عرى النظام الاجتماعى بأكمله . وتحدى لوثر أمر الإمبراطور وضرب عرض الحائط بالحماية التى أسبغها عليه الأمير المختار إذا سعى شارل للقبض عليه . فغادر قلعته وعاد إلى ارتداء مسوح الرهبان وحلق شعر راسه وسارع بالعودة إلى فيتنبرج ، وفى يوم ٩ مارس عام ١٥٢٢ بدأ سلسلة مؤلفة من ثمانى عظات تدعو بشدة الجامعة والكنائس والمواطنين إلى مراعاة النظام ، ذلك لأنه لم يكن يحبذ وقتذاك أى التجاء إلى العنف ، ولم لا ؟ ألم يحرر الملايين من الناس من

عسف الكنيسة دون أن يرفع شيئاً أكثر من القلم ؟ وقال : « اتبعونى فأنا أول من اختصه الله بهذا الأمر والرجل الذى كشف له سبحانه وتعالى عن كلمته التى لا بد أن أبشركم بها . ولذلك أقول إنكم قد ارتكبتم خطأ بشروعكم فى القيام بهذا العمل دون . . . أن تستشيرونى أولا [٩٤] ... أمهلونى بعض الوقت . . . ولا تظنوا أن المظالم تمحى بتدمير الهدف الذى يساء التصرف فيه . إن الناس يمكن أن يضلوا بالنبيذ والنساء فهل نحرم شرب النبيذ ونقضى على النساء ؟ لقد عبد الناس الشمس والقمر والنجوم فهل ننتزعها من السماء [٩٥] ؟ » إن الذين يريدون الاحتفاظ بالصور والتماثيل والصلبان وسماع الموسيقى أو ترتيل القداس يجب ألا يتدخل أحد فى شئونهم فهو نفسه قد أقر الصور الدينية [٩٦] . واتفق على ضرورة إقامة القداس وفقاً للشريعة التقليدية فى إحدى كنائس فيتنبرج وعلى تناول القربان المقدس فى كنيسة أخرى بالخبز وحده فى المذبح العالى وبالخبز والنبيذ فى مذبح جانبى . . . وقال لوثر إن الشكل لا يهم إلا قليلا والمهم هو الروح التى يتناول بها القربان المقدس .

كان فى أحسن حالاته وأعظم الناس استمساكاً بالمسيحية فى تلك العظات الثمانية التى ألقاها فى ثمانية أيام . ولقد خاطر بكل شىء لكى يتمكن من كسب فيتنبرج والعودة بها إلى حظيرة الاعتدال ، ونجح فى ذلك ، وسعى أنبياء تسفيكا لتحويله إلى آرائهم وعرضوا أن يقرأوا أفكاره كدليل على أنهم يتلقون الوحى من الله فقبل التحدى وأجابوا بأنه يضمر لأفكارهم عطفاً خفياً فرد جلاءهم البصرى إلى الشيطان ، وأمرهم بمغادرة فيتنبرج وعند ما فصل كارلشتادت من وظائفه بقرار من مجلس مدينة أعيد تكوينه ، أخذ أبرشية فى أورلاميندبه ، وندد من فوق منبرها بلوثر ووصفه بأنه : « كاهن نهم . . . وبابا فيتنبرج الجديد » [٩٧] . ولقد سبق كارلشتاد جماعة الكويكر فتخلى عن كل الثياب الكهنوتية وارتدى معطفاً رمادياً بسيطاً

واستغنى عن الألقاب وطلب أن يدعى « الأخ أندرياس » ورفض قبول مرتب عن قيامه بالخدمة الدينية ، وعمل على كسب عيشه بالمحراث ورفض كل استخدام للعقاقير وفضّل الصلاة على الدواء ودافع عن تعدد الزوجات باعتباره أمراً لم يحرمه الإنجيل ، وتبنى وجهة نظر رمزية محضة فيما يختص بالقربان المقدس ، وذهب لوثر بناء على طلب الأمير المختار إلى أورلاميندیه ليعظ ضد كارلشتادت ولكنه أخرج من المدينة ورجم بالحجارة والطين[٩٨] . وعندما انهارت ثورة الفلاحين خشى كارلشتادت أن يقبض عليه بتهمة التحريض فسعى إلى مكان أمين مع لوثر وحصـــل عليه . وبعد جولة طويلة وجد الراديكالى ملجأه الأمين بالعمل أستاذاً فى بازيل حيث قضى نحبه فى هدوء عام ١٥٤١ فى جو مدرسى .

٧ — أسس الإيمان

استأنف لوثر طريقه العام غير المستقيم باعتباره قساً لطائفة وأستاذاً فى الجامعة — ودفع له الأمير المختار مرتباً قدره ٢٠٠ جيلدر (٥,٠٠٠ دولار؟) سنوياً وكان كل طالب يضيف إليه أتعاباً زهيدة مقابل حضور محاضراته .

وعاش لوثر صحبة راهب آخر ، وكان كل منهما يرتدى ملابس عامة الناس فى دير أوغسطينى مع طالب يقوم بخـــدمتها وقال : «كان فراشى لا يرتب لمدة عام كامل حتى يصبح قذراً تفوح منه رائحة العرق ، ومع ذلك كنت أواصل العمل طوال النهار فإذا جن الليل أكون منهوك القوى إلى حد أنى أتهاوى فى الفراش دون أن أدرى أن هناك خطأ ما »[٩٩] . وكان العمل الشاق يغفر له شهيته المفتوحة وفى هذا يقول : « إنى آكل كبوهيمى وأشرب كألمانى والحمد لله آمين »[١٠٠] .

وكان يعظ كثيراً ولكن فى إيجاز يتسم بالإشفاق ، وبلغة بسيطة أخاذة تستولى على ألباب مستمعيه الأجلاف . وكانت رياضته الوحيدة هى الشطرنج

والعزف على الناى ، ويبدو أنه كان يجد متعة أكبر فى الساعات التى يقضيها فى مهاجمة « البابويين » . كان أقوى من عرفه التاريخ فى الجدل لا يصده عنه شيء . وكانت كل كتاباته تقريباً صراعاً ممتزجاً بعبارات لاذعة تفيض سخرية وطعناً . وترك خصومه يتأنقون فى اللاتينية الرفيعة بحيث لا يقرأ لهم إلا قلة من الباحثين وكان هو أيضاً يكتب باللاتينية عنـــد ما يريد مخاطبة العالم المسيحى بأسره ، بيد أن الجانب الأكبر من أهاجيه ألفه بالألمانية أو كان يترجم فوراً إلى الألمانية لأن ثورته كانت وطنية ولم يبزه مؤلف ألمانى آخر فى وضوح ألفاظه أو قوة أسلوبه وفى مباشرة عباراته وحدتها اللاذعة وفى تشبيهاته الموفقـــة والتى كانت أحياناً تبعث على الابتهاج فى ألفاظ تمتد جذورها فى كلام الناس وتلائم العقلية القومية .

ووافقت الطباعة أغراضه باعتبارها بدعة أرسلتها العناية الإلهية فيما يبدو فاستخدمها ببراعة لا ينضب لها معين ، وكان أول من جعل منها آلة للدعاية والحرب ولم تكن هناك وقتـــذاك جرائد ولا مجلات ، وكانت المعارك تذكيها الكتب والعجالات والرسائل الخاصة التى دبجت للنشر . وارتفع عدد الكتب المطبوعة ، فى ألمانيا من ١٥٠ عام ١٥١٨ إلى ٩٩٠ عام ١٥٢٤ ، وذلك بحافز من ثورة لوثر ، وكانت أربعة أخماس هذه الكتب تؤيد الإصلاح الدينى أما الكتب التى كانت تدافع عن العقيدة المحافظة فقد كان من الصعب أن تجد من يشتريها ، فى حين كانت مؤلفات لوثر هى أكثر الكتب رواجاً فى هذا العصر ، وكانت لا تباع فى المكتبات فحسب بل كانت تباع عند الباعة الجائلين والطلبة المسافرين أيضاً ، وقد أحضرت ١٤٠٠ نسخة فى سوق واحدة بفرانكفورت ، بل إن ما بيع منها فى باريس عام ١٥٢٠ فاق ما بيع من أى كتاب آخر . وفى مطلع عام ١٥١٩ صدرت لفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والأراضى المنخفضة وانجلترا . وكتب أرازموس عام ١٥٢١ يقول : « إن كتب لوثر فى كل مكان وبكل لغة ولن يصدق أحد مدى تأثيره فى الناس »(١٠١) .

ورجح الأثر الأدبي القوى للمصلحين كفة المطبوعات من جنوبي أوروبا إلى شمالها حيث ظلت على هذا الوضع منذ ذلك . كانت الطباعة هى الإصلاح الديني ، ولا شك أن جوتنبرج هو الذى جعل نجاح لوثر ممكناً .

وكان أعظم عمل قام به لوثر هو ترجمة الإنجيل إلى الألمانية . كانت ثمانى عشرة ترجمة مثلها قد تمت من قبل ولكنها اعتمدت على نسخة جيروم اللاتينية من الكتاب المقدس ، وحفلت بالأخطاء وصيغت عباراتها بأسلوب سقيم ، وكانت صعوبات الترجمة عن الأصل مروعة ولم تكن هناك بعد معاجم من العبرية أو اليونانية إلى الألمانية وكل صفحة من النص تثير مائة مسألة فى التفسير ، وكانت اللغة الألمانية ذاتها لا تزال تفتقر إلى الدقة والإحكام فى التركيب ، واستخدم لوثر فى ترجمة العهد الجديد النص اليونانى الذى كان أرازموس قد نشره مع نسخة لاتينية عام ١٥١٦ ، وأكمل هذا الجزء عام ١٥٢١ ونشر عام ١٥٢٢ . وبعد عمل دائب استمر أكثر من اثنى عشر عاماً ، ووسط كفاح دائم فى مجال علم اللاهوت نشر لوثر العهد القديم بالألمانية ، ولكن بمساعدة ميلانكتون وعدد من الباحثين اليهود وبرغم عدم دقة الدراسة فى هذه الترجمات فإنها كانت من الأحداث المهمة فى هذا العهد ، فقد افتتحت الأدب الألمانى وأصل اللغة الألمانية الجديدة الرفيعة فى ساكسونيا العليا — باعتبارها اللغة الأدبية لألمانيا . ومع ذلك فإن الترجمات كانت غير أدبية عن عمد ، وعلى نهج اللغة الدارجة ، وقد فسر لوثر منهجه بطريقته الواضحة المعهودة فقال : « ينبغى ألا نطلب ، كما يفعل الحمير ، من الحروف اللاتينية أن تعلمنا كيف نتحدث الألمانية بل يجب أن نسأل الأمهات فى بيوتهن والأطفال فى الشوارع وعامة الناس فى السوق . . . يجب أن نسترشد بهم فى الترجمة ولسوف يفهموننا ويعرفون أننا نخاطبهم بالألمانية»(١٠٢) . ومن هنا كان لترجمته فى ألمانيا نفس الأثر والجلال اللذين حظيت بهما نسخة الملك جيمس المترجمة بعد قرن : كان لها تأثير حميد لا حد له على لغة الحديث القومية ولا تزال أعظم عمل نثرى فى الأدب القومى .

وطبعت فى فيتنبرج مائة ألف نسخة من عهد لوثر الجديد إبان حياته ، وظهرت فى أمكنة أخرى اثنتا عشرة طبعة لم يرخص بها وعلى الرغم من المنشـــورات التى تحرم تداولها فى براندنبرج وبافاريا والنمسا فإنها أصبحت أكثر الكتب رواجاً فى ألمانيا وظلت كذلك .

وأثمرت ترجمات الإنجيل كنتيجة وعامل مساعد معاً وأعانت على أن تستبدل باللاتينية اللغات الوطنية والآداب التى واكبت الحركة القومية والتى سايرت هزيمة الكنيسة العالمية فى بلاد لم تكن قد تلقت اللغة اللاتينية وغيّرتها .

ولما كان لوثر قد أكب طويلا على الكتاب المقدس وورث وجهة نظر القرون الوسطى عن صدوره من الله فإنه جعله عن محبة خالصة المصدر الأوحد لعقيدته الدينية وشريعتها . ومع أنه قبل بعض الروايات المأثورة التى لا تقوم على ما جاء فى الكتاب المقدس — مثل تعميد الطفل والراحة يوم الأحد — فإنه رفض أن يسلم بحق الكنيسة فى أن تضيف إلى المسيحية عناصر لا تعتمد على ما جاء فى الكتاب المقدس وإنما تعتمد على عرفها وسلطتها مثل المطهر وصكوك الغفران وعبادة مريم والقديسين وكان كشف فالا عن « هبة قسطنطين » (هبة أوربا الغربية المزعومة للبابوات) باعتبارها أضحوكة عتيقة فى التاريخ قد زعزع إيمان الآلاف من المسيحيين فى الوثوق بروايات الكنيسة وشكك فى الشرعية الملازمة لمراسيمها وفى عام ١٥٣٧ ترجم لوثر نفسه رسالة فالا إلى الألمانية . فالرواية يقوم بها إنسان عرضه للزلل أما الكتاب المقدس فقد قبلته أوروبا بأسرها تقريباً وعدته كلمة الله التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

ثم إن العقل أيضاً يبدو ضعيفاً بالقياس إلى الإيمان فى وحى من لدن الله ، وقال « نحن المساكين ، الناس التعساء . . . نسعى فى غرور إلى فهم الجلال الذى يدق على الفهم لنور عجائب الله التى لا تدرك . . . ونحن نتطلع بعيون مغمضة ، مثل حيوان الخلد ، إلى مجد الله »[١٠٣] . وقال لوثر : « أنت

لا تستطيع أن تقبل كلا من الإنجيل والعقل فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر » .

« إن كل آيات عقيدتنا المسيحية التى كشف لنا الله عنها فى كلمته أمام العقل مستحيلة تماماً ومنافية للمعقول وزائفة . فإذن كيف يعتقد ذلك الأحمق الصغير الماكر أن هناك شيئاً يمكن أن يكون أكثر مجافاة للعقل واستحالة من أن المسيح يعطينا جسده لنأكله ودمه لنشربه فى العشاء الأخير ؟ . . . أو أن الموتى سوف يبعثون من جديد يوم القيامة ؟ . . . أو أن المسيح ابن الله حملت به مريم العذراء وولدته ثم غدا رجلا يتعذب ثم يموت ميتة مخجلة على الصليب(١٠٥) ؟ . . . إن العقل هو أكبر عدو للإيمان . . . إنه أفجر صنائع للشيطان كبغى فتك بها الجرب والجذام ، ويجب أن توطأ بالأقدام ويقضى عليها هى وحكمتها . . . فاقذفها بالروث فى وجهها . . . وأغرقها فى العماد »(١٠٦) .

وأدان لوثر الفلاسفة الكلاميين لأنهم سلموا للعقل بكثير من الأمور ولأنهم حاولوا أن يثبتوا العقائد المسيحية بالخضوع لمقتضى العقل ولأنهم حاولوا أن يوفقوا بين المسيحية وبين فلسفة(١٠٧) أرسطو ذلك الوثنى الداهية المغرور اللعين .

ومع ذلك فإن لوثر خطا خطوتين فى اتجاه العقل : جعل الموعظة ، وليس الاحتفال مركز شعيرته الدينية وأعلن فى الأيام الأولى لثورته بحق كل فرد فى تفسير آيات الكتاب المقدس لنفسه . واستن قانونه الخاص بصحة أسفار الكتاب المقــدس : إلى أى مدى تتفق مع تعاليم المسيح ؟ وقال « إن كل ما لا يبشر بالمسيح ليس رسولياً حتى لو كتبه القديس بطرس أو القديس بولس . . . وكل ما يبشر بالمسيح يكون رسولياً حتى لو صدر من يهوذا وبيلاطس أو هيرودس »(١٠٨) . ورفض التسليم برسالة جيمس وأطلق عليها اسم : « رسالة الهشيم » لأنه لم يستطع أن يوفق بينها وبين رأى بولس

فى التبرير بوساطة الإيمان ، واستراب فى أن الرسالة من عمل العبريين إذ بدا أنها تنكر صحة التوبة بعد العماد (والذلك فإنها تؤيد الذين ينكرون التعميد النصرانى) وقدر أولا أن سفر الرؤيا مزيج لا يدرك من ضروب الوعد والوعيد « لا هى رسولية ولا نبوية »[١٠٩] .

« أما سفر عزرا الثالث فإنى أقذف به فى نهر ألبا »[١١٠] . وعلى الرغم من أنه يقوم على عقلية وثنية وأن معظم أحكامه التى تقوم على شريعة الكتاب المقدس قبلها النقاد الإنجيليون المتأخرون وقالوا إنها ذكية وسليمة . وقال : « إن أحاديث الأنبياء لم يدون منها شىء بانتظام فى حينه بل جمعها مريدوهم وسامعوهم فيما بعد . . . ولم تكن أمثال سليمان من عمل سليمان » . ولكن خصومه الكثالكة أكدوا أن الاختبارات التى وضعها للحكم على الصحة والوحى كانت ذاتية وتحكمية وتنبأوا أن نقاداً آخرين سيحذون حذوه ويرفضون الاعتراف بكتب مقدسة أخرى حسب أهوائهم وآرائهم حتى لا يبقى شىء من الكتاب المقدس يعتبر أساساً للعقيدة الدينية .

وباستبعاد الاستثناءات السالفة فإن لوثر دافع عن الكتاب المقدس باعتباره صحيحاً بحذافيره وحرفياً . وسلم بأنه لو لم ترد قصة يونس فى الحوت فى الكتاب المقدس لسخر منها وعدها خرافة وبالمثل حكايتا عدن والحية ، ويوشع والشمس ولكنه قال متى قبلنا القول بقداسة الكتاب المقـــدس ، فلا بد أن هذه القصص بالإضافة إلى الباقى حقيقة من كل وجه » . ورفض محاولات أرازموس والباقين للتوفيق بين الكتاب المقدس والعقل عن طريق التأويل المجازى[١١١] وعدها من قبيل الإلحاد . ولما كان قد فاز بالطمأنينة الذهنية لا عن طريق الفلسفة ولكن عن طريق الإيمان بالمسيح كما صورته الأناجيل ، فإنه اعتصم بالكتاب المقدس باعتباره الملاذ الأخير للروح ، وعارض علماء الإنسانيات وعبادتهم للكلاسيات الوثنية فعرض الكتاب المقدس لا باعتباره نتاج فكر بشرى ، بل باعتباره بركة من الله وعزاء للبشر .

وقال : « إنه يعلمنا أن نرى ونشعر وندرك ونفهم معنى الإيمان والأمل

والبر بطريقة مغايرة لما يستطيع أن يفعله العقل البشرى وعند ما تضيق صدورنا بالشر فإنه يعلمنا كيف تشع هذه الفضائل الضوء لكى يبدد الظلام وكيف أن هناك حياة أخرى خالدة بعد هذه الحياة الهزيلة التعسة التى نحياها على الأرض »(١١٢) .

وعنـــدما سئل عن الأساس الذى استند إليه فى أن الكتاب المقدس من وحى الله أجاب ببساطة أنه استند إلى تعاليمه ولا يمكن إلا لأناس ألهمهم الله أن يكونوا مثل هذا الإيمان العميق الذى هو عزاء للنفس .

٨ — لاهوت لوثر

وعلى الرغم من أن لاهوته قام على تصديق حرفية ما جاء بالكتب المقدسة فإن تفسيره احتفظ لا شعورياً بالروايات المأثورة فى القرون الوسطى المتأخرة . وجعلته قوميته عصرياً أما لاهوته فيمت إلى عصر الإيمان . وكانت ثورته موجهة ضد النظام الكاثوليكى وطقوسه أكثر منها ضد العقيدة الكاثوليكية ولازمه معظم هذه الثورة إلى النهاية . بل إنه حذا فى ثورته حذو ويكليف وهس ولم ينتهج أى منهج جديد . فثورته مثل ثورتهما تكمن فى رفض البابوية والمجالس الدينية والمراتب الكهنوتية والاهتداء بأى شىء آخر للعقيدة غير الكتاب المقدس ، وقد وصف مثلهما البابا بأنه مناهض للمسيحية ووجد مثلهما الحماية فى رحاب الدولة . وتواصل الفكر من ويكليف إلى هس إلى لوثر يعد الخيط الرئيسى للتطور الدينى من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر . فقـــد كان تواصل الفكر من الناحية اللاهوتية قد اعتصم بآراء أوغسطين عن القدر والرحمة ، وهذه الآراء كانت لها بدورها جذور فى رسائل بولس الذى لم يعرف المسيح قط . وقد تساقطت تقريباً جميع العناصر الوثنية التى شابت المسيحية عند ما اتخذت البروتستانتية شكلها

المرسوم وانتصرت الهيبة اليهودية على الإغريقية وفاز الأنبياء على أرسطو رائد فلسفة الجدليين وأفلاطون رائد علماء الإنسانيات وحول بولس باعتباره أقرب إلى مصاف الأنبياء منه إلى مصاف — الرسل — المسيح إلى تكفير عن خطيئة آدم وحجب العهد القديم العهد الجديد وأظلم يهوه وجه المسيح .

وكان مفهوم الله عند لوثر يهودياً ، وكان فى وسعه أن يتكلم بفصاحة عن رحمة الله وعفوه إلا أن صورة الله القديمة باعتباره منتقماً ثم صورة المسيح باعتباره القاضى الأخير أكثر استقراراً فى نفسه ، ولقد آمن دون أن يسجل أى اعتراض بأن الله قد أغرق كل البشر تقريباً فى الطوفان وأنه أحرق سدوم وأهلك الأراضى والناس والإمبراطوريات بنفثة من غضبه وإشارة من يده . ورأى لوثر أن « قلة قدر لها أن تنجو وأن كثرة كثيرة لحقتها اللعنة إلى الأبد »[١١٣] . ونبذت من القصة الأسطورة التى تخفف من هول تلك الصورة وهى التى تتناول الدور الذى تقوم به مريم فى الشفاعة وبقى فيها اليوم الآخر بكل ما فيه من فزع شديد للبشر الخاطئين بطبيعتهم . وكان الله فى غضون هذا كله قد سلط الوحوش المفترسة والديدان والنسوة الخبيثات على الناس عقاباً لهم على خطاياهم . وكان لوثر يذكر نفسه بين الفينة والفينة بأننا لا نعلم شيئاً عن الله إلا أنه قوة مدركة كونية موجودة . وعند ما سأله شاب لحوح من علماء اللاهوت : أين كان الله قبل خلق العالم ؟ أجاب بأسلوبه الخطابى الفظ على طريقة جونسون « كان يبنى جهنم لهذه الأرواح الفضولية المقلقة المغرورة من أمثالك »[١١٤] .

ولقد أخذ الجنة والجحيم قضية مسلمة وآمن بنهاية مبكرة للعالم[١١٥] . ووصف جنة حافلة بالمسرات وفيها كلاب مدللة « لها شعر ذهبى يلمع كالأحجار الكريمة »[١١٦] ، وهى منحة طيبة لأطفاله الذين أعربوا عن اهتمامهم بمصير كلابهم المدللة . وتحدث فى ثقة مثل الأكوينى عن الملائكة وقال إنها أرواح كريمة لا أجساد لها . ولقد تصور لوثر الإنسان أحياناً عظمة لا نهاية لها يتنازعها

ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، وهم الذين يعزى إلى اختلاف مشاربهم وإلى جهودهم كل الظروف التي تحيط بتصير الإنسان وفي هذا إقحام للزرادشتية في لاهوته . كما سلم تسليماً كاملا بالمفهوم السائد في القرون الوسطى عن الشياطين التي تهيم في الأرض وتوسوس للناس وتغويهم بالإثم وتعرضهم للنحس وتمهد للإنسان طريقه إلى جهنم . وقال : « إن كثيراً من الشياطين تهيم في الغابات والمياه والبرارى وفي الأماكن المظلمة المليئة بالبرك وهي متأهبة أبداً لإيذاء الناس ، وبعضها يهيم في السحب الكثيفة السوداء »(١١٧) .

وقد يكون بعض هذا الاعتقاد إبداعاً تربوياً واعياً لمخاوف خارقة نافعة ، ولكن لوثر كان يتحدث بغير كلفة عن الشياطين ويبدو أنه صدق كل ما قيل عنهم . وقال « إني أعرف الشيطان حق المعرفة » ، وذكر بالتفصيل أحاديثهم مع بعضهم بعضاً(١١٨) . وكان أحياناً يفتن الشيطان بالعزف على الناي وأحياناً كان يفزع الشيطان المسكين(١١٩) بأن يرميه بأقذع السباب(١٢٠)ا. وأصبح من عادته أن يعزو إلى الشيطان الأصوات المخيفة التي تصدر من الجدران وهي تتقلص من البرودة في الليل وذلك عندما كان يستيقظ على هـــذه الأصوات ، وكان في وسعه أن يستنتج وهو واثق أنها من عمل الشيطان ، وهو يحوم حوله وأن يستأنف نومه في هدوء(١٢١) . ونسب إلى فعل الشيطان ظواهر مختلفة لا تسر . سقوط البرد والرعد والحرب والطاعون ، أما الحوادث السعيدة كلها فهي في نظره من فعل الله(١٢٢) . وكان يجد صعوبة في إدراك كل ما نسميه القانون الطبيعي . ويبدو أن كل التراث الشعبي التيتونى عن الطيف الصخاب أو الروح التي تحدث الضجة قد صدقه لوثر بحذافيره والشياطين يؤثر أن تتقمص أجساد الثعابين والقردة(١٢٣) . وكان لوثر يرى أن الفكرة القديمة التي تذهب إلى أن في وسع الشياطين أن تضاجع النساء وأن تنجب منهن أطفالا فكرة صائبة ، بل إنه أشار في مثل هذه الحالة بضرورة إغراق الطفل الذي يولد نتيجة لهذه العلاقة(١٢٤) . وقبل السحر والعرافة على أنهما من الحقائق المسلم بها وكان يرى أن إحراق الساحرات على السارية(١٢٥) واجب

مسيحى بسيط . وكان يشاطره فى معظم آرائه معاصروه سواء أكانوا من الكثالكة أم من البروتستانت .

ثم إن الاعتقاد فى قوة الشياطين وقدرتها على الوجود فى كل مكان بلغ فى القرن السادس عشر درجة قصوى لم تسجل فى أى عصر آخر وقد أفسد هذا الاهتمام بالشيطان كثيراً من اللاهوت البروتستانتى .

وازدادت فلسفة لوثر قتامة بالاقتناع بأن الإنسان بطبعه شرير وميال للإثم(*) ، وقد انتزعت الصورة الإلهية من قلب الإنسان عقاباً لعصيان آدم وحواء ولم يبق فيه إلا الميول الطبيعية . وها هو يقول : « ليس هناك من هو مسيحى أو ورع بفطرته . . . والناس والجماهير بعيدة عن روح المسيحية ولسوف تكون هكذا ... والأشرار يفرقون دائماً الأخيار عدداً »[١٢٦] . بل إن أعمال الشر فى الرجل الخير تفوق فى عددها أعمال الخير لأنه لا يستطيع أن يهرب من فطرته وكما قال بولس : « لا أحد بار ، لا أحد » . وشعر لوثر « بأننا أبناء الغضب وكل أعمالنا ونياتنا وأفكارنا لا تساوى فى الميزان أمام آثامنا »[١٢٧] . ومن جهة سير أعمال الخير فإن كل واحد منا يستحق العذاب المقيم ، وكان لوثر يقصد بعبارة « أعمال الخير » بصفة خاصة تلك الأشكال من الورع الطقسى الذى أوصت به الكنيسة — الصيام والحج والابتهالات إلى القديسين والقداسات للموتى وصكوك الغفران والمواكب والتبرعات للكنيسة ولكنه ضمنها أيضاً « كل الأعمال مهما كانت صفتها »[١٢٨] ولم يشك فى مدى الحاجة إلى الإحسان والحب لتوفير حياة صحية اجتماعية ولكنه أحس(**) بأنه حتى لو كانت هناك حياة مباركة بمثل هذه الفضائل فإنها لا تستطيع أن تفوز بسعادة أزلية ويقول إن « الإنجيل لا يبشر بشىء من الجزاء عن الأعمال وإن من يقول إن الإنجيل نص على أن الأعمال هى وسيلة

(*) أو كما يجب أن نقول يولد الإنسان بغرائز تتفق مع مرحلة الصيد ولكنها فى حاجة إلى كبح مستمر فى الحضارة .

(**) انظر الطوبوات — اصحاح متى ٥ : ٣ — ١١ .

الخلاص أقول له بصراحة تامة إنه كاذب »(١٢٩) . ولا يمكن لقدر من الأعمال الصالحة — فكل منها إهانة لإله لا حد لقدرته — أن تكفر عن الذنوب التى اقترفها خير الناس . ولا يمكن أن تكفر عن خطايا البشر إلا تضحية المسيح المفتدية — آلام ابن الله وموته — ، ولا يمكن أن ينجينا من عذاب جهنم إلا الإيمان بهذا التكفير الإلهى . وكما قال بولس للرومان : « إذا كنت تقر بلسانك أن الرب يسوع وإذا كنت تؤمن فى قرارة فؤادك بأن الله قد رفعه من بين الموتى فإنك سوف تنجو »(١٣٠) . وهذا الإيمان هو الذى « يبرر » — يجعل الإنسان باراً على الرغم مما اقترف من ذنوب ويجعله صالحاً للخلاص ، ولقد قال المسيح نفسه « كل من يؤمن ويعمد سوف ينجو أما من يكفر فسوف تلحقه اللعنة »(١٣١) . وقال لوثر مستنتجاً منطقياً : « ولهذا فإن أول ما يجب أن يهتم له كل مسيحى هو أن يطرح جانباً كل يقين فى الأعمال وأن يقوى إيمانه وحده شيئاً فشيئاً »(١٣٢) واستطرد قائلا فى فقرة أزعجت بعض علماء اللاهوت وإن كانت قد أراحت كثيراً من الخاطئين :

« إن يسوع المسيح ينحنى ويدع الخاطىء يقفز فوق ظهره وهكذا ينقذه من الموت . . . أية تعزية للأرواح التقية أن يعتصم بالمسيح على هذا النحو وأن تلفه فى خطاياى وخطاياك وخطايا العالم بأسره وتعده هكذا يحمل خطايانا جميعاً ! . . . وعند ما ترى أن خطاياك تلصق به فعندئذ تنجو من الخطيئة والموت والجحيم . . . إن المسيحية ليست إلا ممارسة متصلة للإحساس بأنك لا ترتكب خطيئة على الرغم من أنك تقترفها وأن خطاياك إنما توضع على كاهل المسيح . حسبك أن تعرف الحمل الذى يحمل خطايا العالم والخطيئة لا يمكنها أن تفرق بيننا وبينه حتى لو ارتكبنا ألف جريمة زنى كل يوم أو مهما ارتكبنا من جرائم القتل ، ألا تعد هذه بشرى طيبة أن تعرف إنساناً غارقاً فى الخطايا إلى أذنيه فيأتى الإنجيل يقول له : كن على ثقة وآمن تغفر لك خطاياك من الآن فصاعدا ؟ حالما يقتلع هذا الحائل تغفر لك خطاياك وليس ثمة شىء آخر تعمل من أجله »(١٣٣) .

ولعل هذا كان المقصود به تعزية وإنعاش بعض الأرواح المرهفة الحس التي كانت تجزع كثيراً بسبب ما اقترفت من خطايا . واستطاع لوثر أن يتذكر كيف أنه قد غالى يوماً في جسامة ذنوبه ورأى أنها لا تغتفر ولكن الأمر بدا عند بعضهم يشبه كثيراً قول تيتزل المزعوم «أسقط قطعة نقدية في الصندوق تتبدد ذنوبك كلها» وكان الإيمان وقتذاك يفعل الأعاجيب التي زعموا من قبل أنها تتحقق بالاعتراف والتحلل من الذنوب والصدقة وصك الغفران . ومع ذلك فهناك فقرة تسترعي الانتباه : وجد لوثر الغيور الثائر كلمة طيبة يقولها عن الخطيئة ذاتها وقال عند ما يغوينا الشيطان بإلحاح مزعج فقد يكون من الحكمة أن نستسلم لإغرائه ونقترف ذنباً أو اثنين .

«اسع إلى مجتمع رفاقك الطروبين واشرب واقصف وانطلق بالفحش وسل نفسك فلا بد للمرء أن يقترف أحياناً ذنباً كراهية واحتقاراً للشيطان حتى لا يعطيه الفرصة لكي يجعله يشعر بتأنيب الضمير على مجرد أشياء لا تستحق الذكر ، فالمرء يضل إذا اشتد فزعه من أن يقترف ذنباً . . . آه ! . . بودي لو كان في استطاعتي أن أجد ذنباً عظيماً حقاً يقذف بالشيطان !»(١٣٤) .

ولقد دعت هذه الأحكام العرضية المرحة إلى التأويل ، وفسر بعض أتباع لوثر شخصيته بأنه يتسامح في الفجور والزنى والقتل واضطر أستاذ من أنصاره إلى نصيح الوعاظ اللوثريين بأن يحرصوا على الإقلال ما أمكن من القول بأنه يمكن الحصول على البراءة من الذنب بالإيمان وحده(١٣٥) .

ومهما يكن من أمر فإن لوثر كان لا يقصد بالإيمان التسليم العقلي بغرض فحسب ، ولكنه كان يقصد المكابدة الحيوية الشخصية لاعتقاد عملي ، وكان على ثقة من أن الاعتقاد الكامل في أن عفو الله منح بسبب موت المسيح تكفيراً عن ذنوب البشر يجعل الإنسان أولا وقبـل كل شيء صالحاً إلى الحد الذي يجعل مجوناً عارضاً تشيع فيه شهوة الجسد لا يترتب

عليه ضرر دائم ، ذلك لأن الإيمان سرعان ما يعود بالخاطىء إلى الصحة الروحية ، ووافق من صميم قلبه على فائدة الأعمال الصالحات(١٣٦) غير أن ما أنكره هو فاعليتها فى سبيل الخلاص . وقال « إن الأعمال الصالحات لا تخلق رجلا صالحاً ولكن الرجل الصالح يقوم بأعمال صالحات »(١٣٧) . وماذا يجعل الرجل صالحاً ؟ الإيمان بالله والمسيح .

وكيف يتأتى لإنسان أن يصل إلى مثل هذا الإيمان الذى ينجيه من عذاب الجحيم ؟ إنه لا يصل إليه عن طريق أعماله التى يثاب عليها بل إنه منحة يهبها الله ، بغض النظر عن هذه الأعمال ، إلى من يشاء أن ينجيه من عذابه وكما قرر بولس وهو يتذكر قصة فرعون « إن الله يتغمد برحمته من يشاء ويحرم منها من يشاء »(١٣٨) . والله قدر من اصطفاهم للسعادة الأبدية أما الباقون فقد تركهم محرومين من رحمته ملعونين ومخلدين فى نار جهنم(١٣٩) .

« هذه هى ذروة الإيمان : أن تؤمن بأن الله ، الذى ينجى من عذابه قلة من عباده والذى يعاقب الكثرة منهم ، غفور رحيم وأنه تعالى عادل ، إذ سبق فى تقديره أن قضى علينا باللعنة الأبدية لأنه . . . ويبدو أنه يرضى بتعذيب الأشقياء . وإذا استطعت بأى جهد عقلى أن أدرك كيف يكون الله رحيماً فى الوقت الذى يصدر عنه الكثير من الغضب والظلم فلن تكون بى حاجة إلى الإيمان »(١٤٠) .

وهكذا نرى أن لوثر فى غمرة رد فعله القروسطى(*) ضد كنيسة عصر النهضة التى ارتدت إلى عصر الوثنية قد عاد لا إلى العقيدة الأوغسطينية فحسب ولكنه عاد إلى الترتوليانية : الإيمان بما لا يصدق ، وبدا له أن من الفضيلة أن يؤمن بالقدر لأنه كان بالنسبة للعقل أمراً لا يصدق ، ومع ذلك فقد رأى بالمنطق العسير أنه إنما دفع إلى هذا الاعتقاد بعدم قابلية الأمر للتصديق . وها هو عالم اللاهوت الذى كتب ببلاغة لا تضارع عن « حرية الإنسان

(*) نسبه الى القرون الوسطى .

المسيحى » قد رأى وقتذاك (١٥٢٥) فى إحدى رسائله أنه إذا كان الله قادراً على كل شىء فلا بد أنه السبب الوحيد لكل ما يصدر من أفعال بما فيها أعمال الإنسان وأنه إذا كان الله عليماً بكل شىء فإنه يعرف كل شىء مسبقاً وكل شىء لابد أن يحدث كما سبق فى علمه وعلى ذلك فإن كل الأحداث فى كل زمان قد قدرت بإرادته تعالى وأصبحت قدراً محتوماً للأبد . وانتهى لوثر مثل اسبينوزا إلى أن الإنسان « ليس حراً مثل كتلة من الخشب أو صخرة أو كتلة من الصلصال أو عموداً من الملح »(١٤١) . ومع ذلك فإنه لأمر أكثر غرابة أن تحرم الحكمة الإلهية نفسها الملائكة ، لا ، بل والله نفسه من الحرية فإنه تعالى يجب أن يعمل كما سبق فى علمه فحكمته هى قدره .

ولقد فسر أحد المجانين هذه العقيدة كما شاء له هواه : ضرب شاب عنق أخيه وعزا هذا إلى فعل الله الذى لم يكن هو إلا عبده العاجز فحسب ، وحطم أحد المناطقة جسد زوجته بعصبية حتى ماتت وهو يصرخ « الآن تمت إرادة الأب »(١٤٢) .

وتتدرج معظم هذه الاستنتاجات ضمناً فى لاهوت القرون الوسطى ، وقد استخلصها لوثر من بولس إلى أوغسطين فى تزمت لا يلين وبدا راغباً فى قبول لاهوت القرون الوسطى إذا تجرد من سلطان كنيسة عصر النهضة ، فقد كان فى وسعه أن يكون أكثر تسامحاً فى قبول حتمية وجود جمهرة كبيرة من الملعونين منه فى الخضوع لسلطان بابوات يشتطون فى جمع الضرائب بصورة فاضحة . ورفض التسليم بالتعريف الكهنوتى للكنيسة بأنها هى الأسقفية وعرفها بأنها جماعة المؤمنين بالله وبآلام المسيح تكفيراً عن ذنوب البشر ولكنه ردد العقيدة البابوية عند ما كتب يقول : « إن كل الناس الذين ينشدون الوصول إلى الله ويعملون من أجل هذا الوصول بأية وسيلة أخرى غير التوسل بالمسيح (مثل اليهود والأتراك والبابويين والقديسين

الزائفين والهراطقة . . . إلخ) يسيرون فى ظلام دامس سادرين فى الخطأ ولابد من أن يموتوا آخر الأمر ويضيعوا فى آثامهم»(١٤٣) . هنا ولدت من جديد فى فيتنبرج تعاليم بونيفاس الثامن ومجلس روما (١٣٠٢) التى تقول : « لا خلاص للإنسان خارج الكنيسة » .

وأعظم مادة ثورية فى لاهوت لوثر هى تجريد القسيس من منصبه وإباحته للقساوسة الحصول على راتب لا بصفتهم موزعين لا غنى عنهم للقربان المقدس ولا باعتبارهم وسطاء مختصين بين الله والناس ولكن بصفتهم خادمين اختارتهم كل أبرشية للوفاء بحاجاتها الروحية ، واسوف يبدد هؤلاء القساوسة ، بزواجهم وتنشئتهم لأسرة هالة القـداسة التى جعلت نظام القسوسة قوياً رهيباً ، فهم سيكونون « أولا بين أنداد » ولكن أى إنسان فى وسعه عند الحاجة أن يقوم بوظائفهم بل يحل تائباً من ذنبه . وعلى الرهبان أن يتخلوا عن عزلتهم الأنانية وحياة الدعة التى يعيشونها فى الغالب وأن يتزوجوا ويكدحوا مع الآخرين ، فالرجل الذى يجر المحراث والمرأة التى تشتغل فى المطبخ يعبدان الله خيراً مما يفعل الراهب وهو يتمتم بصلوات غير مفهومة فى تكرار يجلب النعاس . ولا بد أن تكون الصلاة هى الصلة الروحية المباشرة بين العبد وربه ولا تكون ابتهالات بقديسين شبه أسطوريين . ومن رأى لوثر أن عبادة القديسين لم تكن معايشة ودية مواسية بين عزلة الحى وقداسة الموتى ، كانت ردة إلى عبادة الأصنام البدائية المشركة(١٤٤) .

أما القرابين المقدسة التى كان ينظر إليها على أنها حفلات يقيمها القساوسة للحصول على الغفران من الرب فإن لوثر هون من شأنها بقسوة فهى لا تنطوى على قوى معجزة وفعاليتها تتوقف لا على أشكالها وصيغها ولكن على إيمان من يتلقاها ، وتثبيت العماد والزواج والرسالة الأسقفية للقساوسة والمسح المغالى فيه للمحتضر ليست إلا طقوساً لم يرتبط بها أى وعد يعفو الله فى الكتاب المقدس ويمكن للدين الجديد أن يستغنى عنها . أما العماد فهنالك بينة

عليه فى مثال يوحنا المعمدان ويمكن استبقاء الاعتراف السمعى باعتباره من المقدسات على الرغم مما يحيط من شكوك بالأساس الذى يستند إليه فى الكتاب المقدس(*) . وأعظم قربان مقدس هو عشاء الرب أو العشاء الربانى . ويرى لوثر أن الفكرة التى تذهب إلى أن القسيس يمكنـــه بتعويذة من كلماته أن يغير الخبز إلى المسيح سخيفة تنطوى على التجديف ، ورأى مع ذلك أن المسيح يهبط من السماء بمحض مشيئته ليكون حاضراً بطريق التجسد مع الخبز والنبيذ فى القربان المقدس . وليس القربان المقدس سحراً كهنوتياً ولكنه معجزة إلهية دائمة (١٤٥) .

ولا شك أن عقيدة لوثر فى القربان المقدس وإحلاله عشاء الرب محل القداس ونظريته عن الخلاص بالإيمان لا بالأعمال الصالحات قد قوضت دعائم سلطة رجال الكهنوت فى شمال ألمانيا .

وأخذ لوثر يروج لهذا النهج فرفض الاعتراف بالمحاكم الأسقفية والقانون الكنسى وأصبحت المحاكم المدنية فى أوروبا اللوثرية هى المحاكم الوحيدة كما أصبحت السلطة الزمنية هى السلطة الشرعية الوحيدة . وعين الحكام الزمنيون موظفى الكنيسة وانتزعوا أملاكها وبدأوا فى الإشراف على مدارسها ومبرات الأديرة . وظلت الكنيسة والدولة مستقلتين إحداهما عن الأخرى من الناحية النظرية وإن أصبحت الكنيسة بالفعل خاضعة للدولة . وهكذا قدر للحركة اللوثرية التى كان يعتقد أنها الحياة بأسرها للاهوت أن تقدم ، بلا قصد ورغم أنفها ، ذلك التحول الشامل نحو الدنيوية الذى أصبح الموضوع الأساسى فى الحياة العصرية .

٩ ــ الثورى

عندما سعى بعض الأساقفة إلى إسكات لوثر وأتباعه أطلق صرخة مادوية غاضبة كانت بمثابة الناقوس المنذر بالثورة تقريباً ، فى كتيب « ضد

( ) استبدل به فى الشعيرة اللوثرية الاعتراف الجماعى بالإثم على أن يتبعه الإبراء العام .

النظام الذى يطلق عليه بهتاناً اسم النظام الروحى للبابا والأساقفة » (يوليو ١٥٢٢) دمغ البطاركة ووصفهم بأنهم « أكبر الذئاب » جميعاً وناشد كل الألمان الصالحين أن يطردوهم بالقوة .

« كان من الخير أن يقتل كل أسقف وأن تقتلع جذور كل مؤسسة أو دير ، فهذا أفضل من أن تزهق روح واحدة فما بالك بفقد كل الأرواح من أجل بهرجهم التافه وعبادة الأوثان . ما فائدة هؤلاء الذين يعيشون غارقين فى الشهوات ويتغذون بعرق الآخرين وكدحهم ؟ . . . إنهم إذا رضوا بكلمة الله وسعوا إلى حياة الروح فإن الله يكون معهم . . . أما إذا لم يستمعوا إلى كلمة الله وثاروا غضباً وتوعدوا بالحرمان والحرق والقتل وبكل شر مستطير ، فماذا يستحقون غير ثورة عارمة تكتسحهم من فوق ظهر الأرض ؟ ولسوف تبتسم إذا حدث هذا . إن كل من يتبرع بالجسد أو بالمتاع أو الشرف للقضـــاء على حكم الأساقفة هم أطفال الله الأعزاء ومسيحيون صادقون »(١٤٦) .

وفى هذا الوقت انتقد لوثر الدولة انتقاده للكنيسة ، فقد آلمه تحريم بيع عهده الجديد أو حيازته فى المناطق التى تخضع لحكام من المحافظين فكتب فى خريف عام ١٥٢٢ رسالة عنوانها « عن السلطة الزمنية : إلى أى حد يجب أن تطاع » . وبدأها بأسلوب ودى للغاية فأقر عقيدة القديس بولس عن الخضوع المدنى والأصل الإلهى للدولة . ومن الواضح أن هذا كان يتناقض مع تعاليمه الخاصة التى تقول بالحرية الكاملة للمسيحى . وأوضح لوثر أنه على الرغم من أن المسيحيين المخلصين ليسوا فى حاجة إلى قانون . . . ومع أن أحداً منهم لن يواجه الآخر بالقانون أو القوة فإنهم يجب أن يطيعوا القانون وأن يكونوا قدوة لغالبية الناس من غير المسيحيين المخلصين لأن فطرة الإنسان التى تجنح للإثم فى غيبة القانون سوف تمزق المجتمع إرباً . ومع ذلك فإن سلطة الدولة يجب أن تنتهى حيث يبدأ ملكوت الروح . من

هم هؤلاء الأمراء الذين يأخذون على عواتقهم أن يفرضوا على الناس ما يقرأونه أو ما يعتقدونه ؟

« لا بد أن تعرفوا أن الأمير الحكيم يندر وجوده حقاً منذ بداية الخليقة مثله فى ذلك مثل الأمير الورع . فالأمراء فى العادة أكبر الحمقى أو أسوأ الأفاقين على ظهر الأرض . إنهم السجانون والجلادون الذين يسلطهم الله على عباده ، وهم أدوات الله التى تحقق غضبه تعالى بعقاب الأشرار وللمحافظة على السلام بين الناس . . . ومهما يكن من أمر فإنى بحل إخلاص أنصح هؤلاء الناس الذين طمس الله على أبصارهم أن ينتبهوا إلى القول الموجز فى المزمور ١٠٧ : (٢٧) « إن الله تعالى ينزل سخطه على الأمراء » وإنى أقسم لكم بالله أن هذه العبارة الموجزة لو أصبحت سيفاً مصلتاً على أعناقكم بسبب خطئكم فلا تلوموا إلا أنفسكم ، وذلك على الرغم من أن كل واحد منكم متين البنيان كالتركى ولن يجديكم فتيلا تميزكم غضباً وتحمسكم للكلام فقد تحقق فعلا بجانب كبير منه ، لأن . . . الرجل العادى يتعلم كيف يفكر . . . ثم إن الجماهير وعامة الناس تستجمع نقمتها على الأمراء وعلى الناس بعد هذا ألا يعانوا من طغيانهم وغرورهم فهذا ما لا يستطيعونه ولن يسمحوا به . فيا أيها الأمراء والسادة الأعزاء تمسكوا بأهداف الحكمة واهتدوا بهديها . إن الله لن يتسامح معكم بعد هذا ولم يعد العالم ذلك الذى كنتم فيه تطاردون الناس وتسوقونهم كالأنعام »(١٤٧) .

واتهمه رئيس وزراء بافارى بأن هذه دعوة للثورة تتسم بالخيانة ، وندد بهذه الرسالة الدوق جورج ووصفها بأنها إفك وحث الأمير المختار فردريك على أن يصادرها . ولكنه على العكس من ذلك سمح بتوزيعها بما عهد فيه من اتزان . ترى ماذا كان يقول الأمراء لو أنهم قرأوا رسالة لوثر إلى فنتسل لينك Wenzel Link (١٩ مارس ١٥٢٢) ؟ « إننا ننتصر على الطغيان البابوى الذى طالما سحق ملوكاً وأمراء فكيف لا يسهل علينا إذن أن نتغلب

على الأمراء أنفسهم ونطأهم بنعالنا »(١٤٨) . أو ماذا هم قائلون إذا اطلعوا على تعريفه للكنيسة ؟ « أعتقد أنه لا توجد على ظهر الأرض إلا كنيسة مسيحية عامة ، حكيمة كالعالم ولكنها كنيسة مقدسة وهى ليست إلا جماعة القديسين . . . وأعتقد أن كل الأشياء على المشاع فى هذه الجماعة أو فى هذا العالم المسيحى ، وكل ما يملكه الإنسان من متاع ملك للآخر ولا يوجد شىء ملك لأحد فحسب »(١٤٩) .

كانت هذه سورة عارضة يجب ألا تؤخذ بمعناها الحرفى ؛ فالواقع أن لوثر كان محافظاً بل ورجعياً فى السياسة والدين بمعنى أنه كان يريد أن يعود بالناس إلى المعتقدات والرسائل الأولى فى القرون الوسطى ، وكان يعد نفسه ممن يردون الأشياء إلى أصولها وأنه ليس مبتدعاً . وكان يمكن أن يقنع بالحفاظ على المجتمع الزراعى الذى عرفه فى طفولته واستمراره مع إدخال بعض وجوه التحسين التى تتسم بالبر . واتفق فى الرأى مع الكنيسة فى القرون الوسطى فى إدانة الربا إلا أنه أضاف بطريقته المرحة أن الربا بدعة من عمل الشيطان وأسف لنمو التجارة الخارجية ووصف التجارة بأنها : « مهنة مرذولة»(١٥٠) واحتقر هؤلاء الذين يكسبون معاشهم بشراء السلعة بثمن رخيص وبيعها بثمن غال . وندد بالمحتكرين الذين كانوا يتآمرون لرفع الأسعار لأنهم « لصوص ظاهرون للعيان » ، وقال : « لكم تحسن السلطات صنعاً لو أخذت من هؤلاء الناس كل ما يملكون وطردتهم من البلاد»(١٥١) ورأى أن الوقت قد حان لوضع « شكيمة فى فم آل فوجر »(١٥٢) ، وانتهى إلى رأى ينذر بالويل فى رسالة عاصفة عنوانها : « عن التجارة والربا » (١٥٢٤) :

« ينبغى أن ينظر الملوك والأمراء إلى هذه الأشياء وأن يحرموها بمقتضى قوانين صارمة ، ولكنى أسمع أن لهم مصلحة فيها وهكذا يتحقق قول أشعياء : « لقد أصبح الأمراء رفاقاً للصوص » وأنهم ليشنقون اللصوص الذين سرقوا جولدن أو نصف جولدن ولكنهم يتاجرون مع من يسلبون العالم بأسره . . .

وهكذا يشنق اللصوص الكبار صغارهم ؛ وكما قال كاتو عضو الشيوخ الرومانى : « الأغرار من اللصوص يزج بهم فى السجن ويطرحون لآلات التعذيب بينما يسير اللصوص المعروفون للناس فى الخارج يرفلون فى الحرير ويتحلون بالذهب » . ولكن ما هو حكم الله على هذا فى آخر الأمر ؟ إنه سوف يفعل ما يقوله حزقيال : أمراء وتجار ، لص مع آخر لسوف يصهرهم الله معاً كما يصهر الرصاص والنحاس أو كما تحترق مدينة ؛ فبالمثل لن يكون هناك أمراء ولا تجار بعد هذا . وفى هذه المرة أخشى أن يكون هذا على الباب[١٥٣] .

وقد كان .

الفصل السابع عشر

الثورة الاجتماعية

١٥٢٢ — ١٥٣٦

١ — الثورة الصاعدة

لقد كان الفرسان المسغبون ينتظرون فى صبر نافد فرصة مواتية للثورة على الأمراء والبطارقة والمولين . وكان شارل الخامس بعيداً عن البلاد فى إسبانيا عام ١٥٢٢ ، وفرق سيكينجن ينتابها القلق بسبب تعطلها عن العمل ، وكانت الأراضى الغنية التى تمتلكها الكنيسة مباحة ويمكن الاستيلاء عليها بسهولة . وكان هوتن يدعو للعمل ، وكان لوثر قد دعا الشعب الألمانى إلى تطهير الأرض من مضطهديه .

وفى الثالث عشر من أغسطس وقع عدد من الفرسان فى لانداو تعهداً بالعمل الموحد ، وحاصر سيكينجن مدينة تريز وقذفها بمنشورات تحرض الناس على الانضمام إليه لخلع كبير الأساقفة الحاكم ، ولكنهم لم يحركوا ساكناً ، وجمع كبير الأساقفة فرقاً ، وقادها بنفسه ، ثم قام بخمس هجمات مضادة ، فرفع سيكينجن الحصار عن المدينة وتراجع إلى قلعته فى لاندشتول . وهاجم كبير الأساقفة القلعة بعنف ، وأصيب سيكينجن بجرح قاتل وهو يدافع عنها ، ثم استسلم فى اليوم السادس من مايو عام ١٥٢٣ ومات فى اليوم السابع من مايو . وخضع الفرسان للأمراء وسرحوا الجنود العاملين بجيوشهم الخاصة وتشبثوا فى قسوة يائسة بالضرائب الإقطاعية المفروضة على الفلاحين التى كانوا يعتمدون عليها فى معاشهم .

وتنبأ لوثر بهذا التصدع فتنصل من الثورة قبل فوات الأوان (١٩ ديسمبر سنة ١٥٢٢) واستمر نجمه فى صعود . وكتب الأرشيدوق فرديناند لأخيه الإمبراطور (١٥٢٢) « إن قضية لوثر تمتد جذورها عميقة فى الإمبراطورية بأسرها إلى حد أنه ليس هناك شخص واحد من كل ألف فى عصمة منها »[١] . وكان الرهبان والقساوسة يقبلون زرافات إلى مذبح الزوجية الجديد . وترددت فى كنيستى لورنز وزيبالدوس بنورمبرج « كلمة الله » — وهى العبارة التى أطلقها المصلحون على عقيدة تقوم على الكتاب المقدس فحسب . وأخذ الوعاظ الإنجيليون ينتقلون بحرية فى أرجاء شمالى ألمانيا ويستولون على منابر قديمة ويشيدون منابر جديدة ، ولم يندوا بالبابوات والأساقفة باعتبارهم « خدماً للشيطان » فحسب ، ولكنهم نددوا أيضاً بالسادة الزمنيين باعتبارهم « مستبدين ظالمين »[٢] . ومهما يكن من أمر فإن السادة الزمنيين كانوا هم أنفسهم ممن اهتدوا بهدى العقيدة الجديدة : فيليب الهسى وكازيمير البراندنبرجى وأولريخ الفيرتيمبرجى وأرنست اللينيبرجى وجون صاحب ساكسونيا . بل إن إيزابيلا شقيقة الإمبراطور كانت من أتباع لوثر .

وكان الأستاذ القديم لشارل قد أصبح الآن البابا أدريان السادس (١٥٢١) فأرسل إلى مجلس النواب فى نورمبرج (١٥٢٢ (طلباً بالقبض على لوثر واعترافاً صادقاً بالأخطاء التى تردّت فيها الكنيسة : « إننا نعلم تمام العلم أن أموراً كثيرة تستحق المقت قد تجمعت حول منصب البابا منذ سنين عديدة . وقد أسىء استخدام الأشياء المقدسة واعتدى على القوانين حتى إنه فى كل شىء كان هناك تغيير إلى الأسوأ ، فلا عجب إذا كان المرض قد زحف من الرأس إلى الأعضاء ، من البابوات إلى من يلونهم فى المناصب . لقد حدنا نحن جميعاً ، من البطارقة ورجال الدين ، عن الطريق المستقيم ، ومنذ عهد بعيد لم يعمل واحد منا عملا صالحاً ، لا أحد بتاتاً . . . والملك . . . فإننا سوف نبذل كل ما فى طاقتنا من جهد لإصلاح المحكمة الرومانية قبل

كل شيء آخر ، وهي التي ربما كانت سبباً في كل هذه الشرور . . . إن العالم بأسره يتوق إلى مثل هذا الإصلاح »[٣] .

ووافق المجلس على أن يطلب من الأمير المختار فردريك كبح جماح لوثر ، ولكنه تساءل لماذا يجب أن يدان لوثر لأنه أشار إلى المظالم التي ارتكبها رجال الدين والتي أيدتها السلطات وقتذاك . وعند ما وجد المجلس أن اعتراف البابا ليس فيه ما يكفي من التفاصيل أرسل له قائمة خاصة ضمنها مائة مظلمة من ألمانيا ضد الكنيسة واقترح أن ينظر بعين الاعتبار إلى هذه الشكاوى ، وعلاجها بوساطة مجلس وطني يعقد في ألمانيا برئاسة الإمبراطور .

واستمع المجلس النيابي نفسه ، وكانت تغلب عليه طائفة النبلاء ، في عطف إلى الاتهامات الموجهة ضد الاحتكاريين بأنهم يثرون على حساب الشعب وكتبت إحدى اللجان إلى المدن الكبرى في ألمانيا تطلب منها إبداء رأيها فيما إذا كانت الاحتكارات ضارة وهل يجب تنظيمها أو القضاء عليها . وردت مدينة أولم بأنها شر مستطير وأن المؤسسات التجارية يجب أن تكون مقصورة على الأب وابنه وزوج ابنته ، أما أوجسبورج موطن آل فوجر فإنها قدمت دفاعاً كلاسياً عن المشروعات التجارية الكبيرة وحرية التجارة وعن الأرامل والأيتام :

« إن العالم المسيحي (أم ينبغي أن نقول العالم بأسره ؟) غني بسبب العمل ، وكلما اتسع حجم العمل في بلد ما ازداد رخاء شعبه . . . وحيث يكثر عدد التجار تزداد فرص العمل . . . ومن المستحيل تحديد حجم الشركات . . . فكلما اتسع حجم معاملاتها وازداد عددها كان هذا خيراً لكل إنسان . وإذا لم يكن التاجر مطلق الحرية في القيام بأعماله في ألمانيا فإنه سوف ينطلق إلى مكان آخر فتخسر ألمانيا . . . وإذا لم يستطع القيام بالعمل بعد أن يتجاوز قدراً معيناً فماذا هو صانع بفائض أمواله ؟ . . . من الخير أن يترك التاجر وشأنه ، وألا توضع أية قيود على مقدرته أو على رأس ماله »

إن بعض الناس يتحدثون عن تحديد طاقة الربح فى الاستثمارات . وهذا سوف . . . يؤدى إلى ظلم فادح وضرر بالغ بإبعاد معاش الأرامل والأيتام وبقية المعذبين الذين يستمدون دخلهم من الاستثمارات فى هذه الشركات »(٤) .

وأصدر المجلس النيابى تشريعاً بألا يزيد رأس مال الشركات عن ٥٠,٠٠٠ جيلدر وإلزامها بتوزيع الأرباح كل سنتين وتقديم حساب علنى ، وألا يقرض المال بفوائد ربوية ، وألا يشترى تاجر أكثر من قدر معين من أية سلعة فى أى فصل من فصول السنة ، وأن تحدد الأسعار بمقتضى قانون . واستعان التجار بشارل الخامس فأيدهم لأسباب سبق بيانها . ولما كان كثير من حكام المدن يشاطرون فى أرباح الاحتكارات فإن مراسيم نورمبرج سرعان ما أصبحت حبراً على ورق .

وأرسل كليمنت السابع ، البابا الجديد ، إلى جلسة تالية للمجلس النيابى (يناير عام ١٥٢٤) الكردينال لورزو كامبيجيو ومعه مطالب جديدة بالقبض على لوثر ، وسخرت الجماهير من القاصد الرسولى فى أوجسبورج واضطر إلى دخول تورمبرج سراً حتى يتجنب المظاهرات المعادية ، وكان من حظه الإذلال عند ما رأى ٣٠٠٠ شخص من بينهم شقيقة الإمبراطور يتلقون القربان المقدس بكلا نوعيه من راع من أتباع لوثر . فحذر المجلس النيابى من أن الثورة الدينية إذا لم تقمع فى مهدها فإنها سوف تقوض دعائم السلطة المدنية وتهدم النظام ، ولكن المجلس النيابى رد عليه بأن أية محاولة لقمع الحركة اللوثرية بالقوة سوف تنتهى بـ « ثورة وعصيان ومذبحة . . . ودمار شامل »(٥) وبينما كانت تدور المداولات بدأت الثورة .

٢ — حرب الفلاحين

١٥٢٤ — ١٥٢٦

أتاحت الثورة الدينية للكادحين فى الحقول أيديولوجية تستهوى الأفئدة

وتعبر عن مطالبهم بالحصول على نصيب أكبر فى رخاء ألمانيا المتزايد . يضاف إلى هذا أن الشدائد التى كانت قد حفزت أهل الريف للقيام باثنتى عشرة ثورة ما زالت تثير إلى حد ما فى ذهن الفلاح اضطراباً ، والحق أن هذا الاضطراب المحموم ازداد شدة فى الوقت الذى تحدى فيه لوثر الكنيسة وانتهر الأمراء وحطم سدود النظام والرهبة ، وجعل من كل إنسان قساً وأعلن حرية الإنسان المسيحى . وكانت الكنيسة والدولة فى هذا العهد بألمانيا مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً — وكان رجال الدين يلعبون دوراً كبيراً فى النظام الاجتماعى والإدارة المدنية — إلى حد أن تقويض ما يتمتع به رجال الدين من هيبة وسلطان قد أزال أكبر عائق للثورة . وقد استمر الولدانيون والبغارديون وإخوة الحياة المشتركة فى تقليد قديم يذهب إلى تأسيس آراء متطرفة من نصوص وردت بالكتاب المقدس . وكان تداول العهد الجديد مطبوعاً لطمة لطبقة المحافظين من رجال السياسة والدين ذلك لأنه فضح ما قام به رجال الدين من تراض مع طبيعة الإنسان وطرق العيش فى الدنيا كما كشف عن شيوعية الرسل وعطف المسيح على الفقراء والمضطهدين .

وكان العهد الجديد فى هذه الأمور بمثابة « بيان شيوعى » حقيقى بالنسبة للمتطرفين فى هذا العصر ووجد فيه الفلاحون وطبقة الكادحين على السواء ضماناً إلهياً لكى يحلموا بمدينة فاضلة (يوتوبيا) تلغى فيها الملكية الخاصة ويرث فيها الفقراء الأرض .

وفى عام ١٥٢١ وزع فى ألمانيا كتيب عنوانه **karsthans** أى جون المذراة ، وقد ضمن الحماية للوثر هذا « الرجل ذو الفأس » والقلم ، ونشر فى العام نفسه ملحق يدافع عن قيام أهل الريف بانتفاضة ضد الكثالكة من رجال الدين(٦) وطالب يوهانس إبرلين فى كتيب آخر صدر عام ١٥٢١ بالتصويت العام للذكور ، وبتبعية كل حاكم وكل موظف للمجالس الشعبية المنتخبة ، وبإلغاء كل المؤسسات الرأسمالية ، وبالعودة إلى تحديد أثمان

الخبز والنبيذ كما كانت فى القرون الوسطى ، وبتعليم كل الأطفال اللاتينية واليونانية والعبرية والفلك والطب[٧] .

وصدر عام ١٥٢٢ كتيب عنوانه « احتياجات الأمة الألمانية » نسب زوراً إلى الإمبراطور فردريك الثالث المتوفى ودعا إلى إلغاء « كل المكوس والضرائب وجوازات السفر والغرامات » وإلغاء القانون الرومانى والقانون الكنسى وتحديد حجم العمل فى المؤسسات برأسمال قدره ١٠,٠٠٠ جيلدر وباستبعاد رجال الدين من الحكومة المدنية وبتصفية ثروة الأديرة وتوزيع المبالغ المحصلة على الفقراء[٨] . وأعلن أوتوبر ونفيلز (١٥٢٤) أن دفع ضرائب العشور إلى رجال الدين أمر مخالف لما جاء بالعهد الجديد . ومزج الوعاظ الإنجيلية البروتستانتية بالآمال اليوتوبية ، وكشف أحدهم أن الجنة مفتوحة الأبواب للفلاحين ومغلقة فى وجوه الأشراف ورجال الدين ، ونصح آخر الفلاحين بأن يكفوا عن إعطاء المال للقساوسة أو الرهبان ، وأشار منتسر وكارلشتادت وهوبماير على مستمعيهم بأن « المزارعين والعاملين بالمناجم ودارسى الحنطة يفهمون نصوص الإنجيل وفى وسعهم أن يعلموها للناس خيراً من قرية بأسرها . . . من الرهبان والقساوسة . . . أو المتفقهين فى اللاهوت » ، وأرد كارلشتادت يقول : « بل وخيراً من لوثر »[٩] . وتنبأت التقاويم وطائفة المنجمين بقيام ثورة عام ١٥٢٤ وكأنها كانت بهذا تعطى إشارة البدء فى العمل . ومما يذكر أن يوهانس كوكلايوس وهو عالم إنسانيات كاثوليكى حذر لوثر عام ١٥٢٣ بأن « عامة الناس فى المدن والفلاحين فى الأقاليم سوف يقومون لا محالة بثورة . . . إذ سممت أفكارهم الكتيبات والخطب التى لا تحصى والحافلة بالسباب والتى نشرت أو أعلنت بينهم بفصاحة وإطناب ضد السلطة البابوية والسلطة الزمنية على السواء »[١٠] . ولكن لوثر والوعاظ ومؤلفى الكتيبات لم يكونوا السبب فى الثورة لأن الأسباب إنما تكمن بحق فى المظالم التى حاقت بطبقة الفلاحين ، وإن كان من الممكن أن يقال إن إنجيل لوثر وأتباعه المتطرفين قد « صبوا الزيت على

اللهب »[١١] وحولوا استياء المضطهدين إلى أوهام يوتوبية وإلى عنف لم يكن في الحسبان وإلى انتقام شديد .

وتشبث سلوك توماس منتسر بكل إثارة حفل بها العصر ، فما أن عُين واعظاً فى آلشتدت (١٥٢٢) حتى طالب بإبادة الكفار — أى الأرثوذكس أو المحافظين — بحد السيف وقال : « إن الكفار لا حق لهم فى العيش إلا بقدر ما تسمح لهم بهذا الصفوة »[١٢] . واقترح على الأمراء أن يقودوا الشعب فى ثورة شيوعية ضد رجال الدين والرأسماليين وعند ما لم يظهر الأمراء أنهم أهل لانتهاز هذه الفرصة استنفر الناس لقلب الأمراء أيضاً « ولكى يقيموا مجتمعاً مهذباً كالمجتمع الذى كان يفكر فيه أفلاطون . . . وأبيليوس مؤلف الحمار الذهبي»[١٣] وكتب يقول : « إن كل الأشياء على المشاع ويجب أن توزع حسب ما تقتضيه الحاجة وطبقاً للاحتياجات العديدة للجميع . وأى أمير أو كونت أو بارون يرغب عن قبول هذه الحقيقة بعد تذكيره بها فى حزم يجب أن تقطع رأسه أو يشنق »[١٤]. وتسامح الأمير المختار-فردريك فى هذا الإنجيل وعده من قبيل الهزل ، ولكن أخاه الدوق جون وابن عمه الدوق جورج انضما فى الرأى إلى لوثر بضرورة إقصاء منتسر عن وظيفته كراعى أبرشية (١٥٢٤) وأخذ الرسول الحانق يضرب فى الأرض وينتقل من مدينة إلى مدينة ويعلن خلاص « إسرائيل » وقرب ظهور مملكة الرب على الأرض[١٥] .

ووجد فى مدينة ميلهاوزن الحرة فى نورينجيا مناخاً سياسياً لطيفاً ، فهناك جمعت صناعة النسيج عدداً كبيراً من طبقة الكادحين ، وكان هينريخ بفيفر ، وهو راهب سابق ، قد بدأ هناك حركة لانتزاع المجلس البلدى من أيدى الأقلية من الأشراف . وبشر منتسر ببرنامجه المتطرف عمال المدينة وطبقة الفلاحين فى المناطق المجاورة ، وفى يوم ١٧ من مارس عام ١٥٢٥ خلع أتباع بفيفر ومنتسر المسلحون الأشراف وأقاموا « مجلساً دائماً » ليحكم ميلهاوزن .

وطبقاً لما يقوله ميلانكتون طرد المتطرفون المظفرون الرهبان وجردوا الكنيسة من أملاكها[١٦] ، ومهما يكن من أمر فلم يكن من المستطاع الوثوق بعالم من علماء اللاهوت فى هذا العصر ، ليقدم بلا تحيز تقريراً عن أعمال الخصوم ووجهات نظرهم ولم تنشأ جامعة أمم (كومونويلث) شيوعية ، وأثبت بفيفر أنه أقدر فى الناحية العملية من منتسر ، وطوع الثورة للوفاء بحاجات الطبقة المتوسطة . وتوقع منتسر مسبقاً مهاجمة الفرق الإمبراطورية ، فنظم جيشاً من العمال والفلاحين وأعد له طائفة من رجال المدفعية الثقيلة فى دير « الرهبان الحفاة » وكانت الصيحة التى أطلقها بين رجاله هى « إلى الأمام والحديد لا يزال ساخناً واجعلوا سيوفكم دائماً ساخنة بالدماء »[١٧] .

وفى نحو هذا الوقت نفسه كانت ثورات الفلاحين تزلزل جنوب ألمانيا ، ولعل عاصفة البرد الهوجاء (١٥٢٤) التى قضت على كل الآمال المعقودة بجنى محصول فى شتيلنجن كانت بمثابة الزناد الذى أشعل نار الثورة . ولم تكن هذه المقاطعة القريبة من شافهاوزن تبعد كثيراً عن سويسرة لكى يشعر أهلها مثل الفلاحين الأشداء الذين كانوا قد حرروا أنفسهم هناك من كل شىء إلا مظاهر السلطة الإقطاعية . وفى ٢٤ أغسطس عام ١٥٢٤ جمع هانز ميلر حوله بعض الفلاحين من شتيلنجن بناء على إيحاء من منتسر وكون لهم رابطة باسم « الأخوة الإنجيلية » وتعهد بتحرير المزارعين فى أرجاء ألمانيا ، وسرعان ما انضم إليهم المستأجرون الساخطون من راهب ريخيناو وأسقف كونستانس وكونتات فردينبورج ومونتفورت ولوبفين وسولتس . وما أن انتهى عام ١٥٢٤ حتى كان هناك حوالى ٣٠،٠٠٠ فلاح مدججين بالسلاح فى جنوب ألمانيا ، ورفضوا دفع الضرائب التى تفرضها الدولة وضرائب العشور الكنسية والضرائب الإقطاعية وأقسموا على الظفر بالحرية أو الموت .

وفى مارس ١٥٢٥ صاغ فى ميمينجن مندوبوهم ، بإرشاد البروتستانت من أتباع تسفينجلى أو بتأثيره ، البنود الاثنى عشر التى أشعلت النار فى نصف ألمانيا .

« إلى سلام القارئ المسيحى ورحمة الله من خلال المسيح » .

هناك الكثيرون من المناهضين للمسيحية انتهزوا أخيراً فرصة انعقاد مجلس للفلاحين لازدراء الإنجيل قائلين أليس هذا ثمرة الإنجيل الجديد ؟ وهل لا بد ألا يمتثل أحد وأن يتمرد الجميع . . . لقلب السادة الروحيين والزمنيين أو ربما لقتلهم ؟ إن كل النقاد الكافرين والأشرار يجدون الجواب على هذه الأسئلة فى البنود التالية لكى يزيلوا أولا هذا اللوم عن كلمة الله وثانياً ليبرروا بطريقة مسيحية عدم امتثال الفلاحين بل وثورتهم .

فأولا نعرب أن ملتمسنا وطلبنا المتواضع وأن إرادتنا ومشيئتنا جميعاً هى أن يتحقق لنا فى المستقبل قوة وسلطان يهيئان لجماعة بأسرها أن تختار راعياً وأن تعينه وأن يكون لها الحق فى عزله . . .

ثانياً : بما أن ضريبة العشور قد نص عليها العهد القديم ووردت فى العهد الجديد فإننا سوف . . . ندفع ضريبة العشر من الحبوب ولكن بطريقة صحيحة . . . وسوف يجمع هذه فى المستقبل ويتسلمها رئيس كنيستنا الذى تعينه الجماعة ومن هذه الضريبة يجب أن يمنح الراعى . . . مرتباً متواضعاً وكافياً لمعيشته هو وأسرته . . . وأن يوزع الباقى على الفقراء والمحتاجين الذين يعيشون فى القرية نفسها . . . أما ضريبة العشر الصغيرة فلن ندفعها على الإطلاق ، لأن الله قد خلق الماشية لكى ينتفع بها الناس دون قيـــد . . .

ثالثاً : لقد جرت العادة حتى الآن على أن يعتبرنا الناس متاعاً خاصاً لهم ، وهذا أمر يدعو للأسى ، لأن المسيح كفر عن سيئاتنا جميعاً وافتدى بدمه الزكى المراق الأدنياء والعظماء على السواء . . . ومن ثم فإنه مما يتفق وتعاليم الكتاب المقدس أن نكون أحراراً ولسوف نكون أحراراً (هكذا) . . . ونحن نخضع عن طواعية لحكامنا المختارين والمعينين (الذين عينهم لنا الله) فى جميع الأمور المسيحية الصحيحة ولا تخالجنا أية ريبة فى أنهم سوف يحررونا من نير العبودية أو يرينا فى الإنجيل أننا أرقاء . . .

سادساً : أن لنا شكوى مريرة بسبب الخدمات التى تتزايد من يوم إلى آخر . . .

ثامناً : لقد لحق بنا ضرر بليغ لأن الكثيرين منا مستأجرون أراضى لا تكفى غلتها لسداد قيمة ما ندفعه من إيجار لها ولأن الفلاحين يتعرضون للخسارة والخراب . فليدع السادة أناساً من الشرفاء يفحصون الأراضى المستأجرة المذكورة ويحددون الإيجار العادل . . . لأن كل عامل يستحق أجره . . .

عاشراً : لقد أصبنا بضرر بالغ لأن البعض انتزعوا لأنفسهم ملكية مراع من الحقول المشاعة والتى كانت يوماً ملكاً للجماعة . . .

حادى عشر : سوف نعمل على إلغاء الضرائب المفروضة على الوفاء إلغاءاً تاماً . ولن نتحملها ولن نسمح بنهب أموال الأرامل والأيتام على هذا النحو المخجل .

ثانى عشر : إذا تبين لنا أن ثمة خطأً فى بند أو أكثر من البنود الموضحة بفضل كلمة الله فإننا نتراجع عنها إذا أيدت لنا هذا أدلة من الكتاب المقدس[١٨] .

وتشجع زعماء الفلاحين بتصريحات لوثر نصف الثورية وبعثوا إليه بنسخة من البنود وطلبوا منه أن يناصرهم ، فرد عليهم بكتيب نشر فى إبريل عام ١٥٢٥ وعنوانه : « تنبيه إلى السلام » وأثنى على عرض الفلاحين بالخضوع لأى قصاص ينص عليه الكتاب المقدس وتعرض للاتهامات التى وجهت وقتذاك إلى خطبه ومقالاته بأنها قد أشعلت نار الثورة فأنكر مسئوليته عنها وأشار إلى أنه كان يحث الناس على الخضوع للسلطة الدينية ولكنه لم يسحب نقده للطبقة الحاكمة وقال :

« لا يوجد على ظهر البسيطة من نشكره على هذه الثورة الخبيثة إلا أنتم أيها الأمراء والسادة ، وبخاصة أنتم أيها الأساقفة العميان والقساوسة والرهبان

المجانين يا من قست قلوبكم على الإنجيل المقدس رغم أنكم تعلمون أن ما جاء به صحيح وأنكم لا تستطيعون أن تدحضوه . وفضـــلا عن هذا فإنكم فى حكومتكم الزمنية لم تفعلوا شيئاً إلا التنكيل برعاياكم وسلب أموالهم لكى تنعموا بعيشة رغدة ترضى كبرياءكم . لقد فاضت الكأس حتى لم يعد الفقراء من عامة الناس يتحملون أكثر من ذلك . وإذن ما دمتم السبب فى سخط الله فإن غضبه تعالى سوف يحيق بكم لا محالة إذا لم تصلحوا من وسائلكم فى الوقت المناسب .

إن الفلاحين يحشدون قواهم ولا بد أن يؤدى هذا إلى خراب ألمانيا ودمارها وتحطيمها بقتل الناس فى قسوة وسفك الدماء ما لم يقبل الله توبتنا ويجنبنا هذا المصير »[١٩] .

ونصح الأمراء والسادة الإقطاعيين بأن يعترفوا بعدالة كثير من البنود وحثهم على انتهاج سياسة تتسم بالرأفة ، ووجه إلى الفلاحين خطاباً صريحاً أقر فيه بما أصابهم من أضرار ، ولكنه توسل إليهم أن يحجموا عن استخدام العنف وعن الانتقام ، وتنبأ بقوله إن الالتجاء إلى العنف سوف يترك الفلاحين فى وضع أسوأ مما كانوا فيه من قبل . وتنبأ أيضاً بأن أى ثورة سوف تصم بالعار حركة الإصلاح الدينى وأنه سوف يلام على كل شىء . وعارض استيلاء كل أبرشية على ضرائب العشور وقال إنه يجب على الناس الخضوع للسلطات إذ أن لها الحق فى فرض ما تراه من ضرائب لمواجهة نفقات الحكومة وأن حرية الرجل المسيحى يجب أن تفهم على أنها حرية روحية لا تتعارض مع العبودية بل ولا الرق . وقال :

ألم يتخذ إبراهيم وأبناؤه الآخرون والأنبياء عبيداً ؟ اقرأ ما يعلمه لنا القديس بولس عن الخدم الذين كانوا جميعاً أرقاء فى ذلك العهد . . . ومن ثم فإن بندكم الثالث لا يسرى على الإنجيل فهذه المادة تساوى بين الناس جميعاً وهذا مستحيل ، ذلك لأن مملكة دنيوية لا تستطيع أن تقف على قدميها

ما لم تكن هناك درجات متفاوتة بين الأشخاص بحيث يكون البعض منهم أحراراً والبعض مسجونين والبعض سادة والآخرون رعايا[٢٠] .

ولو اتبعت نصيحته الأخيرة لجنبت ألمانيا كثيراً من سفك الدماء والدمار :

« تخيروا من الأشراف بعض الكونتات واللوردات ومن المدن بعض أعضاء المجلس وعالجوا هذه الأمور وأحسموها بطريقة ودية . وأنتم أيها السادة تخلوا عن عنادكم وأقلعوا قليلا عن طغيانكم واضطهادكم حتى يتنفس الفقراء من الناس ويجدوا متسعاً للعيش . وعلى الفلاحين بدورهم أن يعلموا أنفسهم وأن يتخلوا عن بعض المطالب التى تدق على فهمهم وترتفع عن مستوى إدراكهم[٢١] .

ومهما يكن من أمر فإن زعماء الفلاحين شعروا بأن الأوان قد فات للتراجع عما اعتزموه لأنهم سيتعرضون للعقاب عاجلا أو آجلا فى أية مصالحة . وأحزنهم هذا التحول من لوثر وعدوه خائناً واستمروا فى الثورة . وتشبث بعضهم حرفيا بحلم المساواة : كان على الأشراف أن يجردوا قلاعهم من السلاح ويعيشوا كما يعيش الفلاحون وأوساط الناس وكان عليهم أن يكفوا عن امتطاء صهوات الجياد لأن هذا يرفعهم فوق مصاف أتباعهم . وكان لا بد من إبلاغ القساوسة أنهم منذ ذلك الوقت خدم لرعايا أبرشياتهم لا سادة لهم وأنهم سوف يطردون إذا لم يتشبثوا بنصوص الكتاب المقدس فحسب[٢٢] . وانهالت المطالب بالبريد من العمال فى المدن ، ونددت باحتكار الأغنياء للوظائف فى المدينة ، وباختلاس الموظفين المنحرفين للأموال العامة وبارتفاع الأسعار الدائم فى الوقت الذى ظلت فيه الأجور ثابتة لا تتغير . وقال أحد المتطرفين لسوف يكون من الخير لخلاص الروح ألا يكون البطارقة على هذه الدرجة من الثراء وألا يعيشوا فى مثل هذه الرفاهية وأن تقسم أملاكهم على الفقراء » . واقترح فندل هيلر وفردريك فايجانت تصفية

كل أملاك الكنيسة للوفاء بالحاجات الدنيوية وأن تلغى كل الرسوم للنقل والرسوم الجمركية وألا يستخدم فى كل أنحاء أوروبا إلا نوع واحد من السكة ونظام واحد من الأوزان والمكاييل[٢٤] .

وكان يتزعم هذه الحركة زعماء مختلفو المشارب : كان هناك اثنان من أصحاب الحانات هما جورج ميتزلر وميترن فوربباخر ، وكان هناك جيكلاين روورباخ الخراط الطروب ، وبعض قدامى الجنود والقساوسة السابقين وفارسان من عصبة سيكنجن المهزومة — فلوريان جيير وجيتز فون برليخنجن « ذو اليد الحديدية » وشاء القدر أن يقع اختيار هاوبتمان وجيته فيما بعد على هذين الرجلين فجعلا منهما بطلين لمسرحيات شائقة . وكان كل زعيم مطلق السلطان بين جماعته ، وقلما كان يوفق بين عمله وعمل الآخرين ، ومع ذلك فان الثورة اشتعلت فى ربيع عام ١٥٢٥ فى اثنتى عشرة منطقة متفرقة فى نفس الوقت ، واستولت جماعة من العمال على السلطة الإدارية فى البلدية فى هايلبرون وروتنبرج وفيرتسبورج ، وأعلنت حكومة الكومون الظافرة فى فرانكفورت على الماين أنها سوف تمثل منذ ذاك سلطة المجلس البلدى والعمدة والبابا والإمبراطور مجتمعين . وفى روثنبورج طرد القساوسة من الكاتدرائية وحطمت التماثيل الدينية وهدمت بيعة وسويت بالأرض (٢٧ مارس سنة ١٥٢٥) وأفرغ الناس مخازن النبيذ التى يملكها رجال الدين وهم منتشون بخمر النصر[٢٥] . وتخلت المدن الخاضعة للسادة الإقطاعيين عن ولائها لهم ونادت المدن الخاضعة للأساقفة بإنهاء امتيازات رجال الدين ، وثارت غضباً مطالبة بتخصيص أملاك رجال الدين للأغراض الدنيوية ، وانضمت دوقية فرانكونيا بأسرها تقريباً إلى الثورة . وأقسم كثير من السادة والأساقفة ممن لم يستعدوا للمقاومة ، أنهم يقبلون الإصلاحات المطلوبة منهم ، وذلك من أمثال أساقفة سبير وبامبرج ورهبان دير كيمبتن ودير هرتسفيلد وأعتق الكونت ويليام الهنيبرجى أرقاءه واستدعى الكونت جورج والكونت ألبرخت

الهوهنلوهى للمثول أمام زعماء الفلاحين للانخراط فى سلك الهيئة الجديدة وقالوا : « تعال هنا أيها الأخ جورج والأخ ألبرخت وأقسما للفلاحين أن تكونا لهم كالإخوة لأنكما لم تعودا الآن سيدين بل أصبحتما فلاحين »[٢٦] . واستقبلت معظم المدن ثورات أهالى الريف بترحيب قلبى ، وأيد الثورة كثير من رجال الدين من الرتب الدنيا الذين كانوا يمقتون السلطة الكهنوتية ، ووقعت أول مواجهة خطيرة فى لايبهايم على نهر الدانوب قرب أولم (٤ أبريل سنة ١٥٢٥) إذ استولى على المدينة ٣٠٠٠ فلاح تحت لواء قسيس ناشط هو جاكوب فيهى واحتسوا كل ما عثروا عليه من نبيذ ونهبوا الكنيسة وحطموا الأرغن وصنعوا لأنفسهم طزالق من الثياب الكهنوتية وبايعوا فى سخرية واحداً من جمعهم أجاس على المذبح ، وارتدى مسوح قسيس[٢٧] . وقام بحصار لايبهايم جيش من الجنود المرتزقة استأجرته العصبة السوابية ويقوده جورج فون تروخسيس وهو قائد قدير ، وأفزع الفلاحين غير المدربين فاستسلموا وقطعت رؤوس فيهى وأربعة من الزعماء الآخرين ، أما الباقون فقد عفت العصبة عنهم ، وإن كانت فرقها قد أحرقت كثيراً من أكواخ الفلاحين .

وفى يوم الجمعة الحزينة ١٥ أبريل سنة ١٥٢٥ قام بحصار مدينة فايتسبرج (قرب هايلبرون) ثلاثة من جماعات الثوار تحت قيادة متسلر جيير وروورباخ ، وكان يحكم هذه المدينة الكونت لودفيج فون هلفشتاين الذى كان يمقته الناس بسبب قسوته وشدته . واقترب من الأسوار وفد من الفلاحين وطلب المفاوضة فقام الكونت وفرسانه بهجوم مفاجىء وذبحوا كل أعضاء الوفد . وفى يوم الأحد الموافق لعيد الفصح اقتحم المهاجمون الأسوار بمساعدة بعض أهالى المدينة ومزقوا أجساد الأربعين رجلا المدججين بالسلاح ، والذين اهتموا بالمقاومة وأسر الكونت وزوجته (وهى ابنة الإمبراطور الراحل ماكسمليان) وستة عشر فارساً ، وأصدر روورباخ ، دون مشاورة متسلر

أو جيير ، أمراً للسبعة عشر رجلا بالمرور بين صفين من الفلاحين المسلحين بالحراب لتأديبهم ، وعرض الكونت أن يقدم كل أمواله فدية لهم ولكن هذا العرض رفض كوسيلة مؤقتة ، وتوسلت إليه الكونتيسة فى تذلل شموم أن يبقى على حياة زوجها ولكن روورباخ أمر اثنين من رجاله بأن يسنداها حتى تشهد نشوة الانتقام . وبينما كان الكونت يسير إلى حتفه وسط وابل من الخناجر والرماح ذكره الفلاحون بما ارتكب من أعمال وحشية وصاح أحدهم : « لقد ألقيت بأخى فى غياهب السجن لأنه لم يرفع قبعته من على رأسه وأنت تمر به » . وصرخ آخرون : « لقد سخرتنا كالثيران فى نير العبودية . . . لقد قطعت يدى والدى لأنه قتل أرنباً فى حقلك . . . لقد داست خيولك وكلابك وصيادوك محاصيلى . . . لقد استنزفت منا آخر بنس لدينا » . وفى خلال نصف الساعة القادمة لتى الستة عشر فارساً حتفهم بالمثل . أما الكونتيسة فقد سمح لها بأن تنسحب إلى دير[٢٨] .

كانت عصابات الفلاحين تثير الشغب فى كل أرجاء ألمانيا تقريباً . ونهبت الأديرة أو أكرهت على دفع مبالغ كبيرة على سبيل الفدية . ويقول بعضهم فى خطاب أرسل يوم ١٧ أبريل عام ١٥٢٥ : « فى كل مكان يجاهر الثائرون . . . بنيتهم فى قتل كل رجال الدين الذين لا ينفصلون من ولائهم للكنيسة ويعلنون عن عزمهم على تدمير كل الأديرة وقصور الأساقفة واستئصال شأفة الدين الكاثوليكى تماماً من البلاد »[٢٩] . ولعل فى هذا شيئاً من المبالغة ولكن فى وسعنا أن نسجل أن الثوار استولوا على كثير من المدن وأكرهوا الأرشيدوق فرديناند على الموافقة على أن يكون الوعظ منذ ذلك الوقت طبقاً لنصوص الكتاب المقدس — وهو مطلب بروتستانتى خالص وذلك فى بافاريا والنمسا والتيرول حيث لقيت البروتستانتية اضطهاداً ظاهراً . وفى مايِنز فر كبير الأساقفة ألبرخت ولم يستطع مواجهة العاصفة ، إذ قام نائبه بإنقاذ كرسى الأسقفية وذلك بتوقيع المطالب الاثنى عشر ودفع غرامة قدرها ١٥,٠٠٠ جيلدر ، وفى الحادى عشر من شهر أبريل رفض أهالى مدينة

بامبرج الاعتراف بسلطة الأسقف الإقطاعية ونهبوا قصره وأحرقوه وجردوا بيوت المحافظين من رجال الدين مما فيها وانتشرت الثورة فى الألزاس انتشار النار فى الهشيم ، وما إن أشرف شهر أبريل على نهايته حتى أصبح كل كاثوليكى وكل مالك ثرى فى المقاطعة يخشى على حياته . وفى الثامن والعشرين من من شهر إبريل هاجم جيش عدته ٢٠,٠٠٠ من الفـــلاحين زابرن مقر أسقف ستراسبورج ونهبوا ديره وفى يوم ١٣ مايو استولوا على المدينة وأجبروا كل رجل رابع على الانضمام إليهم ورفضوا دفع كل ضرائب العشور وطالبوا بانتخاب جميع الموظفين فيما بعد عدا الإمبراطور عن طريق الاقتراع الشعبى وبأن يكونوا عرضة للعزل[٣٠] .

وفى بريكسين بالتيرول نظم ميكائيل جاسماير ، وهو سكرتير سابق للأسقفية ، ثورة هاجمت كل رجال الدين المحافظين ونهبت الدير المحلى (١٢ مايو) وظلت عاماً تهدد الأمن ، ولا يستطيع أحد قمعها . ويقول أحد المؤرخين فى هذا العهد ممن كانوا لايتعاطفون مع الثوار إنه فى جميع أودية نهرى اين واتش كانت هناك — جماهير غفيرة وصراخ وهرج شديدان وكان من الصعب على أى إنسان صالح أن يسير فى الطرقات وقال إن السلب والنهب أصبحا شائعين إلى الحد الذى كان فيه الأتقياء يشعرون بالإغراء للاشتراك فيهما»[٣١] . وفى فرايبورج — أم — برايسجاو نهب الفلاحون القلاع والأديرة وأكرهوا المدينة على الانضمام إلى « الأخوة الإنجيلية » ، (٢٤ مايو) وفى الشهر نفسه أقصت عصابة من الفلاحين أسقف فيرتسبورج عن قصره وأقاموا وليمة بما عثروا عليه فى مخازنه . وفى شهر يونيو أقصى ماتياس لانج كبير الأساقفة المعروف بحبه للقتال من قصره إلى قلعته التى تشرف على المدينة ، وفى نيوشتادت فى اليلاتينيت دعا الأمير المختار لودفيج زعماء الفلاحين للعشاء بعد أن أحاط به ٨٠٠٠ منهم واستجاب لمطالبهم دون امتعاض[٣٢] .

وفى هذا قال أحد المعاصرين : « ها نحن أولاء نرى أهالى القرى وسيدهم

يجلسون جنباً إلى جنب ويأكلون ويشربون معاً ويبدو أنه يكنّ لهم مشاعر الود وأنهم يبادلونه هذا الشعور .

وفى وسط هذا السيل من الأحداث أصدر لوثر من مطبعة فيتنبرج نحو منتصف مايو عام ١٥٢٥ كتيباً عنوانه : « معارضة لجموع الفلاحين التى تقوم بالسلب والقتل » . وأفزعت لهجته الحادة الأمير والفلاح والأسقف وعالم الإنسانيات على السواء فقد راع لوثر تزايد العصاة الساخطين وخشى وقوع انقلاب ضد كل سلطة شرعية وحكومة فى ألمانيا وآلمته الاتهامات التى تقول إن تعاليمه الخاصة قد أطلقت الفيضان من عقاله فتحول وقتذاك دون تحفظ إلى جانب السادة المعرضين للخطر وقال : « لم أجسر فى كتاب سابق على الحكم على الفلاحين لأنهم عرضوا أن يسلكوا الطريق المستقيم وأن يتعلموا . . . ولكن قبل أن أتطلع حولى تناسوا ما عرضوه وعمدوا إلى العنف وقاموا بالسلب والنهب وأسلموا قيادهم إلى الهياج وتصرفوا كالكلاب المسعورة . . . إن ما يقومون به من عمل الشيطان بل إنه بصفة خاصة من عمـــل إبليس (منتسر) الذى يحكم فى ميلهاوزن . . . يجب أن أبدأ بوضع خطاياهم أمام أعينهم . . . ثم يجب أن أعلم الحكام كيف يسوسون أنفسهم فى هذه الظروف . . .

إن أى إنسان يمكن إثبات شغبه يعد خارجاً على سنة الله وقانون الإمبراطورية ومن ثم فإن أول من يقتله يفعل خيراً ولا يرتكب إثماً . . . ذلك لأن الثورة تأتى معها بأرض مليئة بالقتل وسفك الدماء وترمل النساء وتيتم الأطفال وتقلب كل شىء رأساً على عقب . . . ولهذا دعوا أى إنسان يستطيع أن يقتل ويذبح ويطعن ، سراً وعلناً ، وضعوا نصب أعينكم أنه لا شىء أكثر فتكاً أو ضرراً أو خبثاً من الثورة . . إن هذا لا يختلف عن حالة المرء الذى يجد نفسه مضطراً إلى قتل كلب مسعور وإذا لم تضربه فإنه سوف يقضى عليك ومعك بلد بأسره . . .

ورفض التسليم بإجازة الكتاب المقدس المزعومة للشيوع وقال : « إن

الإنجيل لا يجعل الأمتعة على الشيوع إلا بالنسبة لمن يفعلون ، بإرادتهم الحرة ، ما كان الرسل والحواريون يفعلونه فى الإصحاح الرابع . إنهم لم يطلبوا مثل فلاحينا المجانين فى سورة غضبهم عند ما يطالبون بأن تكون أمتعة الآخرين سواء كانت لبيلاطس أم لهيرود — مشاعا لهم وأنهم لم يطلبوا تطبيق هذا إلا على أمتعتهم . ومهما يكن من أمر فإن فلاحينا سوف يحصلون على أمتعة الآخرين باعتبارها مشاعاً لهم ويحتفظون بأمتعتهم لأنفسهم ، فما أروع هؤلاء من مسيحيين ! أعتقد أنه لم يبق شيطان فى الجحيم وأن الشياطين جميعاً قد انطلقت إلى الفلاحين » .

أما الحكام الكثالكة فإنه عرض عليهم غفرانه إذا قضوا على العصاة دون محاكمة . وأوصى الحكام البروتستانت بالصلاة والندم والمفاوضة ولكن إذا ظل الفلاحون على عنادهم : « عندئذ سارعوا بامتشاق الحسام لأن أى أمير أو سيد يجب أن يتذكر فى هذه الحالة أنه كاهن لله وأنه أداة نقمته تعالى (الرومان ١٣) اللتى يمتشق من أجله الحسام لضرب رقاب هؤلاء الأتباع ... وإذا كان فى وسعه أن يعاقب ولا يفعل — حتى لو كان العقاب أن يستل الحياة ويسفك الدماء — فإنه يبوء بإثم كل جرائم القتل والشرور التى يرتكبها هؤلاء الأتباع . . . وعندئذ على الأتباع أن يستمروا بلا اكتراث ودون أن يعذبهم الضمير فى النضال كالأبطال ما دامت قلوبهم تحقق بين ضلوعهم . . . وإذا خطر لأحد أن هذا صعب جداً فليتذكر أن الثورة لا تحتمل وأن دمار العالم أمر متوقع فى كل ساعة »[٣٣] .

وكان من سوء حظ لوثر أن تصل هذه الرسالة الغاضبة إلى قرائها فى الوقت الذى بدأت فيه الطبقات المالكة فى إخضاع الثورة . وتلقى المصلح ثناء لا يستحقه على الإرهاب بالقمع ومن غير المحتمل أن يكون السادة المعرضون للخطر قد تأثروا بالكتيب إذ كانوا بطبعهم يميلون إلى معاملة العصاة بقسوة تكون رادعاً لهم ولا تمحى ذكراها من أذهانهم وقد أخذوا

بعض الوقت يعللون الفلاحين البسطاء بالوعود والأماني وبهذا أغروا الكثير من العصابات بالتفرق وفي غضون ذلك نظم السادة جيوشهم وسلحوها .

وفي ذروة الفتنة مات فردريك الأمير المختار (٥ مايو عام عام ١٥٢٥) وكان رجلا هادئاً يؤثر السلام ويسلم بأنه هو وباقي الأمراء قد ظلموا الفلاحين ورفض أن ينضم إليهم في اتخاذ اجراءات الانتقام وترك لخلفه الدوق جون نصائح ملحة بالتزام الاعتدال ، بيد أن الأمير المختار الجديد شعر بأن سياسة أخيه كانت تعتمد على اللين وهو أمر يجافي الحكمة فانضم بقواته إلى قوات هنرى دوق برونزفيك وفيليب لاندجريف الهسى وزحفوا جميعاً لمهاجمة معسكر منتسر خارج ميلهاوزن . وكانت جيوش الخصوم لا تفوقهم إلا عدداً .كان كل منها يتكون من ٨٠٠٠ رجل من الأشداء ، بيد أن معظم الرجال في قوات الدوقات كانوا من الجنود المدربين ، بينما كان الفلاحون ، على الرغم من مدفعية منتسر البسيطة ، يتسلحون بأسلحة ليست جيدة أو رديئة ويفتقرون إلى النظام ويتفشى بينهم الاضطراب بسبب ما يساورهم من رهبة بالسليقة . واعتمد منتسر على فصاحته ليقوى من عزائم الفلاحين وأمهم في الصلاة وفي ترتيل الأناشيد وأطلقت مدفعية الأمير أول ستار من نيرانها فصرعت مئات من الثوار وفر الباقون مذعورين إلى مدينة فرانكنهاوزن (١٥ مايو سنة ١٥٢٥) وطاردهم المنتصرون وقتلوا منهم ٥٠٠٠ وحكم على ثلاثمائة أسير منهم بالإعدام فتشفع لهم نساؤهم والتمسوا العفو عنهم رحمة بهن ، فأجبن إلى طلبهن على شريطة أن تحطم النساء رأسي قسيسين كانا قد حرضا على الثورة وتم تنفيذ هذا بينما كان الدوقات المنتصرون يرقبون هذا المشهد[٣٤] . واختفى منتسر ثم قبض عليه وعذب حتى أقر بخطأ وسائله ثم قطع رأسه أمام القادة والأمراء ودافع بفيفر ومعه ١٢٠٠ جندى عن مدينة ميلهاوزن ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وأعدم بفيفر وباقي القواد أما المواطنون فقد نالوا العفو على أن يدفعوا فدية إجمالية قدرها ٤٠,٠٠٠ جيلدر (١,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) .

وفى غضون ذلك استولى تروخسيس على مدينة بيبلنجن (Böblingen) بطريق المفاوضة وحول مدافعه من داخل أسوار المدينة وأطلقها على معسكر للثوار خارجها (١٢ مايو) ، وأجهز فرسانه على الفلاحين الذين نجوا من نيران هذه المدفعية وقضى هذا على الثورة فى فيرتمبرج . ثم تحول تروخسيس إلى فاينزبرج وأحرقها حتى سويت بالأرض وشوى فى بطء بجسد جيكلاين روورباخ الذى تزعم « مذبحة فاينزبرج » . ثم زحف تروخسيس ليهزم قوات الفلاحين فى كينجزهوفن وانجولشتادت هزيمة منكرة ، واستولى على فيرتسبورج وأطاح برءوس واحد وثمانين من الثوار اختارهم ليكونوا عبرة للآخرين (٥ يونية) . وفر فلوريان جيير من فيرتسبورج ليعيش فى غياهب النسيان وظل أسطورة يرددها الناس فى إعزاز واستسلم جيتزفون برليخنجن فى الوقت الملائم وعاش ليحارب مع شارل الخامس ضد الأتراك ومات على فراشه وفى قلعته بالغاً من العمر اثنين وثمانين عاماً (١٥٢٦) وسقطت مدينة روثنبرج فى ٢٠ يونيه وسرعان ما تلتها مدينة ميمنجن وسحقت الثورة فى الألزاس بعد مصرع ٢٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ رجل فى ليبشتاين وتسابرن (Zabern) (١٧ — ١٨ مايو) وما أن حل يوم ٢٧ مايو حتى كان قد قتل نحو ٢٠,٠٠٠ فلاح فى الألزاس وحدها وفى كثير من الحالات كان هواء المدن تشيع فيه رائحة الموت[٣٥] وأمر ماركجراف كاسيمير Markograf Casimir بقطع رؤوس بعض من استسلم من فلاحيه وشنق البعض الآخر . وفى الحالات المخففة قطع أيديهم أو سمل عيونهم[٣٦] ، وتدخل الأمراء العقلاء فى آخر الأمر فى تخفيف همجية الانتقام ، وفى نهاية شهر أغسطس أصدر المجلس النيابى فى أوجسبورج أمراً كتابياً حث فيه على الاعتدال فى توقيع العقوبات وفرض الغرامات وتساءل شريف فيلسوف قائلا : « أين نجد فلاحين يقومون بالوفاء لأغراضنا إذا قتل كل الثوار ؟[٣٧] » .

واستمرت الثورة عاماً فى النمسا وفى يناير عام ١٥٢٦ أعلن ميكائيل جاسمايير فى أنحاء التيرول أعظم البرامج الثورية تطرفاً وقال : « يجب القضاء

على كل الكفار (أى غير البرتستانت) الذين يضطهدون «كلمة الله» الحقة أو يظلمون الرجل العادى . ويجب أن تزال الصور والمزارات من الكنائس وألا تتلى القداسات ويجب أن تهدم أسوار المدن والأبراج والحصون وألا تبقى إلا القرى وأن يتمتع جميع الناس بالمساواة . ويجب اختيار الموظفين والقضاة بالاقتراع العام الذى يشترك فيه الذكور البالغون كما يجب إيقاف دفع الإيجارات والمكوس للسادة الإقطاعيين فوراً وأن تجمع ضرائب العشور على أن تعطى لسلطات الكنيسة التى خضعت الإصلاح الدينى وللفقراء . ويجب أن تحول الأديرة إلى مستشفيات أو مدارس ، أما المناجم فيجب أن تؤمم وعلى الحكومة أن تحدد الأسعار(٣٨) . وقدر لجاسمايير أن يهزم التى أرسلت لقتاله باستراتيجية ذكية ، واستمر هذا الحال بعض الوقت غير الفرق أن أعداءه تفوقوا عليه أخيراً فى الدهاء وفر إلى إيطاليا وأفرد الأرشيدوق فرديناند ثمناً لرأسه وفاز بالمبلغ اثنان من القتلة الإسبانيين عند ما اغتالاه فى غرفته ببادوا (١٥٢٨) .

ولم تفقد ألمانيا من الأرواح والأملاك ما فقدته فى ثورة الفلاحين إلا فى حرب الثلاثين عاماً . فقد هلك من الفلاحين وحدهم نحو ١٣٠٠٠٠ فى ساحة القتال أو على نطع التكفير ، وتم تنفيذ حكم الإعدام فى ١٠,٠٠٠ رجل تحت حكم العصبة السوابية . وامتلأت أعطاف جلاد ترونخسيسس زهوا لأنه قتل بيديه المدربتين ١٢٠٠ رجل محكوم عليه بالإعدام . أما الفلاحون أنفسهم فقد دمروا مئات القلاع والأديرة وأقفرت مئات القرى والمدن من ساكنيها أو أصبحت خراباً بلقعاً أو فرضت عليها تعويضات باهظة ، وتشرد ما يزيد على ٥٠,٠٠٠ فلاح وأخذوا يهيمون فى الطرقات العامة أو يختبئون فى الغابات ، وترملت آلاف النساء وتيتم الآلاف من الأطفال ولكن قلوب المحسنين لم ترق لهم ، أو لعل جيوبهم كانت خاوية وكان المتمردون قد أحرقوا فى كثير من الحالات المواثيق التى تسجل الضرائب المستحقة عليهم

للسادة الإقطاعيين فحررت وثائق جديدة أحيت من جديد هذه الالتزامات وكانت فى بعض الحالات أكثر رفقاً بهم وفى أحيان أخرى أكثر تشدداً عما كانت عليه من قبل ومنحت امتيازات للفلاحين فى النمسا وبادن وهس أما فى المناطق الأخرى فقد اشتد أزر العبودية وقدر لها أن تستمر شرق الألب حتى القرن التاسع عشر . وأجهضت بوادر الديمقراطية وقمعت الحركات الفكرية واشتدت الرقابة على النشر فى عهد السلطات الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء . وفقدت النزعة الإنسانية قوتها وأخلت لهجة عصر النهضة فى الحياة والأدب والحب السبيل إلى اللاهوت والورع والتأمل فى الموت .

واندثر الإصلاح الدينى نفسه أو كاد يندثر فى حرب الفلاحين . وعلى الرغم من المتنصلين من لوثر والتشهير به فإن الثورة تألقت بألوان وأفكار بروتستانتية : وكانت التطلعات الاقتصادية تغلف بعبارات أضفى عليها لوثر مسحة من القداسة ولم تكن الشيوعية إلا مجرد عودة إلى الإنجيل . وفسر شارل الخامس « الثورة » بأنها « حركة لوثرية »[٣٩] واعتبر المحافظون نزع البروتستانت ملكية رجال الدين بمثابة أعمال ثورية تقف على قدم المساواة مع نهب الفلاحين للأديرة . وفى الجنوب جدد الأمراء والسادة الذين استبد بهم الفزع ولاءهم للكنيسة الرومانية . وفى أماكن عديدة مثل بامبرج وفيرتسبورج أعدم رجال حتى من طبقة الملاك لأنهم اعتنقوا اللوثرية[٤٠] . وقلب الفلاحون أنفسهم ظهر المجن للإصلاح الدينى وعدوه غواية وخيانة ، وأطلق بعضهم على لوثر اسم « الدكتور ليجنر » أى « الدكتور الكذاب » و « المنافق صنيعة الأمراء »[٤١] . وظل سنوات بعد الثورة لا يحظى بأى شعبية حتى أنه قلما كان يجرؤ على مغادرة فيتنبرج ولو كان هذا لكى يحضر وفاة والده على فراشه (١٥٣٠) . وكتب يقول (١٥ يونيه عام ١٥٢٥) « لقد نسوا كل ما فعله الله للناس عن طريقى والآن هاهم السادة والقساوسة والفلاحون يتجمعون كلهم ضدى ويتوعدوننى بالموت »[٤٢] .

ولم يكن من شيمته أن يسلم أو يعتذر . وفى يوم ٣٠ مايو عام ١٥٢٥ كتب إلى نيكولاس أمسد ورف يقول : « فى رأيى أنه من الخير أن يقتل الفلاحون جميعاً ولا يهلك الأمراء والحكام لأن أهل الريف امتشقوا السيف دون أن يعتصموا بسلطان إلهى »(٤٣) . وفى يولية عام ١٥٢٥ نشر « خطاباً مفتوحاً بشأن الكتاب الصعب ضد الفلاحين » . وقال إن من ينتقدونه لا يستحقون الرد عليهم فقد كشفت انتقاداتهم أنهم ثائرون فى قرارة نفوسهم مثل الفلاحين وأنهم لا يستحقون الرحمة ، وقال : « ينبغى أن يأخذ الحكام بتلابيب هؤلاء الناس ويجبرونهم على إمساك ألسنتهم »(٤٤) .

« إذا دار بخلدهم أن هذا الرد صعب جداً وأن هذا تحريف للكلام ولا يقصد به إلا تكميم أفواه الناس فإنى أجيب بأن هذا صحيح ، إن أى ثائر لا يستحق عناء الرد عليه لأنه لن يتقبل الجدل . والرد على مثل هذا الفم هو لكمة تدمى الأنف ، إن الفلاحين لن يصيخوا السمع ، فى آذانهم وقر ويجب أن تفتح بطلقات الرصاص حتى تقفز رؤوسهم من فوق أكتافهم . إن مثل هؤلاء التلاميذ فى حاجة إلى تأديب بمثل هذه العصا . إن من لا يستمع إلى كلمة الله عند ما ترتل برفق يجب أن يستمع إلى الجلاد عند ما يأتى ومعه الفأس . . . أما عن الرحمة فأنا لن أسمع أو أعرف شيئاً ولكنى سوف أهتم بإرادة الله التى تتضمنها كلمته . . . إذا شاء جل وعلا أن يصب عليك جام نقمته وأن يحجب عنك رحمته ، فيم تفيدك الرحمة ؟ ألم يأثم شاؤل بإبداء الرحمة لعماليق عند ما فشل فى تنفيذ غضب الله كما أمر ؟ وأنتم يا من ترفعون عقيرتكم مطالبين بالرحمة وتمتدحونها مدحاً شديداً لماذا لم تنادوا بها عنــدما كان الفلاحون ساخطين ، يقتلون ويسرقون ويحرقون وينهبون حتى أصبح الناس يفزعون لمرآهم أو عند سماع أخبارهم ؟ لماذا لم يبدوا الرحمة للأمراء والسادة الذين أرادوا أن يقضوا عليهم قضاء مبرماً ؟ »

واستطرد لوثر يقول إن الرحمة واجبة على المسيحيين فى شئونهم الخاصة ،

أما باعتبارهم من موظفى الدولة فيجب أن يراعوا العدالة أكثر من الرحمة لأن الإنسان ، منذ عصى آدم وحواء ربهما ، فطر على الشر إلى حد أنه غدا فى حاجة إلى حكومة وقوانين وعقوبات لكبح جماحه . إننا ندين بالاحترام للجماعة التى تهددها الجريمة أكثر مما ندين للمجرمين الذين يهددون الجماعة .

« لو تحققت نيات الفلاحين فلن يكون هناك رجل شريف فى مأمن منهم ولكن على كل من يملك فلساً أكثر من أى إنسان آخر أن يقاسى بسبب هذا . لقد بدأوا هذا الأمر وما كانوا ليتوقفوا هناك ، لسوف يجللن العار النساء والأطفال ولسوف يتعودون أيضاً على قتل أحدهم الآخر ، ولن يكون هناك سلام أو أمان فى أى مكان . هل سمع أحد عن شىء لا يمكن كبح جماحه أكثر من غوغاء من الفلاحين عندما تمتلىء بطونهم ويملكون زمام السلطة ؟ . . . إن الحمار يتلقى الضربات أما الناس فيحكمون بالقوة»(٤٥) .

وقد تصدمنا اليوم عبارات لوثر المتطرفة حول حرب الفلاحين لأن النظام الاجتماعى توطد بحيث نفترض استمراره ونستطيع أن نعامل برفق هؤلاء القلائل الذين يعكرون صفوه بعنف ، ولكن لوثر واجه الحقيقة القاسية وهى أن عصابات الفلاحين تحول شكاواها العادلة إلى نهب لا يفرق بين العدو والصديق وتهدد بخرق القانون وقلب الحكومة والإنتاج والتوزيع فى ألمانيا . وبررت الحوادث تحذيره بأن الثورة الدينية التى خاطر من أجلها بحياته سوف تتعرض للخطر الشديد بسبب الرجعية المحافظة التى كانت مضطرة إلى أن تتبع ثورة فاشلة . وربما شعر بأنه مدين شخصياً بعض الشىء للأمراء والأشراف الذين كانوا قد أسبغوا عليه الحماية فى كيتنبرج وورمس والفارتبورج ، ولعله كان يتساءل من ينقذه من شارل الخامس وكليمنت السابع إذا كفت سلطة الأمراء عن حماية الإصلاح الدينى ، والحرية الوحيدة التى رأى أنها تستحق الكفاح من أجلها هى حرية عبادة الله والتماس الخلاص طبقاً لما يمليه ضمير المرء .

وأية أهمية فى أن يكون المرء أميراً أو عبداً فى هذا الموجز للحياة الأبدية ؟ إننا يجب أن نتقبل حالتنا هنا دون تذمر مرتبطين بالجسد والواجب ولكن متحررين روحياً وبرحمة الله .

ومع ذلك فقد كان للفلاحين قضية ضده إذ أنه لم يتنبأ بالثورة الاجتماعية فحسب بل قال إنها لن تسوءه وإنه سوف يحييها بابتسامة حتى لو غسل الناس أيديهم فى دماء الأساقفة ، ثم إنه كان قد قام بثورة أيضاً وعرض النظام الاجتماعى للخطر بل وسخر من سلطة لا تقل قداسة عن سلطة الدولة . ولم يقم بأى اعتراض على نزع السلطة الزمنية لملكية رجال الدين فكيف كان فى وسع الفلاحين أن يكون لهم حظ أفضل إذا لم يلجأوا إلى القوة ما دام حق التصويت كان محرماً عليهم وما دام مضطهدوهم كانوا يلجأون إلى القوة . لقد أحس الفلاحون أن الدين الجديد قد أضفى صفة القداسة على قضيتهم ، وأثار فيهم الأمل ودفعهم إلى العمل ثم تخلى عنهم فى الساعة الحاسمة . وفى يأس غاضب أصبح بعضهم ملحداً ساخراً[٤٦] وعاد كثير منهم أو من أطفالهم برعاية اليسوعيين إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . واتبع بعضهم المتطرفين الذين أدانهم لوثر وسمعوا وهم يتلون العهد الجديد دعوة إلى الشيوعية .

٣ — اللامعمدانيون يجربون الشيوعية

(١٥٣٤ — ١٥٣٦)

لا نستطيع أن ندرك مدى الحماسة التى صاحبت الأقليات المتدينة الثائرة ، فى تحزبها لانقلاب واحد أو آخر من انقلابات الثورة الدينية فى القرن السادس عشر ، ولو أدى بها إلى الموت على الخازوق ، إلا إذا لاحظنا مدى الحماسة المتأججة التى يعتنق به معاصرونا الهرطقات الاقتصادية .

وقد اتخذت أشد الطوائف الجديدة تطرفاً اسم اللامعمدانيين (المعمدانين من جديد) ، وذلك من إصرارها على أن التعميد ، إذا تلقاه المرء فى

طفولته ، يجب أن تعاد مراسيمه عند البلوغ ، بل إن من الخير أن يؤجل ، كما فعل يوحنا المعمدان ، إلى أن يتمكن المتلقى الراشد من اعتناق العقيدة المسيحية بعلمه واختياره .

وكانت هناك طوائف انشعبت إليها هذه الطائفة . أما الذين اتبعوا هانز دنك ولودفيج هيتزر فقد أنكروا ألوهية المسيح : فهو فى نظرهم ليس إلا أشد الناس ورعاً وقد كفر عن خطايانا لا بعذابه فوق الصليب ، ولكن لأنه كان قدوة لنا فى حياته(٤٧) ورفع دنك من قدر ضمير الفرد ، وجعله فوق الكنيسة والدولة ، بل والكتاب المقـــدس ذاته . واتبع معظم اللامعمدانيين منهجاً تطهرياً ، يتسم بتزمت فى الأخلاق ، وبساطة فى السلوك والزى . ولقد شجعهم رأى لوثر المتهور القائل بحرية المسيحيين ، فأدانوا كل حكم يقوم على العنف ، واستنكروا كل مقاومة للحكومة بالعنف ، ورفضوا قبول الخدمة العسكرية ، على أساس أن المرء يرتكب إثماً لا شك فيه ، إذا قضى على حياة إنسان . وأبوا أن يحلفوا اليمين مثل المسيحيين الأوائل ، ولم يستثنوا من هذا القسم يمين الولاء للأمير أو الإمبراطور . وكانت تحيتهم العادية « سلام الله عليك » وهى ترديد للتحية عند اليهود والمسلمين ، وتعد التحية الرائدة للصيغة التى اتخذتها طائفة الكويكر . وفى الوقت الذى اتفق فيه لوثر وزونجلى وكالفن ونوكس مع البابوات على عبث التسامح الدينى ، أخذ اللامعمدانيون يبشرون به بل ويمارسونه ، وكتب أحدهم وهو بالتازار هيبماير أول دفاع عنه عام ١٥٢٤(٤٨) . وأعرضوا عن الالتجاء إلى رجال الإدارة ورفع الدعاوى . . . كانوا فوضويين تولستويين قبل ظهور تولستوى بثلاثة قرون ، وبعد ظهور بيتر شيلتسكى بقرن كامل ، ولعلهم قبسوا منه عقيدتهم . وورث بعض اللامعمدانيين ، عن وعى أو غير وعى ، عقيدة التابوريين البوهيميين أو الإخوان المورافيين ، ونادوا بشيوعية الأمتعة(٤٩) . وإذا صدقنا ما قاله المؤرخون من الخصوم فإن قلة منهم اقترحت شيوعية

الزوجات[٥٠] . ومهما يكن من أمر فإن الطائفة رفضت بصفة عامة أية مشاركة إجبارية فى الأمتعة ، ودافعت عن مبدأ العون الاختيارى المتبادل ، وتمسكت بأن الشيوعية سوف تكون آلية وشاملة فى ملكوت السماء[٥١] .

ولقد استلهمت كل جماعات اللامعمدانيين سفر الرؤيا ، وتوقع عودة المسيح المبكرة بصفة يقينية إلى الأرض . وأكد كثير من المؤمنين أنهم يعرفون موعد مجيئه ، وحددوا الساعة واليوم . ومن هنا كان لا بد من القضاء على كل الكفار — وهم هنا كل الناس ما عدا اللامعمدانيين — بحد سيف الرب ، ولا بد أن يعيش الصفوة يحفهم المجد فى فردوس أرضى بلا قوانين ولا زواج ، وينعمون بفيض زاخر من أطايب كل شىء[٥٢] . وعلى هذا فإن الناس الذين يحدوهم هذا الأمل ساحوا أنفسهم ضد الكدح ووحدانية الزوجة .

وظهر اللامعمدانيون لأول مرة فى سويسرا . ولعل مسيحية تدعو إلى السلام قد تسربت من ثورة الولدان فى جنوب فرنسا والبيغارد فى الأراضى المنخفضة ، وتبنى قليل من المثقفين هنا وهناك كما فى بازل فكرة إقامة مجتمع شيوعى . ولعل بعض الفقرات الشيوعية فى « المدينة الفاضلة » ، كما صورها مور ، قد حفزت العلماء الذين تجمعوا حول أرازموس هناك ، وأصبح ثلاثة من أعضاء تلك الحلقـــة زعماء لا معمدانيين وهم : كونراد جريبل وفيلكس مانز الزيوريخى وبالتازار هيباير والد شوتى فى حدود النمسا المواجهة . وفى ١٥٢٤ زار ميزر والد شوت وجاء كارلشتادت إلى زيورخ ، وتكونت طائفة من اللامعمدانيين فى زيورخ باسم « الروحانيين » أو « الإخوان » ، وأخذت تبشر بالتعميد عند البلوغ وبمجىء المسيح ، ورفضت الاعتراف بالكنيسة والدولة ، واقترحت وضع نهاية لتقاضى الفائدة والضرائب وإلغاء الخدمة العسكرية وضرائب العشور وتحريم حلف اليمين .

ولقـــد كان أولريخ زونجلى فى ذلك الوقت يكسب إلى صفه مجلس زيورخ الكبير ، ويستميله لآرائه البروتستانتية ، التى تضمنت إشراف السلطات الزمنية على الدين ، وناشد « الإخوان » أن يخففوا من كراهيتهم للدولة وأن يقبلوا التعميد فى الطفولة ، ولكنهم أبوا . واستدعاهم المجلس إلى مناظرة عامة (١٧ يناير سنة ١٥٢٥) ، وعند ما فشل فى تحويلهم عن آرائهم ، أمر بأن يغادر المدينة آباء الأطفال الذين لم يعمدوا . وندد اللامعمدانيون بالمجلس ، وأطلقوا على زونجـــلى لقب التنين العجوز ، وتظاهروا فى الطرقات وهم يصيحون « الويل لزيورخ ! »[٥٣] . واعتقل زعماؤهم ونفوا عن المدينة ، وأتاح لهم هذا نشر عقائدهم ، وتولى سانت ـــ جول وابنتسيل الحركة ، وأثارت هذه برن وبازيل وكسب هيبماير إلى صفه والدشوت بأسرها ، وجلس فى ابنتسيل ١٢٠٠ رجل وامرأة ممن ارتضوا حرفياً كلمات المسيح : « لا تحمل هما لطعامك » وأخذوا ينتظرون أن يأتى الله ويطعمهم[٥٤] .

وليس من شك فى أن النجاح الظاهر الذى أحرزته حرب الفلاحين فى ربيع عام ١٥٢٥ قد رفع من شأن هذه التحولات ، ولكن فشلها شجع طبقات الملاك فى المدن السويسرية على اتخاذ إجراءات قمع مشددة ، واعتـــقل مجلس زيورخ مانز (يوليو) ، ثم جريبل ، ثم هيبماير ، وأمر بزج كل اللامعمدانيين المتشبثين بآرائهم فى سجن البرج ، ليعيشوا على الخبز القفار والماء وأن « يتركوا حتى يموتوا وتبلى أجسادهم »[٥٥] . وحدث هذا لجريبل وأغرق مانز ، أما هيبماير فقد عدل عن رأيه وأطلق سراحه ؛ وأنكر ردته وأخذ على عاتقه أن يهدى أهل أوجسبورج ومورافيا ، وقطع رأس هيتزر فى كونستانس بتهمة اللامعمدانية والزنى — وأظهرت المقاطعات التى تدين بالبروتستانتية والكاثوليكية أنها لم تكن أقل نشاطاً فى قمع هذه الطائفة ، وما أن حل عام ١٥٣٠ حتى لم يبق فى سويسرة إلا عصابات سرية لا يؤبه لها ،

وفى غضون ذلك كانت الحركة قد انتشرت ، كما تنتشر أى إشاعة ، فى أنحاء جنوب ألمانيا ، وتملكت المرتدين حماسة فياضة للقيام بدعاية للمذهب الإنجيلى ، وحولهم ذلك إلى رسل متحمسين للعقيدة الجديدة . وأحرز دنك وهيماير فى أوجسبورج نجاحاً سريعاً بين عمال النسيج والطبقة الوسطى الدنيا ، وما أن قارن كثير من عمال المناجم فى التيرول ما هم فيه من مسغبة ، وما ينعم به من ثراء آل فوجر وآل هوخشتتر ، الذين كانوا يملكون المناجم ، حتى اعتنقوا اللامعمدانية عند ما انهارت ثورة الفلاحين ، أما فى ستراسبورج فإن الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت أتاح للطائفة أن تتضاعف دون أن يلحظ ذلك أحد لبعض الوقت . إلا أن كتيباً صدر عام ١٥٢٨ حذر السلطات من أن « من يعلم الناس أن كل الأشياء يجب أن تكون على المشاع لا يخطر بباله إلا إثارة الفقراء ضد الأغنياء ، والرعايا ضد الحكام الذين عينهم الله »[٥٦] . وفى هذا العام أصدر شارل الخامس مرسوماً ينص على أن إعادة التعميد تعد جريمة عظمى . وصدق مجلس سبير **Speyer** النيابى (١٥٢٩) على مرسوم الإمبراطور وأمر بإعدام اللامعمدانيين أينما وجدوا وحالما يقبض عليهم كما يقضى على الوحوش المفترسة ، وذلك دون أية محاكمة . وكتب مؤرخ لامعمدانى تحقيقاً عن النتيجة ، ولعله كان مغالياً ، بأسلوب كتاب سير القديسين المسيحيين الأوائل :

عذب البعض على المخلعة ، وشدت أطرافهم حتى انتزعت ، وأحرق البعض الآخر حتى غدت أجسادهم رماداً وهباء منثوراً ، وشوى لحم البعض فوق أعمدة أو مزقوا إرباً بكماشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار . . . وشنق آخرون فوق الأشجار ، أو قطعت رءوسهم بالسيف أو ألقى بهم فى لجة الماء . . . ومات بعضهم جوعاً أو هلكوا فى غياهب السجون المظلمة . . . واعتبر البعض منهم أصغر سناً من أن ينفذ فيهم حكم الإعدام فضربوا بالعصى ، وظل الكثيرون منهم سنوات فى غياهب السجون . . . وختمت على خدودهم أرقام تركت فيها أخاديد . . . أما الباقون فقد طوردوا

كالبوم والغربان ، التى لا تجرؤ على الطيران بالنهار واضطروا فى أغلب الأوقات إلى الاختفاء والعيش بين الصخور والشقوق أو فى الغابات أو فى الكهوف والحفر[٥٧] . . .

ويقول سباستيان فرانك أحد المعاصرين أنه ما أن حل عام ١٥٣٠ حتى كان ٢٠٠٠ لامعمدانى قد نفذ فيهم حكم الإعدام ، وفى انزيشايم ، إحدى مدن الألزاس أعدم ٦٠٠ ، وفى سالزبورج سمح لمن تاب منهم بأن يقطع رأسه قبل وضعه على المحرقة ، أما الذين لم يتوبوا فقد شـ ـــادهم على نار بطيئة حتى لاقوا حتفهم (١٥٢٨)[٥٨] . وألف اللامعمدانيون أناشيد مؤثرة للإشادة بذكر هذه الحوادث ، التى استشهد فيها الآلاف وأصبح معظم مؤلفى هذه الأناشيد شهداء بدورهم .

وعلى الرغم من هذه المذابح فإن الطائفة ازدادت عدداً ، وانتقلت إلى شمالى ألمانيا . ورحب بعض الأشراف فى بروسـيا وفيرتمبورج باللامعمدانيين باعتبارهم فلاحين مسالمين مجتهدين . ويقول أحد المؤرخين الأوائل من أنصار لوثر إن وادى الفيرا فى ساكسونيا كان يزخر بهم ، وأنهم زعموا فى أرفورت أنهم أوفدوا ٣٠٠ مبعوث لهداية الناس المشرفين على الهلاك . وفى ليبيك سيطر جيرجن فولنفيفر المتهم باللامعمدانية على المدينة (١٥٣٣ — ٣٤) ، وفى مورافيا أحرز هيبار تقدماً لعقيدته المعتدلة التى فسرت الشيوعية بأنها ليست الملكية على المشاع ، بل الاستمساك بأن « على المرء أن يطعم الجائع ويروى ظمأ العطشان ويكسو العارى لأننا فى الحقيقة لسنا مطلقى التصرف فى ممتلكاتنا ولكننا وكلاء أو موزعون لها فحسب » . وكسب هانز هوت[٥٩] ، الذى ألهبته تعاليم منتسر ، قلوب اللامعمدانيين فى مورافيا من هيبار بتبشيرهم بشيوعية كاملة فى الأمتعة . واعاد هيبار إلى فيينا ، حيث أحرق على السارية وألقى بزوجته وهى مقيدة الأطراف فى نهر الدانوب (١٥٣٨) .

وأسس هوت وأتباعه مركزاً شيوعياً فى أوستراليتز ، حيث رفضوا

قبول كل خدمة عسكرية ، وكأنهم كانوا يتنبأون بمجيء نابليون، ونددوا بكل صورة من صور الحرب ، واقتصر هؤلاء اللامعمدانيون فى أعمالهم على فلاحة الأرض والأعمال الصغيرة ، وحافظوا على شيوعيتهم زهاء قرن تقريباً . وأسبغ الأشراف من ملاك الأراضى حمايتهم عليهم ، لأنهم كانوا يثرون الضياع بكدحهم الواعى . وكانوا يقومون بالمشاركة فى الزراعة ، ويشترى لهم موظفو الكومون المواد اللازمة للزراعة وللحرف اليدوية ، ويوزعونها عليهم ويدفع جانب من ثمن بيع المنتجات كإيجار للمالك ويوزع الباقى طبقاً لحاجة كل فرد ولم تكن الأسرة هى الوحدة الاجتماعية بل البيت ، وكان يحتوى على عدد يتراوح بين ٤٠٠ ، ٢٠٠٠ شخص وفيه مطبخ مشترك ومغسل ومدرسة ومستشفى ومعصرة للخمر يشترك فيها الجميع . وكان الأطفال بعد فطامهم يربون بلا فوارق بينهم وإن ظل تحريم تعدد الزوجات كما هو . ومنع هذا المجتمع الشيوعى بمرسوم إمبراطورى صدر عام ١٦٢٢ فى حرب الثلاثين عاماً ، وخير أعضاؤه بين أن يعتنقوا الكاثوليكية أو ينفوا من البلاد . وذهب بعض المنفيين إلى روسيا ، وذهب البعض الآخر إلى المجر ولسوف نسمع عنهم مرة أخرى .

وفى الأراضى المنخفضة بشر ملشيور هوفمان ، وهو دباغ من سوابيا ، بإنجيل لامعمدانى لاقى نجاحاً فائقاً . وانتهى تلميذه جان ماتيس فى ليدن إلى الرأى القائل بأنه لن يكون فى الوسع الانتظار فى أناة لمجيء أورشليم جديدة ، بل يجب المبادرة إلى تحقيقها فوراً وبالقوة إذا لزم الأمر . وأوفد فى أرجاء هولنده اثنى عشر رسولا لإعلان الأخبار السارة ، وكان أقدرهم حائكاً صغير السن يدعى جان بويكلزون المعروف فى التاريخ باسم جون الليدينى وفى أوبرا ميير بير باسم « النبى » . وكان ، دون أن يتلقى تعليماً نظامياً ، حاد الذهن خصيب الخيال وسيم الهيئة ذرب اللسان قوى الإرادة . وكتب مسرحيات أخرجها بنفسه ، ونظم الشعر ، وعند ما وقعت فى يده

كتابات توماس منتسر شعر بأن كل أشكال المسيحية ، التى تختلف عما كان ميلهاوزن قد حصلها وفقدها ، تفتقر إلى الحمية والإخلاص . وسمع ما قاله جان ماتيس وغدا نصيراً للامعمدانية (١٥٣٣) . وكان وقتذاك فى الرابعة والعشرين من عمره وفى تلك السنة قبل دعوة مشئومة للحضور إلى منستر عاصمة وستفاليا الغنية الآهلة بالسكان لإلقاء عظاته .

وكانت منستر ، بحكم تسميتها باسم الدير الذى نمت حوله ، تابعة إقطاعياً لأسقفها ولرجال الكاتدرائية ، ومع ذلك فإن نمو الصناعة والتجارة قد استحدث فيها درجة من الديمقراطية . فقد كانت حشود الوطنيين ، الذين يمثلون سبع عشرة طائفة حرفية ، يختارون كل عام عشرة من المنتخبين ، وكانوا بدورهم يختارون مجلس المدينة . ولكن الأقلية الثرية كان يتوفر فيها الجانب الأكبر من الكفاية السياسية ، ومن الطبيعى أن تسيطر على المجلس .

وفى عام ١٥٢٥ قدمت الطبقات الدنيا فى غمرة حماستها لثورات الفلاحين ستة وثلاثين مطلباً إلى المجلس فسلم لها بالقليل منها وسخر من الباقى وأرجأ النظر فيها ، وأقام برنارد روتمان ، وهو واعظ من أنصار لوثر ، من نفسه لسان حال هذا التذمر ، وطلب من جان ماتيس أن يوفد بعض اللامعمدانيين الهولنديين لنصرته . فجاء جون الليدنى (١٣ يناير سنة ١٥٣٤) وسرعان ما أقبل جان ماتيس بنفسه . وخشى « حزب النظام » حدوث تمرد فأعد العدة لكى يدخل الأسقف فرانزفون فالديك المدينة مع ٢٠٠٠ من جنوده ، فحاربهم الأهلون بقيادة ماتيس وروتمان وجون الليدنى فى الطرقات ، وأجلوهم عن المدينة ، وسيطروا عسكرياً على منستر (١٠ فبراير سنة ١٥٣٤) . وأجريت انتخابات جديدة وفاز اللامعمدانيون بالمجلس واختير اثنان منهم وهما كنيبر دولنجاك وكيبنبرويك عمدتين وبدأت التجربة المثيرة .

ووجدت منستر نفسها على الفور فى حالة حرب ، يحاصرها الأسقف وجيشه المدعم ، وفى حالة فزع من أن تتحد سريعاً كل قوى النظام والتقاليد فى ألمانيا ضدها . ولكى يحمى المجلس الجديد نفسه ضد المعارضة الداخلية أصدر مرسوماً يقضى بأن يخير جميع المعارضين اللامعمدانيين بين قبول إعادة التعميد أو مغادرة المدينة . وكان هذا إجراء قاسياً لأنه كان يعنى إكراه الشيوخ ، والنساء الحاملات للأطفال ، والأطفال الحفاة على الركوب أو السعى مشياً من المدينة فى قلب الشتاء بألمانيا . وخلال هذا الحصار أعدم كلا الجانبين بلا رحمة أى شخص وجدوه يعمل لصالح العدو .

وألغى المجلس تحت وطأة الحرب وحل محله مجلس شعبى ولجنة تنفيذية للأمن العام ، وكان يرأس كلاً منهما زعماء من رجال الدين . ولقى ماتيس حتفه وهو يقاتل فى هجوم فاشل لفك الحصار (٥ أبريل سنة ١٥٣٤) ومن ثم تولى جون الليدينى حكم المدينة باعتباره ملكاً لها .

وكانت الشيوعية التى أرست دعائمها وقتذاك تعنى اقتصاد الحرب ، ولعل هذا ما يجب أن تكون عليه كل شيوعية صارمة ، ذلك لأن الناس ليسوا متساوين بفطرتهم ، ولا يمكن إغراؤهم بمشـــاطرة الآخرين أمتعتهم وثرواتهم إلا عند ما يستشعرون خطراً جوهرياً مشتركاً ، وتتفاوت الحرية فى الداخل بتفاوت الأمن فى الخارج وتتحطم الشيوعية تحت وطأة السلام . وخشى المحاصرون أن يفقدوا حياتهم إذا لم تتحقق لهم الوحدة ، واستهوتهم العقيدة الدينية والفصاحة التى لا مفر منها ، فقبلوا حكومة دينية اشتراكية[٦٠] ، وكان يراودهم أمل يائس بأنهم إنما يحققون القدس الجديدة ، التى وردت فى سفر الرؤيا . وأطلق على أعضاء لجنة الأمن العام اسم أكابر الأسباط الاثنى عشر لإسرائيل ، وأصبح جون الليدينى ملك إسرائيل ، ولعل جون أراد أن يدخل فى أذهان البسطاء معنى من معانى الوقار المفيد لمنصبه المقلقل فارتدى هو وأعوانه ملابس فخمة تركها لهم بعض السراة من المنفيين ، واتهم

الأعداء الزعماء المتطرفين بأنهم كانوا متخمين فى الوقت الذى أشرف فيه الأهالى المحاصرون على الموت جوعاً ، والدليل غير مقنع وذلك لأن الزعماء يستشعرون دائماً بأن عليهم التزاماً ملحاً بالمحافظة على صحتهم . وقد وزع الجانب الأكبر من أدوات الترف المصادرة على الشعب . وكتب أحدهم « يقول إن أفقر الناس منا كانوا يطوفون وهم يرتدون ثياباً فاخرة »(٦١) ثم ماتوا جوعاً فى شيء من الأبهة .

وبطريقة أخرى كانت الشيوعية فى منستر محدودة وتحت الاختبار ، وطبقاً لما رواه شاهد من الخصوم أصدر الحكام أمراً ، يقضى بأن تكون كل الممتلكات على المشاع(٦٢) ، ولكن فى الحقيقة ظلت الملكية الخاصة عملياً فى كل شيء ما عدا المجوهرات والمعادن الثمينة وغنائم الحرب . وكانت وجبات الطعام تقدم على الشيوع ، ولكن كان لا يتناولها إلا المشتغلون بالدفاع عن المدينة . وعند تقديم هذه الوجبات كان يقرأ إصحاح من الكتاب المقدس وتنشد أناشيد قدسية . وعين ثلاثة من الشماسين لإمداد الفقراء بحاجاتهم ، ولتوفير المواد لهذه الصدقات أغرى البقية من الأثرياء أو أكرهوا على التنازل عن فائض أموالهم . وخصصت الأرض الصالحة للزراعة داخل المدينة لكل أسرة طبقاً لعدد أفرادها . وأكد أحد المراسيم سيادة الزوج التقليدية على الزوجة(٦٣) .

وكان ينظم الأخلاق العامة قوانين صارمة ، وشجعت الرقصات والألعاب والتمثيليات الدينية تحت الإشراف ، ولكن كان السكر والمقامرة يعاقب من يرتكبهما بقسوة ، وكان البغاء محرماً والفجور والزنا من الجرائم التى تستحق أقصى عقاب ، ودفعت زيادة عدد النساء بسبب فرار كثير من الرجال الزعماء على أن يصدروا أمراً يستند إلى السوابق فى الكتاب المقدس ، بأن تصبح النساء غير المرتبطات رفيقات للزوجات — وكن فى واقع الأمر حظايا(٦٤) . ويبدو أن النساء اللاتى ارتبطن حديثاً قد تقبلن الموقف على أساس أنه أفضل من العيش فى عزلة وحرمان . واحتج بعض المحافظين فى المدينة

ونظموا ثورة ، وسجنوا الملك ، ولكن سرعان ما لقى جنودهم حتفهم بعد أن سلبت الخمر عقولهم ، وذلك على يد جنود اللامعمدانيين ولعبت النساء دوراً بطولياً فى انتصار القدس الجديدة واتخذ جون ، بعد أن أطلق سراحه وأعيد إلى عرشه ، عدة زوجات (كما يقول المؤرخون من خصومه) ، وحكم المدينة حكماً يتسم بالعنف والطغيان(٦٥) . ولا بد أنه كان يتصف ببعض الصفات اللطيفة لأن آلاف الناس تحملوا حكمه وعرضوا للتضحية بأرواحهم فى خدمته . وعند ما طالب بمتطوعين يسيرون وراءه فى هجوم مضاد على معسكر الأسقف انخرط فى خدمته عدد كبير من النساء أكثر مما رأى أنه من الحكمة أن يستخدمن ، وعند ما طلب « رسلا » لاقتحام الطريق لطلب العون من جماعات اللامعمدانيين الأخرى حاول اثنا عشر رجلا أن يخترقوا خطوط الأعداء ، وقبض عليهم جميعا وقتلوا ، واندفعت فجأة امرأة متحمسة مستلهمة قصة جوديث ، إلى الخارج لاغتيال الأسقف ، وحيل بينها وبينه ، وأعدمت .

وعلى الرغم من أن الكثيرين من اللامعمدانيين فى ألمانيا وهولندا رفضوا التجاء طائفتهم الأخوية فى منستر للقوة فإن الكثيرين منهم هتفوا استحساناً للثورة . ونمتمت كولونيا وترير وأمستردام وميدن بصلوات لامعمدانية دعت فيها بنجاح اللامعمدانية ، وأبحرت من أمستردام خمسون سفينة (٢٢ مارس و ٢٥ مارس سنة ١٥٣٥) تحمل إمدادات للمدينة المحاصرة ، ولكن السلطات الهولندية فرقتها كلها بدداً . وفى الثامن والعشرين من مارس استولت عصابة من اللامعمدانيين على دير فى وست فريزلاند ، وحصنته بعد أن سمعت صدى ثورة منستر ، ولكنها غلبت على أمرها ، وفقد من أفرادها ثمانمائة .

وعند ما واجهت قوى الإمبراطورية المحافظة من البروتستانت والكاثوليك على السواء هذه الثورة التى استشرت حشدت جنودها لقمع حركة

اللامعمدانية فى كل مكان . وها هو لوثر الذى كان قد أشار عام ١٥٢٨ بالرفق مع الهراطقة الجدد ينصح عام ١٥٣٠ بشهر السيف ضدهم ، لا باعتبارهم « كفاراً بل بوصفهم من كبار مثيرى الشغب »(٦٦) وأذعن ميلانكتون ، وأرسلت مدينة تلو أخرى المال والرجال للأسقف . وأصدر المجلس النيابى فى ورمس (٤ أبريل سنة ١٥٣٥) أمراً بفرض ضريبة على كل ألمانيا لتمويل الحصار . وهكذا استطاع الأسقف وقتذاك أن يحيط بالمدينة ويحرمها من كل إمداداتها ، وعند ما واجه الملك جون المجاعة وخور العزيمة أعلن أن كل من يرغب يستطيع مغادرة المدينة ، فانتهز الفرصة كثير من النساء والأطفال وبعض الرجال . أما الرجال فكان نصيبهم السجن أو القتل على أيدى جنود الأسقف ، وأما النساء فقد أبقوا على حياتهم للاستفادة بهن فى أداء خدمات مختلفة . وأنقذ أحد المهاجرين حياته بأن عرض على المحاصرين أن يريهم جانباً من الأسوار خالياً من الحماية ، فتسلقته قوة ، واقتحمت أحد الأبواب بإرشاده (٢٤ يونية) ، وسرعان ما تدفق إلى المدينة بضع آلاف من الجنود . وكانت المجاعة قد أنشبت أنيابها فى المحاصرين ، بحيث لم يبق منهم إلا ٨٠٠ رجل من القادرين على حمل السلاح ، وتحصنوا بمتاريس فى السوق ، ثم استسلموا مقابل وعد بمنحهم جواز الأمان لمغادرة منستر ، وعند ما سلموا أسلحتهم ذبحوا عن بكرة أبيهم . وفتشت البيوت وعثر فيها على أربعمائة من الأحياء كانوا مختبئين فقتلوا ، وربط جون الليدينى واثنان من أعوانه على الساريات ، ونمش كل جزء من أجسادهم بكماشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار حتى « أصيب بالغثيان تقريباً كل من كانوا وقوفاً فى السوق من الرائحة المنتنة » ، وشدت ألسنتهم حتى تدلت من أفواههم ، وأخيراً طعنت قلوبهم بالخناجر(٦٧) ه

واستعاد الأسقف المدينة ، وزاد سلطانه السابق ، وأصبحت كل أعمال السلطات المدنية عرضة من الآن فصاعداً للاعتراض من الأسقف ، واستعادت الكاثوليكية سلطانها المظفر ، وخشي اللامعمدانيون فى أرجاء الإمبراطورية على أرواحهم ، فنبذوا كل عضو فى طائفتهم يتهم باستخدام القوة ، ومع ذلك أعدم الكثيرون من هؤلاء الهراطقة المسالمين . وأشار ميلانكتون ولوثر على فيليب الهسى بإعـدام كل من انضموا إلى الطائفة(٦٨) ، وشعر الزعماء المحافظون أن مثل هذا التهديد الخطير للنظام الاقتصادى والسـياسى الذى توطدت أركانه يجب أن يعاقب بقسوة لا تعرف الغفران .

وتقبل اللامعمدانيون الدرس وأجلوا الشيوعية إلى العصر الألفى (عصر حكم المسيح ألف سنة) وأسلموا أنفسهم إلى ممارسة ما يتفق مع مبادئهم عن الحياة الرصينة البسيطة التقية المسالمة — التى لا تغضب الدولة .

وقام ميثو سيمونز ، وهو قس كاثوليكى اعتنق مذهب اللامعمدانية (١٥٣١) ، بإرشاد أتباعه من الهولنديين والألمان إرشاداً بارعاً جداً ، إلى حد أن « المينونيين » عاشوا على الرغم من كل ما تعرضوا له من محن ، وكونوا كوميونات زراعية ناجحة فى هولندة وروسيا وأمريكا . وليس هناك علاقة قرابة واضحة بين اللامعمدانيين فى القارة الأوروبية وبين جماعة الكويكر الإنجليز والمعمدانيين (جماعة البابتست) الأمريكيين . إلا أن رفض جماعة الكويكر للحرب والأيمان ، وإصرار جماعة المعمدانيين (البابتست) على التعميد عند البلوغ مستمدان من نفس تقاليد العقيدة الدينية والسلوك ، التى اتخذت أشكالا متعددة(٦٩) فى سويسرة وألمانيا وهولندة . وتشترك هذه الجماعات تقريباً فى صفة واحدة ، وهى تصميمها على تقبل العقائد التى تخالف عقائدها فى سلام . وأن علم اللاهوت الذى ساندها

وقت الشدة والفقر والاستشهاد لا يكاد يتفق مع فلسفتنا العابرة ، وإن كانت أيضاً بصـــدقها وولائها ومسالمتها قد أثرت تراثنا وكفرت عن إنسانيتنا المدنسة(*) .

(*) هاجر فوج من اللاممدانيين (١٧١٩) من ألمانيا إلى بنسلفانيا ، واستقر فى جرمانتاون أو بالقرب منها . وهؤلاء الدونكر يبلغ عددهم الآن زهاء ٢٠٠,٠٠٠ . وفى عام ١٨٧٤ غادر روسيا كثير من اللاممدانيين ، الذين ينحدرون من أصل مورافى ، واستقروا فى جنوب داكوتا والبرتا .

وفى شرق بنسلفانيا لايزال المينونيون الاميشيون – وأطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى جاكوب أمين وهو زعيم عاش فى القرن السابع عشر – يرفضون رسميا استخدام الأمواس والأزرار وطرق السكك الحديدية والسيارات ومشاهدة الصور المتحركة وقراءة الجرائد ، بل إنهم لايستخدمون الجرارات ، ومع ذلك فإن مزارعهم تعد من أنجح المزارع وأكثرها تنسيقاً فى أمريكا ، ويبلغ تعداد المينونيين ٤٠٠,٠٠٠ عام ١٩٤٩ .

الفصل الثامن عشر

زونجلي — الإصلاح الديني في سويسره

(١٤٧٧ — ١٥٣١)

Multum in Parvo ?

(كثير في القليل)

دعم نجاح المقاطعات السويسرية في صد الهجوم الذي قام به شارل الجسور (١٤٧٧) اتحادها وأشعل جذوة اعتزازها بقوميتها ، وشجعها على مقاومة المحاولة التي قام بها ماكسمليان لإخضائها اسماً وفعلاً للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وثارت منازعات على تقسيم الغنائم عقب هزيمة بورغنديا ، فدفعت بالمقاطعات إلى حافة الحرب الأهلية ، إلا أن فيلسوفاً ناسكاً بمجلس ستانز النيابي وهو نيكولاوس فون دير فلو — الأخ كلاوس في الذاكرة السويسرية — أقنعها بأن تركن إلى السلام .

وانضمت مقاطعة إثر مقاطعة إلى الاتحاد ، ليزداد قوة ، فقبلت فيه فرايبورج وسولوثورن عام ١٤٨١ ، وبازيل وشافهاوزن عام ١٥٠١ ، وابنتسيل عام ١٥١٣ ، وغدا الاتحاد بعد أن انضمت إليه ثلاث عشرة مقاطعة ، تتحدث كلها باللهجات الألمانية — ما عدا فريبورج وبرن ، فقد كان الحديث يدور فيهما بالفرنسية — جمهورية اتحادية : وكانت كل مقاطعة تنظم شئونها الداخلية . أما علاقاتها الخارجية فكانت تحكمها سلطة تشريعية عامة .

وكانت الهيئة التشريعية الوحيدة للمجلس النيابي الاتحادي تتكون من عدد مماثل من النواب عن كل مقاطعة . ولم تكن الديمقراطية كاملة ، فقد

حرمت عدة مقاطعات من التصويت الأقليات من رعاياها ، يضاف إلى هذا أن سويسرا لم تكن نموذجا يحتذى فى حب السلام .

ولقد انتهزت المقاطعات من ١٥٠٠ — ١٥١٢ فرصة تفكك وحدة إيطاليا ، واستولت على بلينزونا ولوكارنو ولوجانو وبعض المناطق الأخرى جنوب الألب ، واستمرت فى تأجير خدمات الفرق السويسرية — بموافقتها — للسلطات الأجنبية . ولكن الاتحاد تخلى عن التوسع الإقليمى بعد هزيمة حملة الحراب السويسرية فى موقعة مارينانو **Marignano** (١٥١٥) ، وتبنى سياسة تتسم بالحياد ، ووجه فلاحيه الأقوياء وصناعه المهرة ، وتجارة الكثيرى الموارد إلى تنمية حضارة ، تعد من أعظم الحضارات فى التاريخ .

وكانت الكنيسة فى سويسرة لينة العريكة وفاسدة ، كما كانت فى إيطاليا ، وأسبغت الرعاية على علماء الإنسانيات ، الذين احتشدوا حول فروبن وأرازموس فى بازل ، ومنحتهم قسطاً وافراً من الحرية . وأصبح هذا دعامة من دعائم التسامح الخلقى ، الذى ساد هذا العصر ، فاستمتع القساوسةالسويسريون بالخطايا[١]. وكان أحد الأساقفة السويسريين يتقاضى من رجال الدين التابعين له أربعة جيلدرات عن كل طفل يولد لهم ، وجمع فى عام واحد ١٥٢٢ جليدر من هذا المصدر[٢] . وشكا من أن الكثيرين من القساوسة يقامرون ، ويترددون على الحانات ، ويثملون علناً [٣] ، دون أن يدفعوا رسماً للأسقفية . وبدأت عدة مقاطعات ، وبخاصة زيورخ ، فى الإشراف المدنى على رجال الدين ، وفرضت الضرائب على أملاك الأديرة . وزعم أسقف كونستانس أن زيوريخ بأسرها إقطاعية تابعة له ، وطالب بخضوعها له وبضرائب العشور المفروضة عليها ، ولكن البابوية كانت جد مرتبكة باتجاهات السياسة الإيطالية ، فلم تستطع أن تؤيد مزاعمه بالفعل . ولقد وافق البابا يوليوس الثانى فى عام ١٥١٠ على أن يدير مجالس المدينة فى جنيف الأديرة ، وأن يضع قواعد للأخلاق العامة فى نطاق سلطته[٤] ،

وذلك مقابل الحصول على بعض الفرق من جنيف . ومن ثم فإن روح الإصلاح الدينى كانت قد تحققت فى زيوريخ وجنيف قبل ظهور أفكار لوثر بسبع سنوات ، وهى سيادة السلطة الزمنية على السلطة الدينية وأصبح الطريق ممهداً أمام زونجلى وكالفن لوضع الأسس المختلفة التى رأوا أنها تزيل هوة الخلاف بين الكنيسة والدولة .

٢ ـ زونجلى

إن زيارة يقوم بها المرء إلى محل ميلاد هولدرايخ ، أو أولريخ زونجلى ، لتوحى له بالقاعدة غير المضطردة التى تذهب إلى أن العظماء من الرجال إنما يولدون فى بيوت متواضعة . ولقد استهل أعظم المصلحين الدينيين العقلانيين ، الذين جانبهم التوفيق حياته (أول يناير عام ١٤٨٤) فى كوخ صغير بقرية فيلدهاوس ، التى تربض فى واد جبلى على بعد خمسين ميلا جنوب شرق زيوريخ فى مقاطعة سانت ـ جولد الحالية ، سقف جملونى منخفض ، وجدران من ألواح ثقيلة ، ونوافذ مقسمة إلى مربعات ، وأرضيات مكونة من ألواح مصمتة ضخمة ، وسقوف واطئة ، وحجرات مظلمة ، ودرجات تحدث صريراً ، وأسرة متينة من خشب البلوط ، ومنضدة وكرسى ورف للكتب ؛ وهذا البيت التاريخى يدل على بيئة كان الانتخاب الطبيعى فيها يتم بصورة صارمة ، أما الانتخاب الخارق للطبيعة فقد كان يبدو أملا لا غنى عنه ، وكان والد أولريخ كبير القضاة فى هذه القرية الصغيرة المغمورة أما أمه فكانت شقيقة قس معتزة بنفسها . وكان الابن الثالث من بين ثمانية أبناء يتنافسون على الظفر بإعجاب شقيقتين ، ويبدو أنه قدر قد عليه أن يكون قساً منذ نعومة أظفاره .

وأسهم عمه ، وهو نائب الأسقف فى كنيسة قرب فيزين ، فى تعليمه مع والديه ، وكان له الفضل فى أن يكون زونجلى نزعة إنسانية واتساع أفق ، تميز بها بوضوح عن لوثر وكالفن . وعندما بلغ الصبى العاشرة من

عمره أرسل إلى مدرسة لاتينية فى باويل ، وفى الرابعة عشرة دخل كلية فى برن يرأسها أحد الأهلين من أنصار الكلاسية المبرزين . ودرس من السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة فى جامعة فينا ، فى الفترة التى ازدهرت فيها الدراسات الإنسانية ، فى عهد كونراد سيلتس . وكان يسرى عن نفسه ما يلاقيه من عناء بالعزف على العود والقيثار والكمان والناى والسنطير .

وفى الثامنة عشرة من عمره عاد إلى بازيل ، ودرس اللاهوت على يد توماس فيتنباخ ، الذى هاجم قبل الأوان عام ١٥٠٨ صكوك الغفران وعزوبة رجال الدين والقداس . وحصل زونجلى على درجة الماجستير ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، (١٥٠٦) ورسم قساً . واحتفل بإقامة أول قداس له فى فيلدهاوس وسط الأقارب المبتهجين ، واشترى بمبلغ مائة جيلدر جمعت له وظيفة راعى أبرشية(٥) فى جلاروس على بعد عشرين ميلا .

وهناك تابع دراساته فى الوقت الذى كان يؤدى فيه واجباته بغيرة وحماسة ، وتعلم اليونانية ليقرأ العهد الجديد بلغته الأصلية ، وقرأ بحماسة مؤلفات هوميروس وبندار وديموكريتوس وبلوتارك وسيشرون وقيصر وليفى وسينيكا وبلينى الأصغر وتاسيتوس ، وكتب تعليقاً على مؤلف لوسيان الشكاك الفكه ، وتبادل الرسائل مع بيكوديلا ميراندولا وأرازموس ، ويصف أرازموس بأنه « أعظم فيلسوف وعالم باللاهوت » ، وزاره موقراً إياه (١٥١٥) ، وكان يقرأ له كل ليلة قبل أن ينام . وقد درج ، مثل أرازموس ، على أن يسلق بلسان لاذع فساد رجال الدين ، وأن يسخر بفطرته من التطرف فى العقيدة ، وأن يرفض بشدة الرأى القائل بأن قدامى الفلاسفة والشعراء يصلون نار جهنم . « وأقسم أنه يؤثر أن يشاطر سقراط أو سينيكا حظه المقدور ولا يتلقى الإنعام من البابا »(٦) . ولم يسمح لعهود الكهنوتية بأن تحرمه من ملذات الجسد ، فكانت له علاقات مع نساء متبرجات ، وظل منغمساً فى ملذاته هذه حتى تزوج عام ١٥١٤ .

ولم تعبأ بأفعاله جموع المصلين عنده ، وظل البابوات يدفعون له حتى عام ١٥٢٠ معاشاً قدره خمسون فلورين ، نظير تأييده لهم ضد الحزب المناصر للفرنسيين فى جلاروس . واصطحب من عام ١٥١٣ إلى عام ١٥١٥ فرقة الجنود المرتزقة السويسرية فى جلاروس إلى إيطاليا ، بصفته واعظاً لها ، وبذل أقصى ما فى وسعه لكى يحمل الجنود على الحفاظ على ولائهم للقضية البابوية ، إلا أن صلته بالحرب فى المعارك التى دارت فى نافارو وماريذيانو ، جعلته يعارض بشدة أى تدبير لبيع شجاعة الجنود السويسريين للحكومات الأجنبية .

وفى عام ١٥١٦ فاز الحزب الفرنسى فى جلاروس ، وأصبحت له اليد الطولى ، فانتقل زونجلى إلى أبرشية فى أنيزيدلن بمقاطعة شفيتز . وهنا اصطبغت عظته بصبغة بروتستانتية حتى قبل قيام ثورة لوثر ، ونادى عام ١٥١٧ باعتناق دين يعتمد على الكتاب المقدس فحسب وأبلغ كبير الأساقفة الكاردينال ماتهويس شينر أن فى الكتاب المقدس أجازة ضعيفة للبابوية ، ولقد هاجم فى أغسطس عام ١٥١٨ مساوئ بيع صكوك الغفران . وحرض رهبان البندكتيين على أن يرفعوا من المزار ، الذى أقاموه للعذراء ، والذى يعود عليهم بالربح الوفير ، نقشاً يعدون فيه الحجاج بـ « الغفران الكامل لجميع الخطايا التى اقترفوها وإعفائهم من العقاب أيضاً »(٧) . وعاد بعض الحجاج من زيوريخ إلى قساوستهم برواية حماسية عن وعظه . وفى العاشر من ديسمبر عام ١٥١٨ قبل الدعوة لتنصيبه « قساً » أو « قسيساً للشعب » فى جروسمنستر أو الكنيسة الكبرى فى زيوريج أعظم المدن السويسرية جرأة ، وكان فى ذلك الوقت يقترب من النضج فى الروح المعنوية والتعقل . وقام بإلقاء سلسلة من العظات فسر فيها ، من النص اليونانى ، العهد الجديد بأسره ما عدا سفر الرؤيا ، الذى لم يكن يحبه ، وكان يطوى بين جوانبه شيئاً من الصوفية ، التى أسهمت فى تكوين لوثر . وليس لدينا صورة شخصية له ،

أخذت إبان حياته ، ولكن معاصريه وصفوه بأنه رجل وسيم أصهب صريح النسب ، له صوت شجى ، يستولى على ألباب جموع المصلين فى كنيسته ، ولم يكن يضارع لوثر فى الفصاحة أو التفسير ، ومع ذلك فإن عظاته كانت مقنعة ، لما تتسم به من صدق وصفاء ، وسرعان ما استجابت زيوريخ بأسرها لتأثيره . وأيده رؤساؤه من رجال الدين عند ما استأنف حملته ضد بيع صكوك الغفران . وقد اجتاز فى أغسطس عام ١٥١٨ برنهاردن سمسون الراهب الفرنسسكانى من ميلان (Bernhardin Samson) مضيق سانت جوتار ، وأصبح تيــتزل سويسرة . وقدم صك غفران من البابا ليو إلى الأغنياء على ورق الورشمان نظير ريال ، وإلى الفقراء ، مقابل بضع بنسات ، وبتلويحة من يده أعفى كل الأرواح التى هلكت فى برن من عذاب المطهر . واحتج زونجلى ، وظاهره فى هذا الاحتجاج أسقف كونستانس ، ولما كان ليو العاشر على علم بشىء من الأحداث الجارية فى ألمانيا ، فقد استدعى رسوله المتلاف . وفى عام ١٥١٩ انتشر وباء الطاعون فى زيوريخ ، وقضى على ثلث السكان فى خلال نصف عام . ولازم زونجلى مقره ، وواصل العمل ليلا ونهاراً فى العناية بالمرضى ، وأصيب هو نفسه بعدوى المرض ، وأشرف على الهلاك ، وما أن عوفى حتى غدا أعظم شخصية فى زيوريخ ، تحظى بالشعبية ، وبعثت إليه بالتهانى بعض الشخصيات المرموقة ، التى تقيم بعيداً عنه ، من أمثال بيركهايمر وديرر . ونصب عام ١٥٢١ كبيراً للقساوسة فى جروسمنستر ، وأصبح وقتذاك من القوة بحيث استطاع أن ينادى فى سويسرة بالإصلاح الدينى .

٣ — إصلاح زونجلى الدينى

ولقد تغيرت شخصية راعى الأبرشية فى كنيسته ، دون وعى منه تقريباً ، وإن كان هذا التغيير نتيجة طبيعية لما تلقاه من تعليم غير عادى . . . كانت الموعظة قبله هينة الشأن ، ويكاد القداس والقربان المقدس أن يستغرقا

معظم الخدمة الدينية ، وقد جعل زونجلى الموعظة المسيطرة فى إقامة الشعائر الدينية ، وأصبح معلماً لا يقل براعة عنه واعظاً ، وكلما ازدادت ثقته اشتد إقناعه بأن المسيحية يجب أن تعود إلى بساطتها الأولى فى النظام والعبادة . ولقد استفزته ثورة لوثر ورسائله ورسالة هس « عن الكنيسة » ، فما أن حل عام ١٥٢٠ حتى كان يهاجم علناً الرهبانية والمطهر والتوسل بالقديسين ، وبرهن أكثر من هذا على أن دفع ضرائب العشور للكنيسة يجب أن يكون بمحض الاختيار ، كما جاء فى الكتاب المقدس . ورجاه الأسقف الذى يتبعه أن يسحب هذه العبارة ، ولكنه أصر عليها وأيده مجلس المقاطعة ، بأن أصدر أمراً لكل القساوسة المعينين فى نطاق اختصاصه ، أن تقتصر عظاتهم على ما وجدوه فى الكتاب المقدس . وفى عام ١٥٢١ أقنع زونجلى المجلس بمنع تطوع الجنود السويسريين فى صفوف الفرنسيين ، وبعد مرور عام امتد الحظر حتى شمل كل الدول الأجنبية ، وعندما استمر الكاردينال شينر فى تجنيد الفرق السويسرية للبابا ، أوضح زونجلى لجمهور المصلين عنده ، أن الكاردينال كان لا يرتدى قبعة حمراء دون داع لأنها « إذا عصرت لرأيت دم أقرب الأقربين يقطر من ثناياها »[٨] . ولما لم يجد فى العهد نصاً يحرم اللحم فى الصوم الكبير ، فقد سمح لرعايا أبرشيته بأن يتجاهلوا أوامر الكنيسة الخاصة بهذا الصوم الكبير . واحتج أسقف كونستانس ، فرد عليه زونجلى فى كتاب عنوانه (بداية ونهاية) تنبأ فيه بثورة عالمية ضد الكنيسة ونصح البطارقة بأن يقلدوا قيصر وأن يطووا حولهم أرديتهم ، ويموتوا فى جلال ووقار . والتمس ، هو وعشرة من القساوسة الآخرين ، من الأسقف أن يضع حداً لفجور رجال الدين ، وذلك بأن يسمح بزواج رجال الكهنوت (١٥٢٢) . وكان فى إبان ذلك العهد يحتفظ بسيدة تدعى أنا راينهارد بصفة عشيقة أو زوجة له فى الخفاء . وتزوجها علناً عام ١٥٢٤ قبل زواج لوثر من كاترين فون بورا بعام .

وقد سبق هذا الانفصام النهائى من الكنيسة جدلان ذكرا الناس بمناظرة

لوثر وايك فى ليبزج ، وكانت لهما أصداء بعيدة فى جدل أنصار الفلسفة الكلامية فى جامعات العصور الوسطى .

ولما كانت سويسرة جمهورية نصف ديمقراطية فلم يروعها رأى زونجلى ، الذى يذهب إلى أن الخلافات بين آرائه وآراء خصومه المحافظين يجب أن تلقى أذناً صاغية غير متحيزة ، وأخذ مجلس زيوريخ الكبير على عاتقه باغتباط مهمة الحكم على رجال الدين ، فدعا الأساقفة أن يرسلوا ممثلين لهم فحضروا بكامل أهبتهم واحتشد منهم نحو ستمائة فى قاعة المدينة ، للاشتراك فى الجدل المثير (٢٥ يناير سنة ١٥٢٣) .

وعرض زونجلى سبعة وستين بنداً يدافع عنها :

١ — يخطئ كل من يقول أن الإنجيل لا يساوى شيئاً ، إذا لم ترض عنه الكنيسة .

١٥ — يتضمن الإنجيل الحقيقة بأكملها فى وضوح وجلاء . . .

١٧ — المسيح هو الكاهن الأعظم الخالد الوحيد ، والذين يزعمون أنهم كهنة عظام ، إنما يعارضون فى الحقيقة شرف المسيح وجلاله .

١٨ — أن المسيح الذى ضحى بنفسه يوماً فوق الصليب ، قد قام بالتضحية الكافية والدائمة للتكفير عن خطايا كل المؤمنين ، ومن ثم فإن القداس ليس تضحية ، وإنما هو تذكرة للتضحية الوحيدة على الصليب . . .

٢٤ — المسيحيون غير مكلفين بأية أعمال لم يأمر بها المسيح ، ويمكنهم أن يأكلوا فى جميع الأوقات كل أنواع الطعام . . .

٢٨ — كل ما يبيحه الله ولم يحرمه حلال . ومن ثم فإن الزواج مباح لكل الناس .

٣٤ — لا أساس للسلطة الروحية التى يطلق عليها اسم (الكنيسة) فى الكتب المقدسة وفى تعاليم المسيح .

٣٥ — إلا أن السلطة الزمنية تؤيدها تعاليم المسيح وسنته (إصحاح لوقا ٢ — ٥ وإصحاح متى ٢٢ ، ٢١) . . .

٤٩ — لا أعرف فرية أعظم من تحريم الزواج الشرعى على القساوسة ، بينما يباح لهم اتخاذ حظايا على شريطة دفع غرامة . يا للعار ! .

٥٧ — إن الكناس المقدس لا يعرف شيئاً عن المطهر . . .

٦٦ — على جميع الرؤساء الروحيين أن يبادروا بالتوبة ، وأن ينصبوا صليب المسيح وحده وإلا هلكوا . إن البلطة موضوعة على الجذر[٩] .

ورفض جوهان فابر — الأسقف العام لأبرشية كونستانس هذه الآراء تفصيلا ، وطالب بأن تطرح أمام جامعات كبيرة أو أمام مجلس عام للكنيسة . ورأى زونجلي أن هذا لا ضرورة له . فبعد أن أصبح العهد الجديد وقتذاك فى متناول الناس باللغات الدارجة ، صار فى وسع الجميع أن يحصلوا على كلمة الله ليحكموا على هذه الآراء وهذا يكفى . . . ووافق المجلس وأعلن أن زونجلى برىء من الهرطقة ، وأمر كل رجال الكهنوت فى زيوريخ بأن تكون عظاتهم مقصورة على ما يجدون له سنداً فى الكتاب المقدس . وهنا تولت الدولة أمر الكنيسة كما حدث بألمانيا فى عهد لوثر .

وقبل معظم القساوسة — بعد أن ضمنت لهم الدولة الآن رواتبهم — أمر المجلس . وتزوج الكثيرون منهم وتعمدوا باللغة الدارجة وأغفلوا أمر القداس وتخلوا عن تقديس الصور . وبدأت عصبة من المتحمسين فى إتلاف الصور والتماثيل بلا تمييز فى كنائس زيوريخ . وانزعج زونجلى من انتشار العنف على هذا النحو فرتب مناظرة أخرى (٢٦ أكتوبر سنة ١٥٢٣) حضرها ٥٥٠ من عامة الناس و ٣٥٠ من رجال الكهنوت . وتمخضت عن أمر صدر من المجلس يقضى بأن تتولى لجنة من أعضائها زونجلى ، إعداد كتيب يتضمن تعليمات ، توضح العقيدة للناس ، وأن يتوقف فى غضون ذلك العنف بجميع صوره . وألف زونجلى بسرعة « مقدمة قصيرة فى المسيحية » أرسلت لجميع رجال الدين فى المقاطعة .

واحتجت السلطة الكهنوتية الكاثوليكية ، وأيدها فى الاحتجاج المجلس

النيابى للاتحاد الذى اجتمع فى لوسون (٢٦ ينايرسنة ١٥٢٤) ، فى الوقت نفسه تعهد بالقيام بإصلاح كهنوتى ، غير أن مجلس المدينة تجاهل هذه الاحتجاجات .

وصاغ زونجلى عقيدته بتوسع فى رسالتين باللاتينية : « الدين الحقيقى والزائف (De vera et false religione) (١٩٢٥) و (Ratio fidei) (١٥٣٠) وقبل لاهوت — الكنيسة الأساسى — إله ثلاثى التوحد ، وهبوط آدم وحواء من الجنة ، وتجسد الأقنوم الثانى ، وولادة العذراء والتكفير ، ولكنه فسر « الخطيئة الأصلية » لا بأنها لوثة إثم ورثناه من « أبائنا الأوائل » ولكن بأنها نزعة غير اجتماعية ، تكمن فى طبيعة الإنسان[١٠] . وقد اتفق فى الرأى مع لوثر بأن الإنسان لن يستطيع أبداً أن يحصل على الخلاص بالأعمال الصالحات ، بل يجب أن يؤمن بالقدرة التكفيرية لموت المسيح المقترن بالتضحية . واتفق فى الرأى أيضاً مع لوثر وكالفن فى موضوع القدر : كل حادث وبالتالى المصير الأزلى لكل فرد قدره الله ، ولا بد أن ينفذ كما قدر سبحانه ، ولكن الله لم يقدر اللعنة الأبدية إلا على الذين أعرضوا عن آيات الإنجيل ، التى بسطت عليهم ، وكل طفل (من أبوين مسيحيين) يموت ، وهو طفل ، يكتب له الخلاص ، حتى ولو لم يعمد ، لأنه أصغر من أن يرتكب خطيئة . وجهنم حق ، أما المطهر فهو « خرافة ... مهنة مربحة لمن ابتدعوه »[١١] وليس فى الكتاب المقدس إشارة عنه ، أما القرابين المقدسة فإنها ليست وسائل معجزة بل رموزاً نافعة لرحمة الله . والاعتراف السرى لا ضرورة له ، وليس فى وسع قسيس أن يغفر لأحد — خطيئته — فالله وحده هو الغفور ، وإن كان من المفيد غالباً أن نسر بمتاعبنا إلى قسيس[١٢] . وليس العشاء الربانى ، أكلا فعلياً لجسد المسيح ، ولكنه رمز لاتحاد الروح بالرب والفرد بالجماعة المسيحية .

وحافظ زونجلى على القربان المقدس باعتباره جزءاً من الصلاة التى

يقرها الإصلاح الدينى ، وناول القربان بالخبز والنبيذ معاً ، ولكنه لم يناوله إلا أربع مرات فى العام . وفى ذلك الاحتفال العرضى أبقى على جانب كبير من القداس ، وإن أخذ جمهور المصلين والقس يتلونه باللغة الألمانية فى سويسرة . أما فى باقى السنة فقد كان يستبدل بالقداس العظة الدينية . وأصبح سلطان الشعيرة على الحواس والتصور تابعاً لتأثير مخاطبة العقل ، وهو مقامرة تتسم بالتهور على الذكاء الشعبى وقدرة الأفكار على الثبات ، ولما كان من الضرورى أن يستبدل بكنيسة معصومة من الخطأ إنجيلا لا تشوبه شائبة ليكون نبراساً للعقيدة والسلوك ، فإن الترجمة الألمانية للعهد الجديد التى قام بها لوثر ، أعدت باللهجة الألمانية فى سويسرة ، وعهد إلى هيئة من العلماء ورجال الدين برئاسة قداسة ليوجود إعداد نسخة بالألمانية من الكتاب المقدس بأسره ، وقد نشر هذه النسخة كريستيان فروشاور عام ١٥٣٤ فى زيوريخ ، قبل أن تظهر نسخة لوثر — وهى خير منها — بأربع سنوات .

وفى امتثال صادق للوصية الثانية ، ودلالة على عودة المسيحية البروتستانتية إلى تقاليدها اليهودية الأولى ، أمر مجلس مدينة زيوريخ برفع كل الصور الدينية ومخالفات القديسين والزينات من كنائس المدينة ، بل إن آلات الأرغن أبعدت عنها ، وترك الصحن الداخلى الفسيح لكنيسة جروسمنستر عاطلا كئيب المنظر ، كما هو اليوم . وحقاً أن بعض الصور كان سخيفاً بصورة لا يقبلها العقل ، وبعضها كان مهيئاً للاستسلام للخرافة والوهم بحيث يستحق الإتلاف ، إلا أن جانباً منها كان جميلا ، إلى حد دفع هينريخ بولينجر خلف زونجلى إلى أن يحزن لفقدها . وكان لزونجلى نفسه موقف متسامح من التماثيل التى لا تعبد باعتبارها أصناماً خارقة الصنع [١٣] ، ولكنه صفح عن عملية التقويض باعتبارها زجراً لعبادة الأصنام [١٤] ، وسمح للكنائس القروية فى المقاطعة بأن تحتفظ بتماثيلها ، إذا كانت هذه رغبة غالبية جموع المصلين . واحتفظ الكثالكة ببعض الحقوق المدنية ، ولكنهم لم يقبلوا فى الوظائف

العامة . وعوقب كل من يحضر القداس بغرامة ، وحرم[١٥] مبدأ أكل السمك بدلا من اللحم يوم الجمعة . وأغلقت أديرة الرهبان والراهبات (باستثناء دير واحد) أو حولت إلى مستشفيات أو مدارس ، وبرزت الرهبان والراهبات من الدير لعقد زواجهم ، وألغيت أعياد القديسين ، واختفت طقوس الحج والماء المقدس والقداسات التى كانت تقام للموتى .

وعلى الرغم من أن كل هذه التغييرات لم تتم حتى عام ١٥٢٤ ، فإن الإصلاح الدينى ، حتى ذلك الوقت ، كان قد بلغ درجة من الرقى ، فى عهد زونجلى وفى زيورخ ، تفوق ما بلغه فى عهد لوثر وفى فيتنبرج ، وكان لوثر وقتذاك راهباً أعزب لا يزال يردد القداس .

وشكلت زيورخ مجلساً خاصاً ، فى نوفمبر عام ١٥٢٤ ، يتكون من ستة أعضاء لإعداد الاتفاقات اللازمة لفض المشاكل العاجلة أو الدقيقة ، التى كانت تعانى منها الحكومة ، وتم بين زونجلى وهذا المجلس نوع من التفاهم ، اتخذ شكلا ما ، إذ سلم له بتنظيم كل الشئون الخاصة برجال الدين والعلمانيين على السواء ، وكان المجلس فى كل من المجالين يتبع قيادته . وأصبحت الكنيسة والدولة فى زيورخ منظمة واحدة ، على رأسها زونجلى بصفة غير رسمية ، وفيها ارتضى الإنجيل (كما هو الحال بالنسبة للقرآن فى الإسلام) المصدر الأول والحكم الأخير للشريعة . وتحقق فى زونجلى ، كما تحقق فى كالفن فيما بعد ، المثل الأعلى للنبى الذى يرشد الدولة ، كما تصوره العهد القديم .

وما أن حقق زونجلى هذا النجاح التام والسريع فى زيورخ حتى قلب عيناً متسائلة فى المقاطعات التى تدين بالكاثوليكية ، وتساءل ألا يمكن كسب سويسرة بأسرها لصف الشكل الجديد للعقيدة القديمة ؟

٤ — إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون

ولقد مزق الإصلاح الدينى « الاتحاد » ويبدو أنه قدر له أن يقضى عليه . وآثرت برن وبازيل وشافهاوزن وآبنتسل والجريزونيون أن تناصر زيورخ ، أما باقى المقاطعات فقد ناصبتها العداء . وكونت خمس مقاطعات — وهى لوسرن وأورى وشفتيز وأونترفالدن وتسوج — حلفاً كاثوليكياً لقمع كل الحركات الهسية وللوثرية والزونجلية (١٥٢٤) ، وحث الأرشيدوق فرديناند النمساوى كل الولايات الكاثوليكية على أن تقوم بعمل موحد ، ووعدها بتقديم المساعدة . وليس من شك فى أنه كان يطمح فى أن يستعيد سلطات آل هابسبورج فى سويسرة . وفى السادس عشر من يوليو وافقت كل المقاطعات باستثناء شافهاوزن على إقصاء زيورخ من المجالس النيابية الاتحادية فى المستقبل . وردت زيورخ وزونجلى على هذا بإرسال مبشرين إلى مقاطعة ثورجاو لإعلان الإصلاح الدينى . وقبض على واحد من هؤلاء ، إلا أن بعض الأصدقاء أنقذوه ، وساروا فى حشد هائج نهب ديراً وأحرقه ، وحطم التماثيل فى عدة كنائس (يوليو ١٥٢٤) ، وأعدم ثلاثة من الزعماء ، وثارت روح عسكرية بين الطرفين . وروّع أرازموس ، وهاله الظهور فى بازيل خشية أن يرى متعبدين أتقياء يثورون بعــد سماع وعاظهم ويخرجون من الكنيسة « كرجال تملكتهم جنة ، يرتسم الغضب والهياج على أساريرهم ... كمحاربين يسيرون وراء قائدهم للقيام بهجوم قوى »[١٦] . وهددت ست مقاطعات بأن تترك الاتحاد إذا لم يوقع العقاب على زيورخ .

وأشار زونجلى ، وقد أعجبه القيام بدوره الجديد كقائد حربى ، على زيورخ بأن تزيد من عدد جيشها وطاقة دار صناعة أسلحتها ، وأن تنشد التحالف مع فرنسا ، وأن تشعل ناراً وراء فرديناند بالتحريض على الثورة

فى التيرول وبعد تورجاو وسان — جال يمنحهما أملاك الأديرة مقابل تأييدهما لها . وعرض على الحلف الكاثوليكى السلام بثلاثة شروط : —

أن يسلم لزيورخ دير سان — جال الشهير وأن يتخلى عن الحلف النمساوى وأن يسلم إلى زيورخ توماس مورنر الهجاء اللوسرنى ، الذى طالما وجه نقداً لاذعاً فى كتاباته للمصلحين الدينيين . وسخر الحلف من هذه الشروط ، فأمرت زيورخ ممثليها فى سان — جال بالاستيلاء على الدير فأطاعوا (٢٨ يناير ١٥٢٩) وخفت حدة التوتر فى فبراير إثر أحداث فى بازيل .

كان زعيم البروتستانت فى « أثينا سويسرة » هو جوهانس هاوسشاين ، الذى أسبغ على اسمه صفة الهلينية ، ومعناه مصباح البيت ، فأطلق على نفسه اسم أويكو لامباديوس . وقد نظم الشعر باللاتينية ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وسرعان ما أتقن اللغة اليونانية فيما بعد ، وكان لا يفوقه فى إتقان اللغة العبرية إلا رويخلين ، وذاع صيته كمصلح دينى وأخلاقى رقيق العاطفة فى كل شىء إلا الدين ، وذلك من فوق منبره فى كنيسة سانت مارتن ، وفى كرسى الأستاذية للاهوت فى الجامعة . وما أن حل عام ١٥٢١ حتى كان يهاجم مساوئ كرسى الاعتراف وعقيدة التجسد وعبادة العذراء . وحياة لوثر عام ١٥٢٣ ، وتبنى عام ١٥٢٥ برنامج زونجلى الذى يشمل اضطهاد اللامعمدانيين ، ولكنه رفض التسليم بالقدر وعلم الناس أن « خلاصنا يأتى من الله أما هلاكنا فمن أنفسنا »[١٧]. وعند ما أعلن مجلس مدينة بازيل ، وقد رجحت فيه وقتذاك كفة البروتستانت ، حرية العبادة (١٥٢٨) احتج أويكو لامبادموس وطالب بتحريم القداس .

واجتمع فى ٨ فبراير عام ١٥٢٩ ثمانمائة رجل فى كنيسة الفرانسسكان وبعثوا بطلب إلى المجلس التمسوا فيه ضرورة تحريم القداس وعزل كل الكثالكة من مناصبهم وبسريان دستور أكثر ديمقراطية ، وتشاور المجلس فى الأمر ،

وفى اليوم التالى أقبل مقدمو الالتماس إلى السوق ، وهم مدججون بالسلاح ، وعند ما حل الظهر ولم يصل المجلس بعـد إلى قرار تحرك الحشد نحو الكنائس بالمطارق ، وحطموا كل التماثيل الدينيةالتى وجدوها[١٨] . ووصف أرازموس الواقعة فى خطاب له بعث به إلى بيركهايمر :

لقد رفع الحدادون والعمال كل الصور من الكنائس ، وانهالوا بالشتائم على تماثيل القديسين والصليب نفسه ، بصورة تدعو إلى الدهشة ، لعدم حدوث معجزة ، بعد أن رأينا كيف اعتاد الناس حدوث الكثير منها دائماً عند ما يساء إلى القديسين أدنى إساءة . أنهم لم يبقوا على تمثال واحد فى الكنائس أو فى الدهاليز أو فى الأروقة أو فى الأديرة . وطمست الصور الجدارية بوساطة تغطيتها بطبقة من الجير ، وألقى فى النار بكل ما يمكن حرقه ودق الباقى حتى استحال إلى شظايا . ولم يستبق شيء بدافع الحب أو المال[١٩] .

وتلقف المجلس التلميح وصوت بإلغاء القداس إلغاء كاملا ، وغادر بازيل أرازموس وبياتوس رينانوس وكل الأساتذة فى الجامعة تقريباً . وعاش أويكو لامباديوس المظفر حتى شهد اندلاع نيران الثورة ، ولكنه لم يعمر إلا سنتين ، إذ سرعان ما مات بعد وفاة زونجلى .

وفى مايو عام ١٥٢٩ أحرق على الخازوق مبشر بروتستانتى من زيورخ ، حاول أن يقدم عظاته فى مدينة شفيتز . وأقنع زونجلى مجلس مدينة زيورخ بإعلان الحرب ، ورسم خطة الحملة ، وقاد بنفسه فرق المقاطعة ، وأوقفهم رجل يدعى لانديمان أيبلى الجلاروسى فى كابيل ، التى تقع على بعد عشرة أميال جنوبى زيورخ ، وتوسل إليهم أن يمنحوه ، على سبيل الهدنة ، ساعة يتفاوض فيها مع الحلف . وساور زونجلى الشك فى أن الأمر ينطوى على خيانة ، وآثر أن يتقدم بجيشه فوراً . إلا أن حلفاءه من أهل برن تغلبوا عليه هم وجنوده ، الذين تآخوا بالفعل مع جنود العدو عبر الحدود الفاصلة بين المقاطعتين زيين اللاهوتين ، واستمرت المفاوضات ستة عشر يوماً

وأخيراً رجحت كفة التعقل بين السويسريين ، ووقعت اتفاقية كابيل الأولى للسلام (٢٤ يونية ١٥٢٩) وكانت شروط الاتفاقية انتصاراً لزونجلى ، إذ وافقت المقاطعات بموجبها على دفع تعويض لزيورخ : وإنهاء تحالفها مع النمسا ، وحظر مهاجمة أى من الطرفين للآخر بسبب الفوارق الدينية ، وعلى أن يترك للناس فى « الأراضى المشتركة » التابعة لمقاطعة أو أكثر أن يقرروا بأغلبية الأصوات تنظيم حياتهم الدينية . ومهما يكن من أمر فإن زونجلى لم يرض عن هذا الاتفاق ، فقد طالب بإطلاق حرية البروتستانت فى الوعظ بالمقاطعات الكاثوليكية ، ولم يتلق ما يفيد إجابته إلى طلبه ، وتنبأ بوقوع تصدع قريب للسلام .

واستمرت الاتفاقية سارية المفعول ثمانية وعشرين شهراً ، وفى خلال هذه الفترة القصيرة بذلت محاولة لتوحيد صفوف البروتستانت فى سويسرة وألمانيا . وكان شارل الخامس قد فض نزاعه مع كليمنت السابع : وأصبح كل منهما وقتذاك حراً فى أن ينضم بقواته لمحاربة البروتستانت ، ولكن هؤلاء كانوا يمثلون قوة سياسية عظيمة ، فقد كان نصف سكان ألمانيا من أتباع لوثر ، وكان كثير من المدن الألمانية — أولم وأوجسبورج وفيرتمبرج وماينز وفرانكفورت — على — الماين وشتراسبورج — تتعاطف بشدة مع أتباع زونجلى ، وعلى الرغم من أن المناطق الريفية فى سويسرة كانت تدين بالكاثوليكية ، فإن معظم المدن فيها كانت تدين بالبروتستانتية . وكان من الواضح أن حماية النفس من الإمبراطورية والبابوية قد تطلبت اتحاد البروتستانت ولم يقف فى الطريق إلا اللاهوت .

وأخـــذ فيليب لاندجراف الهيسى زمام المبادرة بدعـــوة لوثر وميلانكتون وآخرين من البروتستانت الألمان لمقابلة زونجلى وأويكو لامبيادوس وآخرين من البروتستانت السويسريين فى قصره بماربورج شمالى فرانكفورت . وتقابل الحزبان المتناظران فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٥٢٩ ، وأقدم

زونجلى فى سخاء على التسليم ببعض الأمور وأزال ما ساور لوثر من شك فى أنه يتشكك فى ألوهية المسيح ، وقبل العقيدة النيقاوية والمذهب القائل بالخطيئة الأصلية . ولكنه لم يتراجع عن رأيه فى القربان المقدس باعتباره رمزاً وذكرى أكثر منه معجزة . وكتب لوثر بالطباشير على مائدة المؤتمر هذه الكلمات المنسوبة للمسيح : « هذا جسدى » ولم يقبل أن يفسرها إلا تفسيراً حرفياً . ووقع الطرفان اتفاقاً ، تضمن أربعة عشر بنداً ، ولكنهما اختلفا فى موضوع القربان المقدس (٣ أكتوبر) ولم يكن اختلافهما متسماً بالود ، ورفض لوثر أن يصافح اليد التى مدها إليه زونجلى ، وقال : « إن روحك تختلف عن روحنا » . واستخلص اعترافاً لاهوتياً من سبعة عشر بنداً يشمل « التجاسد » ، وأقنع الأمراء اللوثريين برفض التحالف مع أى جماعة لا توقع على كل البنود السبعة عشر[٢٠] . واتفق ميلانكتون فى الرأى مع أستاذه ، وكتب يقول لقد أبلغنا أتباع زونجلى أننا عجبنا كيف تسمح لهم ضمائرهم بأن ينادونا بأخوتهم فى الوقت الذى يتمسكون فيه بأن عقيدتنا خاطئة[٢١] . وهنا تتضح روح العصر فى جملة واحدة . وفى عام ١٥٣٢ حث لوثر الدوق البرخت البروسى على ألا يسمح لأى شخص من أتباع زونجلى بالإقامة فى أرض بلاده ، وإلا حقت عليه اللعنة الأبدية .

وكان كثيراً جداً مطالبة لوثر بأن يجتاز فى خطوة واحدة المسافة من العصور الوسطى إلى الحديثة ، فقد كان تأثره بدين القرون الوسطى عميقاً جداً ، إلى حد أنه لم يستطع أن يتحمل صابراً أى جحود لأركانه الأساسية ؛ وأحس ، كأى كاثوليكى متدين ، أن عالمه الفكرى سوف ينهار ، وأن معنى الحياة بأسره سوف يذوى ، إذا خسر أى عنصر أساسى من عناصر العقيدة التى كانت قد صاغته ، والحق أن لوثر كان أقرب المحدثين إلى القرون الوسطى .

وعاد زونجلى بعد أن حطمه هذا الفشل إلى زيورخ ، التى أصبحت تموج بالاضطراب تحت وطأة دكتاتوريته . وعم الاستياء من قوانين النفقات

الصارمة ، وعرقلت التجارة بالاختلافات الدينية بين المقاطعات ، ولم يرض الحرفيون عن صوتهم الضئيل فى الحكومة ، وفقدت عظات زونجلى المختلطة بالسياسة إلهامها وسحرها . وكان شعوره بالتغير قوياً إلى الحد الذى طلب فيه من المجلس الإذن له بالبحث عن أبرشية فى مكان آخر ، ولكنه أقنع بالبقاء .

وخصص جانباً كبيراً من وقته آنذاك للكتابة ، وأرسل عام ١٥٣٠ رسالته **ratio fidei** إلى شارل الخامس ، الذى لم يبد منه ما يدل على أنه تلقاها .

وفى عام ١٥٣١ وجه إلى فرانسس الأول رسالة عنوانها « عرض موجز وواضح للعقيدة المسيحية » ، وفى هذه الرسالة عبر عن اقتناعه ، الأرازموسى بأن أى مسيحى سوف يجد عند وصوله إلى الفردوس كثيراً من اليهود والوثنيين الأجلاء ، إنه لن يجد آدم وإبراهيم وإسحق وموسى وأشعيا فحسب . . . ولكنه سيجد أيضاً هرقل وتيزيوس وسقراط وأرستيد ونوما وكاميلوس وكاتو الكبير والصغير وسيبيو الكبير والصغير ، وقال : « وباختصار ليس هناك رجل صالح ولا عقل مقدس ولا روح مخاصة منذ بداية العالم إلى نهايته ، لن نراها هناك مع الله . ماذا يمكن أن نتصور أنه أكثر بهجة للنفس ومسرة الفؤاد وسموا بالروح من هذا المنظر »[٢٢] . وذعر لوثر لهذه الفقرة إلى حد أنه انتهى إلى أن زونجلى لا بد أن يكون « وثنياً »[٢٣] ، واتفق الأسقف بوسويه فى الرأى فى هذه المرة مع لوثر ، فاستشهد بهذه الفقرة ليثبت أن زونجلى[٢٤] كافر لا أمل فى إصلاحه .

واجتمع فى ١٥ مايو عام ١٥٣١ مجلس من زيورخ وحلفائها ، وصوت لإكراه المقاطعات الكاثوليكية على السماح بحرية الوعظ على أرضها ، وعند ما رفضت المقاطعات اقترح زونجلى إعلان الحرب عليها غير أن حلفاءه آثروا أن يفرضوا عليها حصاراً اقتصادياً ، فما كان من المقاطعات الكاثوليكية إلا أن أمسكت عن الواردات وأعلنت الحرب . وسار من جديد

جيشان متناظران ، وتقدم زونجلى مرة أخرى ، وحمل العلم ، وتقابل الجيشان مرة ثانية فى كابيل (١١ أكتوبر سنة ١٥٣١) — جيش الكاثوليك ويضم ٨٠٠٠ رجل وجيش البروتستانت ويضم ١٥٠٠ — واشتبك الجيشان فى هذه المرة ، وانتصر الكاثوليك ، وكان زونجلى البالغ من العمر سبعة وأربعين عاماً من بين ٥٠٠ رجل قتلوا من أهل زيورخ . ومزق جسده إلى أربعة أجزاء ، ثم أحرق على محرقة نصبت فوق الروث[٢٥]. وعند ما سمع لوثر بموت زونجلى هتف يقول « إن هذا حكم السماء على كافر[٢٦] وانتصار لنا »[٢٧] ويروى أنه قال : « كم أود من أعماق قلبى لو أمكن إنقاذ حياة زونجلى ولكنى أخشى أن يحدث العكس لأن المسيح قال إنه : « ملعون كل من يكفر به »[٢٨] .

وخلف هينريخ بولينجر فى زيورخ سلفه زونجلى ، أما فى بازيل فقد اضطلع أوزوالد ميكونيوس بالعبء بعد وفاة أويكو لامبيادوس ، وتجنب بولينجر الخوض فى الأمور السياسية ، وأشرف على مدارس المدينة ، وتستر على اللاجئين من البروتستانت ، ووزع أموال البر على المحتاجين ، بغض النظر عن المذهب الذى يعتنقونه ، وانضم إلى ميكونيوس وليوجود فى صياغة أول إقرار للسويسريين البروتستانت من أتباع زونجلى ، الذى ظل جيلا كاملا التعبير الرسمى عن آراء زونجلى ، واستخلص مع كالفين اتفاق تيجورينوس (١٥٤٩ **Consensus Tigurinus**) الذى حمل زيورخ والبروتستانت من أهالى جنيف على تكوين « كنيسة تؤمن بالإصلاح الدينى » .

وعلى الرغم من هذا الاتفاق الوقائى فإن الكاثوليكية استعادت فى السنين الأخيرة كثيراً من أرضها المفقودة فى سويسرة ، ويرجع جزء من ذلك إلى انتصارها فى كابيل ، وليس من شك فى أن إثبات قضايا اللاهوت أو عدم إثباتها فى التاريخ إنما يتم بالتنافس فى المذبحة أو فى إثراء الموارد . واعتنقت الكاثوليكية سبع مقاطعات — وهى لوسرن وأورى وشفيتز

وتسوج وأوفترفالدن وفريبورج وسولوثورن . وتمسكت أربع مقاطعات بالبروتستانتية نهائياً . . . وهى زيورخ وبازل وبرن وشلافهاوزن ، أما بقية المقاطعات فقد ظلت تتأرجح بين العقيدتين لا يستقر رأيها على قرار على وجه اليقين ، ووفق فالنتين تشودى ، خلف زونجلى فى جلاروس ، بين وجهتى النظر ، بأن قال بإقامة قداس فى الصباح للكاثوليك ، وإلقاء عظة حسب تعاليم الكنيسة الإنجيلية — من الكتاب المقدس لا غير — فى المساء للبروتستانت ، وناقش مبدأ التسامح المتبادل بين الطرفين ، وقوبل بالتسامح ، وكتب مدونة تاريخية ، اتسمت بعدم التحيز ، إلى حد أنه لا يستطيع امرؤ أن يجزم بالعقيدة التى كان يؤثرها ، فحتى فى ذلك العصر كان هناك مسيحيون .

الفصل التاسع عشر

لوثر وأرازموس

(١٥١٧ - ١٥٣٦)

١ ــ لوثر

بعد أن أجملنا الظروف الاقتصادية والسياسية والدينية والأخلاقية ، والفكرية ، التي شهدت مهد الإصلاح الديني ، نرى لزاماً علينا أن نعد من عجائب التاريخ في ألمانيا أن يتمكن رجل واحـــد من أن يجمع ، بلا قصد ، هذه التأثيرات في ثورة ، غيرت صورة قارة . ولسنا في حاجة إلى المبالغة في دور البطل هنا ، ذلك لأن قوى التغيير كان يمكن أن تجد تجسيماً آخر لها ، إذا استمر لوثر في خضوعه . ومع ذلك فإن منظر هذا الراهب الخشن ، وهو واقف في شك وفزع ، لا يستقر على قرار ، ضد أقوى النظم حصانة ، وأشد العادات قداسة في أوروبا ، يجعل الدم يغلي في العروق ، ويشير مرة أخرى إلى المسافة التي قطعها الإنسان وهو ينحدر من الطين أو من القرد .

ترى كيف بدا ذلك الرجل ، الذي كان صوت عصره المدوي ، كما كان قمة من قمم التاريخ الألماني ؟ لقد كان في عام ١٥٢٦ ، كما صوره لوكاس كراناخ[١] ، وهو في الثالثة والأربعين من عمره في مرحلة التحول من النحافة إلى البدانة ، صارم القسمات وإن لم يخل من لمحة مرح قوية ، وله شعر مجعد لا يزال حالك السواد ، وأنف ضخم ، وعينان سوداوان لامعتان ــ قال خصومه إن الشياطين تظهر فيهما للعيان . وكانت له سحنة صريحة

لا تخفى شيئاً جعلته لا يصلح للدبلوماسية . وثمة صورة شخصية رسمها له فيما بعد كراناخ أيضاً (١٥٣٢) ظهر فيها لوثر فى هيئة رجل بدين منبسط الأسارير ، له وجه مستدير عريض يجعل الناظر يحكم بأنه رجل يستمتع بالحياة . وتخلى عام ١٥٢٤ عن مسوح الراهب ، واتخذ لباس واحد من عامة الناس ، فكان يرتدى ثوب المدرس حيناً ، ويلبس سترة وسراويل عادية حيناً آخر ، ولم يتعفف عن رتق هذه الثياب بنفسه . وقد شكت زوجته مرة من أن هذا الرجل العظيم اقتطع رقعة من سراويل ولده ، ليصلح بها من شأن سراويله .

ولقد انزلق إلى الزواج بطريق السهو ، واتفق فى الرأى مع القديس بولس بأنه خير للمرء أن يتزوج ولا يحرق ، وصرح بأن الجنس أمر فطرى وضرورى كالطعام[٢] ، واحتفظ بالفكرة السائدة فى القرون الوسطى ، والتى تذهب إلى أن الجماع أمر آثم ، حتى فى الزواج ، ولكن «الله يستر الخطيئة»[٣] ، وندد بالعذرة باعتبارها انتهاكاً لسنة الله التى تقضى بالتناسل والتكاثر . وإذا «لم يستطع واعظ بالإنجيل أن يعيش محتفظاً بعفته دون أن يتزوج ، فلنسمح له باتخاذ زوجة ، لأن الله خلقها بلسماً لذلك الجرح »[٤] . وكان يعد طريقة البشر فى التناسل منافية للعقل بعض الشىء ، على الأقل عند تأمل الماضى ، ورأى أنه « لو استشارنى الله فى الأمر لأشرت عليه بأن يستمر فى خلق جيل من البشر بتشكيلهم من الطين مباشرة كما خلق آدم »[٥] . وكان مفهومه عن المرأة تقليدياً وألمانيا ، فالله قد خلقها للحمل والطهى والصلاة لا لأى شىء آخر ، وهو القائل « انتزع النساء من تدبير شئون المنزل ، تجدهن لا يصلحن لشىء »[٦] . و « إذا أنهك الحمل النساء ، ولقين حتفهن ، فليس فى هذا ضرر ، دعهن يلاقين حتفهن ما دمن يحملن ، فقد خلقن لهذا »[٧] . ويجب على المرأة أن تمنح زوجها الحب ، وأن تحافظ على شرفه ، ولا تعصى له أمراً ، وعليه أن يحكمها ، ولكن برفق ، ويجب عليها أن تلزم

مجالها وهو البيت ، ولكنها تستطيع هناك أن تفعل بالأطفال ببنانها أكثر مما يستطيع الرجل أن يفعل بقبضتيه[٨] . وبين الرجل والزوجة يجب ألا يكون هناك ملكي وملكك ، وذلك لأن كل الممتلكات يجب أن تكون بينهما على المشاع[٩] .

وكان لوثر يكنّ كراهية الذكر العادية للمرأة المتعلمة ، وقال عن زوجته « بودى أن تتلو النساء صلاة الرب قبل أن ينبسن بشفة »[١٠] ، ولكنه ازدرى الكتاب الذين ألفوا مقالات فى هجو النساء ، وقال : « مهما يكن فى النساء من عيوب فإننا يجب أن نردعهن فى الخلوة برفق . . . لأن المرأة قارورة هشة »[١١] . وعلى الرغم من صراحته الفظة فى أمور الجنس والزواج ، فإنه لم يكن يخلو من الإحساس بالاعتبارات الجمالية ، ويقول : « الشعر أجمل زينة للمرأة . وقد اعتادت العذارى قديماً أن يرسلن شعورهن ، إلا إذا كن يرتدين ثياب الحداد ، وأنا أحب أن ترسل النساء شعورهن حتى يسقط على ظهورهن ، فهو منظر من أروع المناظر وألطفها »[١٢] . (وكان هذا حرياً بأن يجعله أكثر ليناً مع البابا اسكندر السادس الذى عشق شعر جوليافارنيزى المرسل) .

ويبدو أن لوثر لم يتزوج لإشباع حاجة من حاجات الجسد . وقال فى نوبة من المرح ، إنه قد تزوج لإرضاء والده ، وعلى الرغم من أنف الشيطان والبابا ، ولكنه استغرق وقتاً طويلا لكى يستقر على رأى فى هذا الموضوع ، ثم حسم الأمر له . وعند ما تركت بعض الراهبات ديرهن بناء على توصية منه ، أخذ على عاتقه أن يجد لهن أزواجاً . ولم يبق فى آخر الأمر منهن واحدة لم تتزوج ، إلا كاترين فون بورا ، وهى امرأة كريمة المحتد على خلق قويم ، ولكنها لم تخلق لتثير عاطفة متعجلة ، وكانت قد وضعت أنظارها على طالب شاب من فيتنبرج ، ينحدر من سلالة نبيلة ، وفشلت فى أن توقعه فى حبائلها ، وعملت مربية لكى تكسب ما يسد رمقها . واقترح عليها

لوثر أن تتزوج من الدكتور جلاتز ، فردت عليه بأنها لا تقبل هذا الدكتور ، ولكن ليس لديها مانع من الزواج من هرامسدورف أو الدكتور لوثر . وكان لوثر فى الثانية والأربعين من عمره وقتذاك ، بينما كانت كاترين فى السادسة والعشرين ، ورأى أن التفاوت فى السن يحرم عليه هذا الزواج ، غير أن أباه حثه على أن يحافظ على اسم الأسرة . وهكذا تزوج الراهب السابق فى ٢٧ يونية سنة ١٥٢٥ من الراهبة السابقة .

ومنحهما الأمير المختار الدير الأوغسطيني الكبير [illegible] مقراً لهما ، ورفع مرتب لوثر إلى ٣٠٠ جيلد (٧,٥٠٠ دولار) فى العام ، ثم زيد هذا المرتب فيما بعد إلى ٤٠٠ ، ثم إلى ٥٠٠ . واشترى لوثر مزرعة أدارتها كاتى ؛ وأحبها وأنجبت له ستة أطفال ، وتعهدتهم بالرعاية فى إخلاص ، ولبت كل احتياجات مارتن المنزلية من معصرة للخمر بالبيت ، وبركة للسمك ، وحديقة للخضر ، وربت له الدواجن والخنازير . وقد أطلق عليها اسم « سيدى كاتى » وأشار بهذا إلى أن فى وسعها أن تضعه فى موضعه إذا ما نسى خضوع الرجل بيولوجيا للمرأة ، ومع ذلك فقد كان عليها أن تتحمل الكثير من ثوراته العاصفة بين آن وآخر ، وثقته التى تصل إلى حد عدم التبصر ، وذلك لأنه كان لا يعبأ قط بالمال ، وكان كريماً إلى حد التهور ، ولم يتسلم من كتبه حقوق التأليف ، على الرغم من أنها عادت بثروة طائلة على ناشريها ، وتميط رسائله إلى كاترين أو عنها اللثام عن حبه المتزايد لها ، وعن زواج موفق بصفة عامة . ولقد ردد بطريقته الخاصة ما قيل له فى شبابه « إن أعظم نعمة يمنحها الله للانسان زوجة تقية رقيقة ، تخشى الله وتحب البيت »(١٣) .

وكان أباً صالحاً يعرف بالفطرة كيف يمزج على أحسن وجه بين التأديب والحب . ويقول : « عاقب إذا لم يكن هناك بد من ذلك ولكن قدم قطعة الحلوى (بونبون) مع العصا »(١٤) . وألف أغنيات لأطفاله ، وغناها معهم ، وهو يعزف على العود ؛ وتعد خطاباته إلى أطفاله من درر الأدب الألمانى .

وإذا كان قد استطاع بقوة شكيمته أن يواجه إمبراطوراً فى الحرب ، فإن شجاعته قد انهارت بموت ابنته الأثيرة ماجدالينا ، وهى فى الرابعة عشرة من عمرها ، وقال : « إن الرب لم يهب أسقفاً نعمة كبرى فى ألف عام كما وهبها لى ممثلة فيها »[١٥] . وكان يتلو الصلوات ليلا ونهاراً ، طالباً لها من الله الشفاء ، وقال : « رباه إنى أحبها كثيراً ، ولكن إذا شاءت إرادتك تعالى أن تأخذها ، فإنى أتخلى عنها لكم عن طيب خاطر »[١٦] . وقال لها : « ابنتى الصغيرة العزيزة لينا ، إنك تحبين أن تظلى هنا مع أبيك . أتريدين أن تذهبى إلى ذلك الأب الآخر ؟ » . فأجابت لينا : « نعم يا أبتاه كما يشاء الله » . وعند ما قضت نحبها بكاها طويلا بكاء مريراً ، وبينما كانت توسد فى الثرى ، خاطبها قائلا كما لو كانت حية ترزق : « أنت تحبين وسوف تنهضين وتشرقين كالنجوم والشمس . إنه لأمر غريب أن يعرف الإنسان أنها ترقد فى سلام ، وأن كل شىء على ما يرام ، ومع ذلك يشعر بالأسى والحزن »[١٧] .

ولم يقنع بستة أطفال فآوى فى بيتـــه كثير الغرف بالدير أحد عشر يتيماً من أولاد أخيه وأخته ، ورباهم ، وكثيراً ما جلس معهم إلى المائدة ، وتجاذب معهم أطراف الحديث فى غير ملل ، وحزنت كاترين لاحتكارهم إياه . وأبدى بعضهم ملاحظات جريئة على حديثه معهم حول المائدة . وليس من شك فى أن حصيلة ٦٥٩٦ تدوين لأحاديثه تضارع أحاديث جونسون لبوزويل ، وأحاديث نابليون المدونة ، فى الوزن والذكاء اللماح والحكمة .

ويجب علينا عند الحكم على لوثر ، أن نتذكر أنه لم يعد سلفاً أحاديث المائدة هذه ، وقل بين الرجال من تعرض تماماً إلى استراق السمع من البشر ، فهنا لا فى المجادلات التى كانت فى ميدان المعركة اللاهوتية ، نجد لوثر فى بيته على سجيته . وندرك ، أولا وقبل كل شىء ، أنه كان إنساناً لا مجرد

دواة ، وأنه عاش حياته وكتب عنها . ولا يمكن شخص صحيح الجسم أن ينفس على لوثر تلذذه بأطايب الطعام وشراب الجعة ، أو استمتاعه المثمر بكل المباهج ، التى استطاعت كاترين بورا أن توفرها له . ولعله كان حرياً به أن يكون ، بدافع الحرص ، أكثر تحفظاً فى هذه الأمور ، ولكن التحفظ جاء مع المتطهرين ، ولم يعرفه الإيطاليون فى عصر النهضة ، ولا الألمان فى عهد الإصلاح الدينى ، بل إننا نجد أن أرازموس الرقيق يصدمنا بحديثه الفسيولوجى الصادق . كان لوثر يأكل بإفراط ، ولكنه استطاع ردع نفسه بالصوم الطويل ، وكان يفرط فى الشراب ، ولكنه كان يبدى الأسف ، ويعد الشرب رذيلة قومية ، ومع ذلك فإن الجعة كانت ماء الحياة بالنسبة للألمان ، كالنبيذ بالنسبة للإيطاليين والفرنسيين ، وكان يمكن أن يكون الماء سما زعافاً فى تلك الأيام الخوالى ، ومع ذلك فإننا لم نسمع قط عن إفراطه فى السكر حتى يفقد صوابه ، وقال : « إذا كان الله يغفر لى أنى صلبته بالقداسات عشرين عاماً مضت ، فإنه يستطيع أن يتحملنى لأنى أتناول شراباً طيب المذاق ، من آن لآخر ، لكى أكرمه »[١٨] .

وبدت أخطاؤه واضحة للعين والأذن ، فقد كان الفخر يشيع وسط تعبيراته الدائمة عن التواضع ، وكان عقيدياً ضد العقيدة ، مفرطاً فى الحماسة لا يبدى أية مجاملة لخصومه ، ويتشبث بالخرافات ، فى الوقت الذى يسخر فيه من الخرافة ، ويندد بالتعصب ويمارسه فى الوقت نفسه — وهكذا لم يكن قدوة للصلابة أو مثلا أعلى للفضيلة ، ولكنه رجل جمع متناقضات الحياة ، وإنسان مزقه بارود الحرب ، وقد اعترف قائلا « لم أكن أتوانى عن الانقضاض على خصومى بلسان حاد ، ولكن ما فائدة الملح إذا لم يكن لاذع الطعم ؟ »[١٩] وتحدث عن المراسيم البابوية ، فوصفها بأنها قذارة وروث[٢٠] ، وقال عن البابا إنه : « بذرة الشيطان » أو الملازم ، ووصفه بأنه خصم للمسيحية ، أما الأساقفة فقد نعتهم بأنهم « ديدان » وهراطقة كفرة « وقردة جهلة » . وتحدث عن الرسامة الكهنوتية فقال إنها بمثابة دمغ إنسان « بشارة

البهيم فى سفر الرؤيا » ، وقال عن الرهبان إنهم أسوأ من الجلادين أو السفاحين أو على أحسن الفروض « براغيث فوق فراء الرب القادر »[٢١] . ولنا أن نتصور إلى أى حد كان المستمعون إليه يجدون متعة فى هذا العبث . وقد قال : « إن الجزء الوحيد من جسم الإنسان الذى اضطر البابا إلى إعفائه من رقابته هو العَجُز ! »[٢٢] وكتب يصور رجال الدين الكاثوليك بقوله : « إن نهر الراين لا يكاد يتسع لكى يغرق فيه كل عصبة المغتصبين الرومانيين الملاعين . . . من كرادلة ومطارنة وأساقفة ورهبان »[٢٣] أو إذا نقص الماء « لعل الله يرضى بأن يرسل عليهم صيّباً من النار والكبريت كالذى قضى على سودوم وعمورة »[٢٤] ، وهذا يذكر الإنسان بالتعليق الذى صدر من الإمبراطور جوليان : « ليس هناك حيوان مفترس أشد ضراوة من عالم لاهوت غاضب »[٢٥] . ولكن لوثر عجب مثل كلايف لاعتداله ، وقال : « يعتقد الكثيرون أنى شديد الشراسة ضد البابوية ، ولكنى على النقيض من ذلك أشكو من أننى ، للأسف لين العريكة إلى حد كبير . وكم أود أن أنفث صاعقة ضد البابا والبابوية ، وأن تكون كل ريح صاعقة[٢٦] : ولسوف ألعن وأنتهر الأفاقين حتى أثوى فى لحدى ، ولن ينالوا منى كلمة مهذبة . . . لأنى لا أستطيع أن أصلى دون أن أصب اللعنات فى الوقت نفسه . وإذا كنت مدفوعاً إلى أن أهتف « تبارك اسمك » فإننى يجب أن أضيف أن « اسم البابوية ملعون رجيم مغضوب عليه » . وإذا كان ثمة ما يدفعنى إلى أن أهتف « لتأت مملكتك » فإنى مضطر إلى أن أضيف « البابوية ملعونة ، رجيمة ، هالكة لا محالة . والحق أنى أتلو صلواتى سنوياً على هذا النحو كل يوم وسراً فى قلبى دون توقف[٢٧] ، وإنى لا أعمل أبداً على خير وجه إلا عند ما أستلهم الغضب ، ذلك أنى أستطيع ، عند ما أكون غاضباً ، أن أكتب ، وأن أصلى ، وأن أعظ على خير وجه ، لأن مزاجى بأسره يستثار ، وإدراكى يزداد حدة »[٢٨] ، ومثل هذه العاطفة البلاغية كانت تتفق مع روح العصر . ويعترف الكاردينال جاسكيه العلامة قائلا : إن بعض الوعاظ وكتاب الرسالات من طائفة المحافظين كانوا

يضارعون لوثر فى هذه الناحية »[٢٩] . وكان الطعن متوقعاً من المتصارعين فى مجال الفكر ، ويستطيبه المستمعون ، وكان الشك يخامر الناس فى أن الأخلاق المهذبة دليل على الجبن . وعندما وجهت زوجة لوثر اللوم إليه بقولها : « أنت فظ للغاية يا زوجى العزيز » — رد عليها مجيباً : « إن الغصن يمكن قطعه بسكين الخبز أما شجرة البلوط فتستلزم الفأس »[٣٠] وإن جواباً ليناً يمكن أن يطفىء سورة الغضب ، ولكنه لا يستطيع أن يقلب البابوية رأساً على عقب ، وحرى بأى إنسان هذب حاشيته الكلام الدمث ، أن يتنكب معركة مميتة مثل هذه . وقد اقتضى الأمر جلداً صفيقاً — أغلظ من جلد أرازموس — لنبذ الأوامر البابوية والحرمان من غفران الكنيسة وأوامر التحريم الإمبراطورية .

واقتضى الأمر أيضاً إرادة قوية ، وهذه كانت صخرة القاع بالنسبة إلى لوثر ، ومن هنا كانت ثقته بنفسه وعقيدته وشجاعته وتعصبه . ومع ذلك فإنه كان لا يخلو من بعض الفضائل الرقيقة ، فنى أواسط عمره كان مثلا أعلى فى الروح الاجتماعية والمرح ، ودعامة قوية لكل من هم فى حاجة إلى العزاء أو العون . ولم يشمخ بأنفه أو يتأنق فى ملبسه ، ولم ينس قط أن أباه كان فلاحاً ، واستهجن نشر مجموعة أعماله ، وطلب من قرائه أن يدرسوا الكتاب المقدس بدلا منها ، واعترض على إطلاق اسم « لوثرية » على الكنائس التى كانت تتبع زعامته . وعنـــد ما كان يعظ كان يحدث سامعيه باللغة التى يفهمونها . وكان المداعبته مسحة ريفية إذ كانت خشنة مرحة متحللة من كل القيود ، مثل دعابات « رابيليه » ، وقال شاكياً : « إن أعدائى يفحصون عن كثب كل ما أفعل ، فإذا ضرطت فى فيتنبرج فإنهم يشمون ريح الضرطة فى روما »[٣١] . وقال : « ترتدى النساء النقاب بسبب الملائكة ، أما أنا فأرتدى السراويل بسبب البنات »[٣٢] . وليس من شك فى أن الكثيرين منا قد أطلقوا مثل هذه الدعابات الساخرة ، ولكنهم

لم يجدوا مثل هؤلاء الرواة القساة . والرجل الذى تفوه بمثل هذه الدعابات كان يحب الموسيقى وهى هذا الجانب من عبادة الأوثان ؛ وهو نفسه الذى ألف لهم أناشيد رقيقة أو عاصفة ، وأسلمها — وفى هذا تحامل لاهوتى كان راكداً لحظة من الزمن — إلى أناشيد متعددة الأصوات ، استخدمت من قبل فى الكنيسة الرومانية ، وقال : « لن أتخلى عن موهبتى الموسيقية المتواضعة مقابل أى شىء مهما كان عظيماً . . . وأنا أرى أنه . . . ليس هناك فن بعد اللاهوت يمكن أن يضارع الموسيقى ، لأنها وحدها بعد اللاهوت تمنحنا . . . راحة القلب ومسرة الفؤاد »[٣٣] .

وأدى به لاهوته إلى أخلاقيات تؤمن باللين ، لأنه علمه أن الأعمال الصالحة لا تكسب صاحبها الخلاص إذا لم تقــترن بالإيمان بافتداء المسيح للناس ، كما أن الخطيئة لا يمكن أن تضيع الخلاص ، إذا بقى مثل هذا الإيمان . وكان يرى أن خطيئة ترتكب بين آن وآخر ، قد تشجعنا على اجتياز الصراط المستقيم . وعندما سئم رؤية جسد ميلانكتون وهو يذوى من أثر الوساوس الكئيبة حول زلات صغيرة تتعارض مع القداسة ، قال له مداعباً فى مرح أصيل : « أكثر من الخطايا ، فالله لا يغفر إلا لرجل غارق فى الخطايا إلى أذنيه» ، ولكنه يسخر من المفتى المصاب بفقر الدم[٣٤] ومع ذلك فإن من السخف أن نصدر حكماً على لوثر بالإدانة على أساس هذا المزاح العارض . وثمة أمر واضح فى جلاء وهو أن لوثر لم يكن متطهراً وهو يقول : « إن مشيئة الله الحبيب هى أن نأكل ونشرب ونمرح »[٣٥] . ويقول : « إنى أنشد المتعة وأتقبلها حيثما أجدها ونحن نعلم الآن ، ولله الحمد ، أننا نستطيع أن نكون سعداء وضمائرنا مرتاحة »[٣٦] . ونصح أتباعه بأن يحتفلوا ويرقصوا يوم الأحد . وأقر ألعاب التسلية ولعب الشطرنج ، ووصف اللهو بورق اللعب ، بأنه تحويل لا ضرر منه للعقول[٣٧] ، التى لم تنضج بعد ، وقال كلمة حكيمة عن الرقص : « إن الرقصات أعدت لكى تعلم الدماثة بين

الصحبة ، وتعقد الصداقة والتعارف بين الشبان والفتيات ، وهنا يمكن ملاحظة صلاتهم ، وترتيب لقاء شريف عابر بينهم ، وأنا نفسى لا مانع عندى من حضورى معهم فى بعض الأحايين ، ولكن الشباب سيكون أقل إمعاناً فى الرقص لو أننى فعلت »[٣٨] . وأراد بعض الوعاظ البروتستانت تحريم اللهو ، ولكن لوثر كان أكثر تسامحاً وقال : « يجب على المسيحيين ألا يعرضوا عن اللهو ، لأن فيه أحياناً فظاظة وفحشاً ، فما أحراهم ، من أجل هذه الأسباب نفسها ، أن يتخلوا أيضاً عن الكتاب المقدس »[٣٩] .

فاذا نظرنا لكل هذه الاعتبارات ، فإن مفهوم لوثر عن الحياة كان صحياً باعثاً على المرح ، إلى درجة ملحوظة لإنسان كان يعتقد أن « كل النوازع القذرة ليست بعيدة عن الرب أو ضده »[٤٠] ، « وأن كل تسعة أرواح من عشرة قدر عليها الله أن تخلد فى الجحيم »[٤١] . والحق أن الرجل كان خيراً من لاهوته إلى حد كبير .

وكان عقله قوياً ، وإن غامت عليه إلى حد بعيد روائح عفن شبابه ، وصبغته الحرب باللون الأحمر ، فحالت بينه وبين التفكير فى فلسفة عقلانية . وكان يعتقد ، مثل معاصريه ، فى الغيلان والساحرات والشياطين ، وقدرة الضفادع[٤٢] البرية الحية على الشفاء ، والكوابيس الخبيثة ، التى تبحث عن العذارى فى حماماتهن أو فى مخادعهن ، وتفزعهن ويدفعن بهن إلى الأمومة[٤٣] . وسخر من التنجيم ، واستخدم مع ذلك فى حديثه اصطلاحاته أحياناً ، وامتدح الرياضيات ، من حيث أنها « تعتمد على الأدلة والبراهين الثابتة »[٤٤] ، « وأعجب بما توصل إليه الفلك فى جرأة فى مجال النجوم ، ولكنه ، شأنه فى هذا شأن جميع معاصريه ، رفض النظام الكوبرنيقى فى الفلك ، باعتباره مناقضاً للكتاب المقدس ، وأصر على أن العقـــل يجب أن يلزم الحدود التى وضعتها له العقيـــدة الدينية .

وليس من شك فى أنه كان محقاً فى حكمه الذى يذهب إلى أن الشعور ،

وليس الفكر ، هو عصا الميزان بالنسبة للتاريخ ، فالناس الذين يصوغون الأديان يحركون العالم ، أما الفلاسفة فإنهم ، جيلا بعد جيل ، يغلفون بعبارات جديدة الجهل الفائق للجزء ينصب نفسه حبراً على الكل . وعلى هذا فإن لوثر كان يصلى ، بينما كان أرازموس يفكر تفكيراً منطقياً . وبينما كان أرازاموس يتملق الأمراء ، كان لوثر يخاطب الرب — وقتذاك فى كبرياء امرئ ، خاض بعزم ، معارك فى سبيل الرب ، فأصبح له الحق فى أن يسمع وقتذاك كطفل ضل فى فضاء لا نهاية له ، وكان واثقاً أن الرب يقف فى جانبه ، فواجه عقبات يصعب التغلب عليها وانتصر . وقال : « إنى أحتمل حقد العالم بأسره ، ومقت الإمبراطور والبابا وكل بطانتهم . حسن ، باسم الرب إلى الأمام ! »(٤٥) وكان لديه من الشجاعة ما يكفى لأن يتحدى أعداءه ، فلم يكن يدور بخلده ما يدفعه للشك فى صدقه . كان يعتقد أن عليه أن يفعل ما ينبغى عليه أن يفعل .

٢ — الهراطقة المتعصبون

من المفيد ملاحظة كيف انتقل لوثر من التسامح إلى العقيدة بازدياد قوته ويقينه . ومن بين « الأخطاء » ، التى اتهم بها البابا ليو العاشر فى منشوره Exsurge Domine لوثر ، أنه قال : « إن حرق الهراطقة مخالف لإرادة الروح القدس » وفى خطاب مفتوح إلى طبقة النبلاء المسيحيين (١٥٢٠) نصب لوثر « كل رجل قساً » ، وأعطاه الحق فى أن يفسر الكتاب المقدس ، وفق حكمه الخاص ، وفى ضوء فهمه الشخصى(٤٦) ، وأضاف قائلا : « يجب أن نقهر الهراطقة بالكتب لا بالإحراق »(٤٧) وفى مقال له بعنوان عن السلطة الزمنية (١٥٢٢) كتب يقول : —

إن الله هو المتصرف فى الروح ولن يسمح لأحد سواه أن يسيطر عليها . ونحن نود أن نجعل هذا واضحاً جلياً ، بحيث يفهمه كل إنسان ، ولكى يرى نبلاؤنا وأمراؤنا وأساقفتنا إلى أى حد تبلغ حماقتهم ، عندما ينشدون

إكراه الناس . . . على الإيمان بشيء أو بآخر . . . لأن الإيمان أو الكفر مسألة ترجع إلى ضمير كل إنسان . . . إن السلطة الزمنية يجب أن تقنع بالالتفات إلى شئونها الخاصة ، وأن تسمح للناس بأن يؤمنوا بشيء أو بآخر حسبما يستطيعون ، وكما يشاءون ، وألا تكره أحداً على شيء بالقوة ، لأن الإيمان عمل يتم بحرية ولا يكره عليه أحد . . . والإيمان والهرطقة لا يشتدان إلا عند ما يعارضهما الناس بالقوة الغشوم ، بلا سند من كلمة الله[٤٨] .

وفي خطاب بعث به لوثر إلى الأمير المختار فردريك (٢١ أبريل سنة ١٥٢٤) طلب منه التسامح مع منتسر وآخر من أعدائه . وقال له : « يجب ألا تمنعهما من الكلام . يجب أن تكون هناك طوائف ويجب أن تتعرض كلمة الله لمعركة . . . دعنا نترك بين يديه تعالى الصراع ، ونطلق الحرية لصدام العقول » . وبينما كان الآخرون يدافعون . وفي عام ١٥٢٨ عند ما كان الآخرون يدافعون عن عقوبة الإعدام للامعمدانيين أشار بأنه ما لم يثبت عليهم الشغب فإنه يجب أن يكتفى بنفيهم[٤٩] .

وعلاوة على هذا فإنه أوصى فى عام ١٥٣٠ بأن تخفف العقوبة على جريمة الكفر من الإعدام إلى النفى . حقاً أنه تحدث فى هذه السنوات الحرة كما لو كان يتمنى من أتباعه ومن الله أن يغرقوا البابويين جميعاً ، أو يتخلصوا منهم . بيد أن هذا كان مجرد « حملة خطابية » ، لم يكن يقصدها بصفة جدية . ولقد كتب فى يناير عام ١٥٢١ : « لست أريد أن يدافع أحد عن الإنجيل بالعنف أو القتل » ، وفى شهر يونية من ذلك العام وجه اللوم للطلبة فى أرفورت ، لأنهم هاجموا القساوسة ، ومهما يكن من أمر فإنه لم يعارض فى « تخويفهم » قليلا لتحسين لاهوتهم[٥٠] . وفى مايو عام ١٥٢٩ أدان خططاً ، أعدت لتحويل الأبرشيات الكاثوليكية عنوة إلى البروتستانتية ، وفى أواخر عام ١٥٣١ أخذ يلقن الناس « نحن لا نستطيع ولا يجب أن نكره أى إنسان على اعتناق العقيدة »[٥١] .

ولكن من الصعب على رجل يمتاز بخلق متين وإيجابى مثل لوثر أن يدافع عن التسامح ، بعد أن أصبح مركزه آمناً إلى حد ما . فرجل مثله ، على يقين من أنه يحمل كلمة الله ، لم يكن بوسعه أن يتسامح فيما يتناقض معها . وكان التحول إلى التعصب أسهل فيما يختص باليهود . فحتى عام ١٥٣٧ كان لوثر يرى ، أن من الواجب أن يغتفر لهم احتفاظهم بعقيدتهم الخاصة ، « ما دام الأغنياء من بابواتنا وأساقفتنا والسوفسطائيين من فلاسفتنا ورهباننا ، هؤلاء الأجلاف الحمقى ، تعاملوا مع اليهود ، بأسلوب يدفع أى مسيحى إلى أن يفضل أن يكون يهودياً . والحق أنى لو كنت يهوديا ، ورأيت مثل هؤلاء المعتوهين والحمقى يشرحون معنى المسيحية ، لآثرت أن أكون خنزيراً لا مسيحياً . . . وأنا أود أن أنصح كل امرئ ، وأرجوه أن يعامل اليهود برفق ، وأن يفقههم الكتاب المقدس ، وبوسعى أن أتوقع فى هذه الحالة أن يجيئوا إلينا زرافات ووحدانا »(٥٢) . ولعل لوثر قد أدرك أن البروتستانتية كانت فى بعض مظاهرها عودة إلى الدين اليهودى ، وذلك فى رفضها للرهبانية والعزوبة المفروضة ، على رجال الكهنوت ، وتشديدها على العهد القديم والأنبياء والمزامير ، وتبنيها (باستثناء لوثر نفسه) لأخلاقيات جنسية أشـــد صرامة مما تتطلبه الكاثوليكية . وقد خاب أمله عند ما لم يقم اليهود بحركة مماثلة نحو البروتستانتية ، وساعده عداؤه لتقاضى فائدة على أن ينقلب ضد مقرضى الأموال من اليهود ، ثم ضد اليهود بصفة عامة ، وعند ما نفى جون الأمير المختار اليهود من ساكسونيا (١٥٣٧) ، رفض لوثر التماساً يهودياً للتوسط فى الأمر . وفى كتابه حديث المائدة جمع بين « اليهود والبابويين » ووصفهم بأنهم تعساء كفرة . . . « وأن الطائفتين جوربان صنعا من قطعة قماش واحدة »(٥٣) . واشتغرق فى سنواته الأخيرة فى نوبة غضب جامح ضد السامية ، وندد باليهود ، ووصفهم بأنهم « أمة من أناس غلاظ كفرة متكبرين خبثاء ممقوتين » وطالب بإشعال النار فى مدارسهم وهياكلهم حتى تتقوض دعائمها ، وقال : —

ودعوا كل من يستطيع أن يلقى عليهم كبريتاً وزفتاً ، وإذا كان فى وسع أحد أن يقذفهم بوابل من نار جهنم ، فإنه يحسن صنعاً لو فعل هذا . . . وهذا ما يجب عمله كرامة لربنا وللمسيحية ، حتى يرى الله أننا مسيحيون حقاً . ولتحطم بيوتهم وتدمر أيضاً . . . ولتنتزع منهم كتب صلواتهم وتلمودهم وكتابهم المقدس بأسره أيضاً ، وليحرم على حاخاماتهم أن يلقنوا الناس تعاليمهم بعد ذلك من الآن فصاعداً ، وإلا عوقبوا بالإعدام ، ولتغلق فى وجوههم الشوارع والطرق العامة ، وليحرم عليهم الاشتغال بالربا ، ولتؤخذ منهم كل أموالهم وكل ما يكنزون من الذهب والفضة ، ولتوضع فى الحفظ والصون . وإذا لم يكف هذا كله فليطردوا من البلاد كما لو كانوا كلاباً مسعورة(٥٤) .

ولم يحدث قط أن غلبت الشيخوخة على لوثر ، ففى عام ١٥٢٢ كان لا يزال متحدياً للباباوات وكتب يقول : « إنى لا أقبل أن يحكم على عقيدتى أحد حتى لو كان من الملائكة ، وكل من لا يتلقى عقيدتى بالقبول لن يستطيع الخلاص »(٥٥) . وما أن حل عام ١٥٢٩ حتى استخلص فروقاً دقيقة بين العقيدتين ، وقال : —

« لا يجوز إكراه إنسان على اعتناق عقيدة ، ولكن ليس لأحد أن يلحق بها ضرراً . فليقدم خصومنا ما لديهم من اعتراضات ، وليستمعوا إلى ردودنا ، فإذا ما اهتدوا فبها ونعمت ، وإذا لم يفعلوا فليمسكوا ألسنتهم ويؤمنوا بما يشاءون . . . ولكى نتجنب المتاعب يجب ، إذا أمكن ، ألا نعانى من التعاليم المتناقضة فى نفس الولاية ، ويجب أن يكره الجميع بما فيهم الكفار على الامتثال للوصايا العشر وحضور الصلاة فى الكنيسة ، والتلاؤم معها فى ظاهر السلوك(٥٦) .

وهكذا اتفق لوثر وقتذاك مع الكنيسة الكاثوليكية فى أن المسيحيين فى حاجة إلى يقين ثابت ومذاهب محددة ، وإلى كلمة الله الحقة ، التى

يستطيعون أن يحيوا بها ويموتوا عليها ، ولما كانت الكنيسة فى القرون الأولى من المسيحية قد انقسمت وضعفت بكثرة الطوائف الجامحة ، فقد أحست بأنها مضطرة إلى تحديد عقيدتها ، وإقصاء كل المخالفين لها ، ولهذا فإن لوثر ، وقد راعه وقتذاك تنوع الطوائف المتنازعة ، التى نبتت من بذرة الحكم الخاص ، انتقل خطوة من التسامح إلى التعصب المذهبى ، وقال شاكياً : —

« إن كل الناس الآن يتأهبون لانتقاد الإنجيل ، فكل أحمق مأفون تقريباً أو كل سوفسطائى مهرف ، يجب أن يكون ، حقاً ، دكتوراً فى اللاهوت » . وآلمه ما وجهه إليه الكاثوليك من نقد جارح بأنه أطلق عقال فوضى ، لا تجد من يكبح جماحها ، فى العقائد والأخلاقيات ، وانتهى فى الرأى مع الكنيسة إلى أن النظام الاجتماعى فى حاجة إلى شىء من حسم المناقشة ، وشىء من السلطة المنظمة ، ليخدمها باعتبارها مرساة للعقيدة » فكيف يجب أن تكون هذه السلطة ؟ على هذا السؤال أجابت الكنيسة بأن هذه السلطة هى الكنيسة نفسها لأن الكائن الحى وحده هو القادر على تعديل نفسه وكتبه المقدسة إلى صورة مغايرة لا مفر منها ، وقال لوثر : « لا ، إن السلطة الوحيدة والأخيرة يجب أن تكون الكتاب المقدس ، ما دام الجميع يسلمون بأنه كلمة الله .

وفى الإصحاح الثالث عشر من سفر التثنية من هذا الكتاب المنزه عن الخطأ وجد أمراً صريحاً يزعمون أنه صدر من فم الرب ، وهو يقضى بإعدام الهراطقة : « إياك أن تشفق عينك عليه وإياك أن تخفيه » . حتى لو كان « أخاك أو ابنك أو زوجتك فى حضنك . . . ولكنك يجب أن تقتـلـه لا محالة ، ويجب أن تكون يدك هى أول يد تنفذ فيه حكم الإعدام » . وعلى أساس تلك الرخصة الرهيبة ، تصرفت الكنيسة فى إبادة طائفة الإلبيجنس فى القرن الثالث عشر ، وكانت تلك اللعنة الإلهية بمثابة شهادة معتمدة لما

قامت به محاكم التفتيش من إحراق . وعلى الرغم مما اتسم به حديث لوثر من عنف ، فإنه لم يصل قط إلى درجة القسوة التى عاملت بها الكنيسة من يخالفونها فى الرأى ، ولكنه سار قدماً فى نطاق وحدود سلطته ، لإقحامها سلمياً بقدر ما استطاع . وفى عام ١٥٢٥ استعان بلوائح موجودة خاصة بالرقابة فى ساكسونيا وبراندنبرج لسحق « العقائد الخبيثة » التى يعتنقها اللامعمدانيون وأنصار زونجلى ، وفى عام ١٥٣٠ نصح ، فى تفسيره للمزمور الثانى والثمانين ، الحكومات بإعدام كل الهراطقة ، الذين ينادون فى عظاتهم بإثارة الشغب ، أو مناهضة الملكية الخاصة ، وقال : « إن هؤلاء الذين يعارضون فى تعاليم مادة واضحة فى العقيدة . . . مثل المواد التى يحفظها الأطفال عن العقيدة ، كالمادة التى تقول « إذا نادى أى واحد فى تعاليمه بأن المسيح ليس إلهاً بل مجرد إنسان »[٦٠] . ورأى سباستيان فرانك أن هناك حرية فى التعبير عن الرأى والعقيدة بين الأتراك أكثر مما يوجد فى الولايات اللوثرية ، وانضم ليوجد من أنصار زونجلى إلى كارلشتادت فى وصف لوثر بأنه بابا آخر . ومهما يكن من أمر فإننا يجب أن نلاحظ أن لوثر عاد إلى سابق شعوره بالتسامح فى أخريات أيام حياته . ولقد نصح فى آخر عظة له بالتخلى عن كل المحاولات للقضاء على الهرطقة عنوة ، وقال : يجب تحمل الكثالكة واللامعمدانيين فى صبر حتى يوم القيامة ، عند ما يتولى أمرهم المسيح »[٦١] .

وقد ضارع مصلحون دينيون آخرون لوثراً ، وفاقوه فى مطاردة الهراطقة فقد حث بوسر الستراسبورجى السلطات المدنية فى الولايات البروتستانتية على إبادة كل من يعتنق ديناً « زائفاً » ، وقال : إن مثل هؤلاء الناس أسوأ من القتلة ، وأنه يجب القضاء حتى على زوجاتهم وأولادهم وماشيتهم[٦٢] ، وقبل ميلانكتون ، الرقيق الحاشية نسبياً ، أن يرأس التفتيش العلمانى الذى قمع حركة اللامعمدانيين فى ألمانيا بالسجن أو الموت . وتساءل قائلا : « لماذا تشفق على أمثال هؤلاء الناس أكثر من الله ؟ » . ذلك لأنه كان مقتنعاً بأن

الله قد قضى على كل اللامعمدانيين بعذاب جهنم(٦٣) . وأوصى باعتبار رفض تعميد الطفل ، أو رفض الخطيئة الأصلية ، أو عدم الإيمان بالوجود الحقيقى للمسيح فى القربان المقدس ، جرائم تستحق أن يعاقب عليها بالإعدام(٦٤) . وأصر على عقوبة الموت لكل طائفى يعتقد أن الكفرة قد يظفرون بالخلاص ، أو لكل من يشك فى أن الإيمان بأن المسيح يمكنه ، باعتباره الذى كفر عن خطايا البشر ، أن يغير آثماً بفطرته إلى رجل من الأبرار(٦٥) . وهلل ، كما سوف نرى ، لإعدام سيرفيتوس . وطالب الحكومة بأن تجبر كل الناس على حضور الصلوات الدينية البروتستانتية بانتظام(٦٦) . وطالب بالقضاء على كل الكتب ، التى تعارض أو تعوق انتشار التعاليم اللوثرية ، وعلى هذا فإن كتابات زونجلى وأتباعه وضعت رسمياً فى قائمة الكتب الممنوعة فى فيتنبرج(٦٧) ، وبينما سان لوثر ينفى الكثالكة من المناطق التى يحكمها الأمراء اللوثريون ، آثر ميلانكتون توقيع العقوبات البدنية ، واتفق الاثنان فى الرأى بأن السلطة المدنية مرتبطة بواجب نشر « شريعة الرب » ورفع شأنها . أى رفع شأن مذهب لوثر(٦٨) . ومهما يكن من أمر فإن لوثر أشار بأنه حيث توجد طائفتان فى ولاية فإن الأقلية يجب أن تخضع للأغلبية : فنى إمارة تغلب عليها الكثلكة يجب على البروتستانت أن يخضعوا ويهاجروا ، وفى مقاطعة ترجح فيها كفة البروتستانت يجب على الكثالكة أن يخضعوا ويرحلوا ، وإذا قاوموا فإنهم يجب أن يعاقبوا بشدة(٦٩) .

وقبلت السلطات البروتستانتية ، وهى فى هذا قد حذت حذو السوابق الكاثوليكية ، الالتزام بالحفاظ على المواءمة الدينية .

وأصدر مجلس المدينة فى أوجسبورج (١٨ يناير سنة ١٥٣٧) مرسوماً يحرم العبادة الكاثوليكية ويقضى بنفى كل من لا يقبل اعتناق العقيدة الجديدة ، بعد ثمانية أيام .

وبعد انقضاء هذه المهلة من العفو بعث المجلس بالجند للاستيلاء على

كل الكنائس والأديرة ، وأزيلت كل المذابح والتماثيل ، وأقصى كل القساوسة والرهبان والراهبات . وأصدرت [٧٠] فرانكفورت — الواقعة على الماين — قانوناً مماثلا ، وانتشرت موجة الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية ، وتحريم إقامة الصلوات الكاثوليكية فى الولايات التى يسيطر عليها البروتستانت [٧١] ، وانتهج البروتستانت فرض رقابة على المطبوعات وكانت قد فرضت فعلا فى مناطق كاثوليكية ، وعلى هذا أصدر جون الأمير المختار فى ساكسونيا ، بناء على طلب لوثر وميلانكتون ، (عام ١٥٢٨) منشوراً يحرم نشر أو بيع أو قراءة الأدب الزونجلى أو اللامعمدانى ، أو التبشير بعقائدهما أو تعليمهما وجاء فيه : « على كل من يعلم بحدوث شىء من هذا أو قيام أى أحد بعمله ، سواء أكان أجنبياً أو من المعارف ، أن يبلغ إلى . . . الحكام فى قهذا المكان لكى يُلقى القبض على الآثم ويعاقب فى الوقت المناسب . . . وهؤلاء الذين يعلمون بارتكاب مخالفات لهذه الأوامر . . . ولا يقومون بالإبلاغ عنها ، يعاقبون بالإعدام أو مصادرة ممتلكاتهم » [٧٢] .

وتبنى البروتستانت سياسة الحرمان من غفران الكنيسة والرقابة أيضاً مقتدين فى هذا بالكثالكة . وأعلن حزب أوجسبورج عام ١٥٣٠ حق الكنيسة اللوثرية فى حرمان كل عضو يرفض الاعتراف بعقيدة لوثرية أساسية [٧٣] من غفران الكنيسة . وقال لوثر مفسراً : « على الرغم من أن الحرمان من غفران الكنيسة فى البابوية قد أسىء استعماله بطريقة مخجلة ، وجعل منه البابويون مجرد تعذيب للناس فإننا يجب ألا نعانى منه حتى نكفر ، ولكن يجب أن نحسن استخدامه كما أمر المسيح » [٧٤] .

٣ — العلماء الإنسانيون والإصلاح الدينى

إن العقيدية المتعصبة للمصلحين الدينيين ، وعنف كلامهم وتشيعهم الطائفى واحتقارهم ، وتدميرهم للفن الدينى ، ولاهوتهم القائل بالجبر قضاء وقدراً وعدم اكتراثهم بالتعليم الدنيوى وتأكيدهم المتجدد للشياطين والجحيم ،

وتركيزهم على الخلاص الشخصى فى حياة بعد القبر ، كل هذه شاركت فى تنفير علماء الإنسانيات من الإصلاح الدينى ، فقد كان المذهب الإنسانى ردة وثنية إلى الثقافة الكلاسية ، أما البروتستانتية فقـــد كانت عودة تتسم بالورع إلى أوغسطين الحزين ، إلى المسيحية الأولى ، بل إلى الدين اليهودى فى العهد القديم ،وتجدد النضال بين الهلينية والعبرية . وكان علماء الإنسانيات قد أحرزوا تقدماً ملحوظاً داخل حظيرة الكاثوليك وقبضوا على زمام البابوية فى شخص نيكولاس الخامس وليو العاشر ، ولم يتسامح معهم البابوات فحسب ، بل إنهم أسبغوا عليهم حمايتهم ، وعاونوهم على استرداد الكنوز الضائعة من الأدب والفن الكلاسيين ، وكل هذا على أساس الفهم الضمنى بأن كتاباتهم سوف توجه ، فرضاً باللاتينية ، إلى الطبقات المتعلمة ، ولن تهدم العقيدة الكاثوليكية عند الناس .

ووجد علماء الإنسانيات ، وقد أزعجهم وقتذاك هذا الاتفاق الودى المريح ، أن أوروبا التيتونية كانت أقل مبالاة بهم وبثقافتهم الأرستقراطية منها بالحديث الحار عن الروح للوعاظ الجدد الذين يتكلمون باللغة الوطنية ، والذى يدور حول الرب والجحيم والخلاص الفردى . وسخروا من كل المناقشات المتحمسة التى ثارت بين لوثر وإيك ، وبين لوثر وكارلشتادت ، وبين لوثر وزونجلى ، باعتبارها معارك حول نتائج ، اعتقدوا أنه قضى عليها منذ عهد بعيد ، أو انطوت فى غمار النسيان برقة . ولم يستسيغوا اللاهوت وأصبحت السماء والجحيم أساطير بالنسبة إليهم ، وأقل حقيقة من ميثولوجيا اليونان وروما . ورأوا أن البروتستانتية خيانة لعصر النهضة ، وأنها كانت تستعيد كل المذاهب الفوق الطبيعية واللاعقلية والشيطانية التى رانت بالظلام على عقلية القرون الوسطى ، وقد شعروا بأن هذا لم يكن تقدماً ، بل رجعية . . . كان إخضاعاً من جديد للعقل المتحرر لسيطرة الأساطير البدائية للسوقة . واستاءوا من طعن لوثر للعقل ومن تمجيده للعقيدة كما كان يعرفها البطارقة أو الحكام من البروتستانت . وماذا بقى للإنسان من

تلك الكرامة التي كان بيكوديلا ميراندولا قد وصفها بمثل هذا النبل ، إذا كان كل شيء حدث على ظهر الأرض — كل بطولة وكل تضحية ، وكل تقدم في أدب السلوك الإنساني يستحق الذكر — مجرد عمل آلي ، قام به أناس عاجزون تافهون ، لتحقيق ما سبق في علم الله ، وتنفيذ أوامره التي لا نعرفها ؟

وليس من شك في أن علماء الإنسانيات الذين افتقدوا الكنيسة ، وإن كانوا لم يتركوها قط — ويمفيلينج وبياتوس رينانوس وتوماس مورنر وسيباستيان برانت — قد سارعوا وقتذاك إلى الإعراب عن ولائهم .

وابتعد عن لوثر كثير من علماء الإنسانيات الذين هللوا لصورة لوثر الأولى باعتبارها إصلاحاً شاملا لظلم مخجل ، وذلك كلما تشكل اللاهوت والجدل الديني للبروتستانت . وهاهو فيليبالد بيركهايمر وهو هليني وسياسي ، كان قد أيد لوثر علناً ، حتى إنه حرم من غفران الكنيسة في المسودة الأولى للمنشور **Exsurge Domine** راعه عنف كلام لوثر وقطع صلته بالثورة ، وفي عام ١٥٢٩ وبينما كان لا يزال ينتقد الكنيسة كتب يقول : —

« لا أنكر أن كل أعمال لوثر لم تبد عبثاً في مبدأ الأمر ، ما دام لا يوجد رجل صالح يستطيع أن يرضى عن كل تلك الأخطاء والضلالات ، التي تراكمت تدريجياً في المسيحية . وعلى هذا فإني كنت أرجوانا وآخرون أن يستخدم دواء ما لمثل هذه الآفات العظيمة ، ولكني كوفئت بخديعة قاسية ، لأنه قبل استئصال شأفة الأخطاء الآنفة الذكر ، تسللت أخطاء لا تغتفر أشد جسامة ، إذا قورنت بها الأولى ، فإنها تبدو من قبيل عبث الأطفال . . . لقد وصلت الأمور إلى معبر دفع الأفاقين الإنجيليين إلى إظهار زملائهم البابويين ، وهم يرتدون مسوح الفضيلة . . . ولا بد أن لوثر

بلسانه اللاذع ، الذى لا يعرف الخجل ، قد انزلق إلى الخبل أو استلهم الشيطان »(٧٥) .

ووافق موتيانوس على هذا وكان قد حيي لوثر ووصفه بأنه « نجم الصباح فى فيتنبرج » وسرعان ما شكا من أن لوثر « تعتريه لوثة مجنون »(٧٦) أما كروتوس روبيانوس ، الذى كان قد مهد الطريق للوثر بـ « خطابات من أناس مغمورين » فإنه فر عائداً إلى حظيرة الكنيسة عام ١٥٢١ . وأرسل رويخلين إلى لوثر خطاباً رقيقاً ، ومنع إيك من إحراق كتب لوثر فى أنجولشتادت ، ولكنه ندد بابن أخيه ميلانكتون ، لأنه تبنى اللاهوت اللوثرى ومات بين ذراعى الكنيسة . وأما جوهانس دوبينيك كوكلايوس فقد ناصر لوثر فى مبدأ الأمر ، ثم انقلب عليه فى عام ١٥٢٢ ، وبعث له برسالة أنبه فيها قائلا : —

« هل تظن أننا نريد العفو أو الدفاع عن آثام رجال الدين وشرهم ؟ نسأل الله النجاة ! إننا لنفضل أن نستأصل شأفتهم ، ما دام هذا يمكن أن يتم بطريقة مشروعة . . . ولكن المسيح لا يعلمنا مثل هذه الطرق التى تعمل بها على تلك الصورة المؤذية مع خصم المسيح » و « مواخير » و « أعشاش الشيطان » و « بالوعات » وألفاظ سب أخرى لم يسمع بها أحد من قبل فما بالك بالتهديدات بالضرب بالسيف وسفك الدماء والقتل يا لوثر ! إن المسيح لم يعلمك قط هذه الطريقة فى العمل »(٧٧) .

ولعل علماء الإنسانيات فى ألمانيا قد نسوا بذاءة أسلافهم الإيطاليين — فيليلفو وبوجيو وكثيرين غيرهما — تلك البذاءة جعلت لوثر يسارع بأن يشرع قلمه المتمرد العنيد . ولكن أسلوب لوثر فى العراك لم يكن إلا سطحاً لاتهامهم . ولاحظوا — كما لاحظ لوثر — فساد الأخلاق والسلوك فى ألمانيا ، وعزوا ذلك إلى تفكك السلطة الكهنوتية وإسقاط اللوثريين « للأعمال الصالحات » ، باعتبارها مبرراً للخلاص . وساءهم انتقاص البروتستانت

للتعليم ومساواة كارلشتادت بين العلامة النحرير وبين والفلاح ، وتهون لوثر من شأن التضلع فى العلم والحصافة ، وأعرب أرازموس عن الرأى العام لعلماء الإنسانيات . وهنا سلم ميلانكتون[٧٨] بهذا الرأى فى حزن — وهو يذهب إلى أنه حيث تنتصر اللوثرية ينحط شأن الآداب (أى التعليم والأدب)[٧٩]، ودفع البروتستانت هذه التهمة بقولهم إن هذا يرجع إلى أن التعليم بالنسبة لعالم الإنسانيات يعنى ، أولا وقبل كل شىء ، دراسة الكلاسيات الوثنية والتاريخ الوثنى . وشغلت الكتب والمجلات فى المجادلات الدينية الذهن والمطابع فى ألمانيا وسويسرة مدة جيل بأسره ، حتى فقد كل شكل آخر من أشكال الأدب (غير الهجو) تقريباً جمهوره . ووجدت دور النشر مثل دار فروبن للنشر فى بازيل والاطلانسى فى فينا عدداً قليلا من المشترين للمؤلفات العلمية التى أصدرتها وكلفتها غالياً ، حتى أشرفت على الإفلاس[٨٠] وحجب تعصب المنافسين النهضة الألمانية الفتية ، ووصل مسار مسيحية عصر النهضة نحو التوفيق بينها وبين الوثنية إلى نهايته .

وظل بعض علماء الإنسانيات مثل أيوبان هيس وأولريخ فون هوتن مخلصين للإصلاح الدينى ، وانتقل هس من موقع إلى موقع وعاد إلى أرفورت ليجد أن الجامعة قد هجرها روادها . ومات وهو يقرض الشعر فى ماربورج (١٥٤٠) وهرب هوتن ، بعد سقوط سيكنجن ، إلى سويسرة ، ولجأ إلى السرقة للحصول على طعامه ، وهو فى الطريق[٨١] ، وبحث عن أرازموس فى بازيل (١٥٢٢) ، وهو يعانى من المرض والخصاصة ، على الرغم من أنه كان قد دمغ علناً عالم الإنسانيات بأنه جبان ، لأنه لم ينضم إلى المصلحين الدينيين[٨٢] . ورفض أرازموس أن يراه وزعم أن موقده لا يصلح لتدفئة عظام هوتن . ونظم الشاعر الآن قصيدة بعنوان « تحذير » ندد فيها بأرازموس ووصفه بأنه زنديق مارق ، يفرق كفرخ الدجاج ، ووعد بأن يمسك عن نشرها إذا دفع له أرازموس ، ولكن أرازموس خيب ظنه ، وحث هوتن على التزام جانب الحكمة وتسوية خلافاتهما سلمياً ،

غير أن هوتن كان قد سمح بتداول النسخة الخطية لقصيدته الهجائية بين الخاصة ، ووصل ذلك إلى علم أرازاموس ودفعه هذا إلى الانضمام إلى رجال الدين فى بازيل فى طلبهم بإلحاح من مجلس المدينة إقصاء الهجاء الحانق ، وبعث هوتن بقصيدته « تحذير » إلى المطبعة وانتقل إلى مولهاوس . وهناك تجمع حشد من الغوغاء ، وهاجم البيت الذى لاذ به ، ففر مرة أخرى ، وقبض عليه زونجلى فى زيورخ (يونية ١٥٢٣) ، وقال المصلح الدينى وهو هنا كريم خير أكثر من عالم الإنسانيات « انظروا . ... إلى هذا المخرب ؛ انظروا إلى هوتن الرهيب ، الذى نراه مغرماً جداً بالناس وبالأطفال ؛ ، إن هذا الفم الذى تهب منه أعاصير على البابا لا ينفث غير الرقة والطيبة »[٨٣] . وفى غضون ذلك رد أرازموس على « تحذير » فى رسالة كتبها على عجل وعنوانها Spongia Erasmi adversus aspergimes Hutteni ، (أى إسفنجة أرازموس على مطاعن هوتن) وكتب إلى مجلس المدينة فى زيورخ محتجاً على « أكاذيب » هوتن التى تحدث بها عنه وأوصى بنفى الشاعر[٨٤] . ولكن هوتن كان يحتضر وقتذاك ، فقد أنهكتهعحرب الأفكار وأتلف الزهرى صحته وأطلق زفرته الأخيرة (٢٩ أغسطس سنة ١٥٢٣) فوق جزيرة فى بحيرة زيورخ ، بالغاً من العمر خمساً وثلاثين عاماً ، وهو لا يملك من حطام الدنيا سوى ملابسه وقلمه .

٤ — أرازموس — حاشية على آرائه
(١٥١٧ — ٣٦)

إن رد الفعل عند أرازموس بالنسبة إلى الإصلاح الدينى يثير مناقشة حامية بين المؤرخين والفلاسفة . ترى أية طريقة خير للبشرية — هجوم لوثر المباشر على الكنيسة أم سياسة أرازموس التى تعتمد على المصالحة السلمية والإصلاح الدينى على درجات ؟ إن الإجابات تكاد تحدد نمطين من الشخصية : هما المحاربون « ذوو العقول الجامدة » الذين يعتصمون بالعمل والإرادة ، « والمهادنون ذوو العقول المرنة فى الفكر والشعور » . لقد كان لوثر رجل عمل أساساً . وكانت أفكاره قرارات وكتبه أفعالا . وكان تفكيره فى

مضمونه لا يختلف عن تفكير رجال القرون الوسطى الأولى ، ولكنه فى فى النتيجة يشبه تفكير المحدثين الأوائل ، ولقد عاونت شجاعته وحسمه للأمور القومية أكثر من لاهوته على تأصيل العصر الحديث . وكان لوثر يتحدث بلهجة ألمانية قوية ، تنبض بالرجولة إلى الشعب الألمانى ، فأثار أمة ، ودفعها إلى القضاء على سلطة دولية ، أما أرازموس فكان يكتب بلغة لاتينية رشيقة رقيقة لجمهور دولى ، إلى صفوة عالمية من خريجى الجامعات . وكان شديد الحساسية لا يصلح لأن يكون رجل عمل ، يمتدح السلم ويتوق إليه ، بينما كان لوثر يشهر الحرب ويجد فيها متعة . كان إماماً فى الاعتدال ، يستهجن التطرف والمغالاة . . . وهرب من ميدان العمل إلى ميدان الفكر ، ومن اليقين المتسم بالتهور إلى الشك المنطوى على الحذر ، وعرف الكثير ليرى أن الحق أو الخطأ ليسا جميعاً فى جانب واحد ، ورأى الجانبين كليهما ، وحاول أن يوفق بينهما فسحق فى وسطهما .

وصفق لمقالات لوثر ، وأرسل فى مارس عام ١٥١٨ نسخاً منها إلى كوليه ومور ، وكتب إلى كوليه يقول : « إن المحكمة الرومانية قد كشفت عن وجهها برقع الحياء . أى شىء يفوق فى القحة صكوك الغفران هذه ؟ »(٨٥) وكتب فى أكتوبر إلى صديق آخر يقول :

« سمعت أن لوثر يتفق معه فى الرأى كل الناس الصالحين ، وإن قيل إن كتاباته ليست كلها فى مستوى واحد . وأعتقد أن هذه المقالات سوف يرضى عنها الجميع ، اللهم إلا قلة ضئيلة لا تتفق معه فى رأيه حول المطهر ، الذى يعتمدون عليه فى كسب عيشهم ، ولا يريدون أن ينتزع من أيديهم . . . وأنا أدرك أن الحكومة الملكية للكاهن الأعظم الرومانى (وهذا حال تلك الحكومة البابوية الآن) هى وباء يجتاح العالم المسيحى ، على الرغم من أن وعاظاً يفتقرون إلى الحياء يمتدحونها فى كل الظروف ، ومع ذلك فإنى لا أكاد أعرف هل من اللائق أن أمس هذا القرح المكشوف ، لأن هذا

فرض واجب على الأمراء ، ولكنى أخشى أن يتآمروا مع الحبر الأعظم للحصول على قدر من الغنائم »(٨٦) .

وعاش أرازموس الجانب الأكبر من حياته وقتذاك فى لوفان ، وأسهم فى تأسيس Collegium Trilingue فى الجامعة ، بكراسى أستاذية فى اللاتينية واليونانية والعبرية ، وفى عام ١٥١٩ منحه شارل الخامس معاشاً ، فاشترط أرازموس لقبوله أن يحتفظ باستقلاله جسداً وعقلا ، ولكنه إذا كان بشراً ، فإن هذا المعاش ، مضافاً إليه ما كان يتلقاه من كبير أساقفة وارهام ولورد ماونتجوى ، قد قام بدور ما فى صياغة موقفه نحو الإصلاح الدينى .

وفى الوقت الذى جاوزت فيه ثورة لوثر مرحلة نقد بيع صكوك الغفران إلى رفض الاعتراف بالبابوية والمجالس الدينية ، تردد أرازموس ، فقد كان يأمل أن تتقدم عجلة إصلاح الكنيسة بالالتجاء إلى الإرادة الواعية للبابا ذى النزعة الإنسانية . كان لا يزال يجل الكنيسة باعتبارها (خيل إليه هذا) مؤسسة للنظام الاجتماعى والأخلاق الفردية لا بديل عنها ، وعلى الرغم من اعتقاده أن لاهوت المحافظين قضى عليه ما تخلله من لغو ، فإنه كان لا يثق بحكمة الإفتاء الفردى أو الشعبى لتطوير شعيرة أو عقيدة أكثر نفعاً ، ذلك أن رجاحة العقل لا تتأتى إلا عن طريق تقطر الاستنارة العقلية ، من الفئة القليلة المتفقهة ، إلى الكثرة الغالبة . وأقر بأنه كان له دور فى تمهيد الطريق أمام لوثر ، فقد كانت رسالته « الثناء على الطيش » ، التى كان يتداولها وقتذاك الآلاف من القراء فى أرجاء أوربا ، تسخر من الرهبان والمشتغلين باللاهوت ، وتشدد من لذع خطابات لوثر المقذعة الجافية ، وعندما اتهمه الرهبان المشتغلون باللاهوت بأنه وضع البيضة التى فقست تحت لوثر ، رد عليهم فى تأفف : « نعم ولكن البيضة التى وضعتها خرجت منها دجاجة ، أما البيضة التى فقسها لوثر فقد خرج منها ديك من ديوك

المصارعة»[٨٧] . ولقد قرأ لوثر نفسه رسالة « الثناء على الطيش » كما قرأ تقريباً غيرها من كل ما نشره أرازموس ، وقال لأصدقائه إنه إنما يقوم بصياغة مباشرة لما قاله عالم الإنسانيات الشهير ، أو ما ألمح إليه منذ سنوات عديدة مضت ، وكتب فى ١٨ مارس عام ١٥١٩ إلى أرازموس فى تواضع واحترام ينشد صداقته وعونه ضمناً .

وكان على أرازموس وقتذاك أن يتخذ قراراً حاسماً فى حياته . وكان فى مأزق بين أمرين أحلاهما مر . إذا تخلى عن لوثر فسوف يوسم بالجبن ، وإذا اشترك مع لوثر فى عدم الاعتراف بالكنيسة الرومانية فإنه لن يخسر فحسب ثلاثة مرتبات ، ويفقد ما أسبغه عليه ليو العاشر من حماية ضد المشتغلين باللاهوت ، الذين يعملون للحيلولة دون نشر العلم ، وسيجد نفسه مضطراً إلى التخلى عن خطته واستراتيجيته بشأن إصلاح الكنيسة عن طريق تحسين العقول والأخلاقيات فى الرجال ذوى النفوذ . وكان قد أحرز (كما اعتقد) تقدماً حقيقياً فى هذا المجال مع البابا ورئيس الأساقفة وارهام والأسقف فيشر ونائب الأسقف كوليه وتوماس مور وفرانسس الأول وشارل الخامس ، ولم يرض هؤلاء الرجال بالتأكيد أن يتخلوا عن الكنيسة . حقاً إنهم كانوا على استعداد لأن يحجموا عن تقويض نظام كان فى نظرهم مرتبطاً بطريقة مبهمة مع حكومة الأمراء فى المحافظة على الاستقرار الاجتماعى ، ولكن يمكن تجنيدهم فى حملة لتخفيف الخزعبلات والأهواء فى عقيدة راجحة الكفة ، وفى تطهير رجال الدين وتعليمهم ، وفى السيطرة على الرهبان وإخضاعهم للتبعية ، وفى حماية حرية الفكر من أجل تقدم العقل .

إن تغيير ذلك البرنامج بانقسام العالم المسيحى انقساماً شديداً إلى شطرين متحاربين ، وبلاهوت ، يأخذ بالقدرية وبعدم أهمية الأعمال الصالحات ، سوف يبدو فى نظر هؤلاء الرجال ، بل وبدا لأرازموس ، الطريق إلى

الجنون . وكان يراوده الأمل فى استعادة السلام إذا خفضت كل الأطراف أصواتها ، وأشار فى فبراير عام ١٥١٩ على فروبين ألا ينشر المزيد من مؤلفات لوثر ، لأنها تفيض بالعبارات الملتهبـة(٨٨) ، وكتب فى أبريل إلى الأمير المختار فريدريك ، يحثه على حماية لوثر باعتباره رجلا ارتكب الناس فى حقه من الإثم أكثر مما ارتكب هو من آثام(٨٩) . وأخيراً (٣٠ مايو) رد على لوثر ، وقال :

« يا أعز أخ لى فى المسيح . إن رسالتك إلى تظهر حدة ذهنك وتنبض بروح مسيحية قد أسعدتنى أكثر من كل شىء . أنا لا أستطيع أن أعبر عن مدى الاضطراب الذى تحدثه كتبك هنا . إن هؤلاء الناس لا يمكن ، بأى وسيلة ، ألا يراودهم الشك فى أننى عاونتك فى كتابة مؤلفاتك وأنى ، كما يصفونني ، حامل لواء حزبك . . . ولقد أقسمت لهم أنى لا أعرفك بتاتاً ، وأنى لم أقرأ كتبك ، وأنى لا أستحسن كتاباتك ولا أستهجنها ، ولكن عليهم أن يقرأوها قبل أن يتحدثوا بصوت مرتفع ، ومن رأيى أيضاً أن الموضوعات التى كتبت عنها ليست من النوع الذى يصلح للخطابة من فوق المنابر ، وبما أن من المسلم به أنك طاهر الذيل ، فلا محل للتنديد بك أو صب اللعنات عليك . وكان هذا بلا جدوى فقد ظلوا يتميزون غضباً . . . وأنا نفسى الهدف الرئيسى للعداء والكراهية ، وأما الأساقفة فإنهم فى صفى بوجه عام . . .

وأما أنت فإن لك أصدقاء أوفياء فى انجلترا ، حتى بين أكبر الشخصيات هناك . ولك أصدقاء هنا أيضاً . . . أنا بصفة خاصة . وأما بالنسبة لى فإنى اشغل نفسى بالأدب ، وأنا أقصر عليه جهودى بقدر الإمكان ، وأتحاشى الخلافات الأخرى ، ولكنى بصفة عامة أعتقد أن اللطف مع الخصوم أشد تأثيراً من معاملتهم بالعنف . . . ولعل من الحكمة أن تندد بهؤلاء الذين يسيئون استخدام سلطة البابا بدلا من أن تحصى أخطاء البابا نفسه . وهذا ما يجب عمله مع الملوك والأمراء . والأنظمة القديمة لا يمكن انتزاعها من

جذورها فى لحظة . والمناقشة الهادئة قد تفيد أكثر مما تفعل الإدانة الجماعية ؟ تجنب كل مظهر من مظاهر الشغب . واحتفظ ببرود أعصابك ولا تستسلم للغضب . لا تكره أحداً . لا تفرح بالضجة التى أثرتها . لقد اطلعت على كتابك « تعليق على المزامير » وسررت به كثيراً . . . ألا فليهبك المسيح روحاً من عنده من أجل مجده ومن أجل خير العالم[٩٠] .

وعلى الرغم من هذا الاحتياط فى المواجهة بين الضدين ، فان المشتغلين باللاهوت فى لوفان استمروا فى مهاجمة أرازموس ، باعتباره منبع الفيضان اللوثرى . ووصل الياندر فى الثامن من أكتوبر عام ١٥٢٠ ، وعلق النشرة البابوية التى تنص على حرمان لوثر من غفران الكنيسة ، وسجل أن أرازموس يعد محرضاً سرياً على الثورة . وقبل العلماء النحارير زعامة الياندر وأقصوا أرازموس من كلية لوفان (٩ أكتوبر عام ١٥٢٠) ، فانتقل إلى كولون وهناك ، كما رأينا ، دافع عن لوثر فى مداولة مع فردريك صاحب ساكسونيا (٥ نوفمبر) ، وفى الخامس من ديسمبر أرسل إلى الأمير المختار بياناً عرف باسم **Axiomata Erasmi** جاء فيه إن التماس لوثر أن يحاكم أمام قضاة لا يعرفون التحيز طلب معقول ، وأن الصالحين من الناس والمحبين للإنجيل هم هؤلاء الذين كانت إساءتهم للوثر أقل من غيرهم ، وأن الناس يتعطشون إلى معرفة الحقيقة الإنجيلية ، (أى الحقيقة التى تعتمد على الإنجيل فحسب) وأنه لا يمكن قمع[٩١] مثل هذا المزاج الذى انتشر انتشاراً واسعاً . ودبج بمعاونة جوهان فابر الدومينيكانى عريضة إلى شارل الخامس ، طالباً فيها أن يقوم شارل وهنرى الثامن ولويس الثانى ملك هنغاريا بتعيين محكمة محايدة للفصل فى قضية لوثر . وحث فى رسالة بعث بها إلى الكاردينال كامبيجيو (٦ ديسمبر) على توفير العدالة للوثر ، وقال : « لقد أدركت أنه كلما كان الإنسان صالحاً كان أقل عداء للوثر . . . إن بضعة أشخاص فقط كانوا يصخبون فى وجهه ، خوفاً من أن يجردهم مما فى جيوبهم . . . ولم يرد عليه أحد بعد أو يعدد أخطاءه . . . فكيف يحدث هذا فى الوقت الذى يوجد

فكيف يحدث هذا فى الوقت الذى يوجد فيه أشخاص يزعمون أنهم أساقفة ... وأخلاقهم كريهة .. وهل من الصواب أن تضطهد رجلا مثل هذا ، لا تشوب أخلاقه شائبة ، وليس فى حياته ما يشينه ، ووجد أشخاص من الصفوة فى كتاباته الكثير مما يستحق الإعجاب ؟ لقد كان الهدف ببساطة القضاء عليه وعلى كتبه ، ليضيع فى غمرات النسيان ، وهذا لا يتحقق إلا إذا ثبت أنه على خطأ . . . إذا كنا ننشد الحقيقة ، فان كل امرئ يجب أن يكون حراً فى أن يقول ما يراه دون خوف أو وجل . وإذا كوفئ المدافعون عن وجهة نظر أحد الطرفين بوضع تيجان الأساقفة على رؤوسهم ، وجوزى المدافعون عن وجهة نظر الخصوم بالشنق أو بوضعهم فوق الخوازيق فإن الحقيقة لن تسمع أبداً . . . ولا يمكن أن يكون هناك شيء يبعث على النفور ويبعد عن الحكمة أكثر من نشرة البابا . . . إنها تخالف طبيعة البابا ليو العاشر ، وأرى أن الذين أرسلوا لنشرها فحسب قد جعلوا الأمور تنقلب إلى أسوأ . ومهما يكن من شيء فإنه من الخطر أن يعارض الأمراء الزمنيون البابوية ، وأنا لست على استعداد لأن أكون أكثر شجاعة من الأمراء ، وبخاصة عندما لا أستطيع أن أفعل شيئاً . ولعل فساد الحاشية الرومانية يجعلها فى حاجة إلى إصلاح شامل وعاجل ، ولكنى أنا وأمثالى لا يطلب منا اتخاذ إجراء مثل هذا على عاتقهم ، وأنا أرى أن تبقى الأمور على ما هى عليه ، وأفضل أن أرى الأشياء على ما هى عليه على نشوب ثورة ، قد تؤدى إلى نتيجة لا تحمد عقباها . . . ويمكنك أن تطمئن إلى أن أرازموس كان ، وسوف يظل دائماً ، من الرعايا المخلصين لكرسى البابوية الرومانى ، وإن كنت أعتقد ، ويعتقد كثيرون مثلى ، أنه ستتاح فرصة أحسن لتسوية ما إذا قل الالتجاء إلى العنف ، وإذا وضعت مقاليد الإدارة فى أيدى رجال لهم وزن وعلى حظ من التعليم ، وإذا تصرف البابا بوحى من ضميره ، ولم يتأثر بآراء الآخرين »(٩٢) .

وقد جعل لوثر من الصعب على أرازموس أن يتشفع له لأن لهجة خطبه كانت تزداد عنفاً كل شهر ، إلى أن دعا فى يوليو عام ١٥٢٠ قراءة إلى أن يغسلوا أيديهم فى دماء الأساقفة والكرادلة ، وعند ما وصل نبأ إحراق لوثر علناً لمنشور البابا الذى يقضى بحرمانه من غفران الكنيسة ، أقر أرازموس بأنه صدم لهذا النبأ . وفى الخامس عشر من يناير عام ١٥٢١ بعث إليه البابا برسالة أعرب فيها عن سروره بولائه ، وفى الوقت نفسه أرسل ليو تعليماته إلى الياندر بمعاملة عالم الإنسانيات بكل لطف . وعند ما اقترب موعـد انعقاد المجلس النيابى فى ورمس ، طلب أمير ألمانى من أرازموس أن يخف لمعاونة لوثر ، ولكنه رد بأن الأوان قد فات . وأسف لرفض لوثر الامتثال ، إذ كان يعتقد أن هذا الامتثال سوف يؤدى إلى الإسراع بحركة الإصلاح الدينى ، أما الآن فإنه يخشى قيام حرب أهلية . وفى فبراير عام ١٥٢١ كتب إلى أحد أصدقائه : « إن كل إنسان أقر بأن الكنيسة قد عانت من نير طغيان بعض الناس ، وكثيرون كانوا يسألون النصيحة لعلاج هذه الحالة الراهنة . والآن وقد هب هذا الرجل ليعالج الأمر على هذا النحو . . . لم يجرؤ أحد على أن يدافع حتى عما أجاد التعبير عنه . وقد حذرته منذ ست شهور خلت أن يحترس من الكراهية . ولقد نفرت رسالته « الأسر البابيلونى » منه الكثيرين ، وهو يعرض لنا كل يوم أشياء فظيعة[٩٣] .

وقد تخلى لوثر وقتذاك عن كل أمل فى مساندة أرازموس ، وأسقطه من حسابه باعتباره داعية للسلام جباناً « يعتقد أن كل شىء يمكن أن يتم بالتهذيب والعطف »[٩٤] . وفى الوقت نفسه ، وعلى الرغم من تعليمات ليو ، استمر الياندر وعلماء اللاهوت فى لوفان فى مهاجمة أرازاموس ، باعتباره نصيراً سرياً للوثر . فاستاء من ذلك وانتقل إلى بازيل (١٥ نوفمبر عام ١٥٢١) ، حيث راوده الأمل فى أن يتناسى الإصلاح الدينى الفتى فى غمار النهضة العجوز . وكانت بازيل معقل مذهب الإنسيانيات فى سويسرة ،

فهناك كان يعمل بياتوس رينانوس الذى نشر تاسيتوس وبلينى الأصغر ، واكتشف فيليوس بايتركولوس ، وأشرف على طباعة العهد الجديد ، الذى أعده أرازموس ، وهناك كان طباعون وناشرون يعدون أيضاً من العلماء مثل هانز آمرباخ ، وذلك القديس بين الناشرين الذى يدعى جوهان فروبن (يوس) ، وهو الذى أضنى نفسه مكباً على مطابعه ونصوصه و (قال عنه أرازموس) « ترك لأسرته من الشرف أكثر مما ترك لها من الثروة »(٩٥) وهناك عاش ديرر أعواماً طوالا ، وهناك قام هولبين برسم صورة الشخصية التى تخلب الألباب لفروبن وبونيفاسيوس آمرباخ — الذى جمع المقتنيات الفنية الموجودة الآن فى متحف بازيل . وقبل سبع سنوات ، وفى زيارة سابقة ، كان أرازموس قد وصف هذا المحيط فى شيء من المبالغة التى تنطوى على الحب .

« يبدو لى أنى أعيش فى هيكل قدسى ساحر لربات الفنون ، يظهر فيه حشد من الأشخاص المتعلمين كأمر محتوم . ليس هناك من يجهل اللاتينية ، ولا أحد يجهل اليونانية ، ومعظمهم يعرفون العبرية . هذا يفوق زملاءه فى دراسة التاريخ ، وذاك متضلع فى اللاهوت ، وأحدهم بارع فى فى الرياضيات وآخر دارس للآثار وثالث ضليع فى القانون . وليس من شك فى أن الحظ لم يسعدنى ، حتى ذلك الوقت ، فى أن أعيش فى مثل هذا المجتمع الكامل . . . أية صداقة خالصة ترفرف عليهم جميعاً وأى بشر وأى توافق »(٩٦)

وعاش أرازموس مع فروبن وعمل معه مستشاراً أدبياً ، وكتب مقدمات وحرر جريدة «الآباء» . ورسم هولبين صوراً شخصية مشهورة له فى بازيل (١٥٢٣ — ١٥٢٤) ولاتزال إحداها هناك ، وأرسلت أخرى إلى كبير أساقفة وارهام ، وهى الآن من مقتنيات ايرل أف رادنور ، والثالثة فى متحف اللوفر ، وهى من روائع هولبين . ويرى فيها جالساً إلى منضدة ،

وهو يكتب ملتفاً بمعطف ثقيل حوافه مزينة بالفراء ، ويضع على رأسه قلنسوة تغطى نصف أذنيه ، وها هو أعظم علماء الإنسانيات تشى كهولته التى جاءت قبل الأوان ، (كان وقتئذ فى السابعة والخمسين من عمره) بالثمن الغالى الذى دفعه بسبب اعتلال صحته . حياة فيلسوف مشائى حافلة بالجدل والخصام ، والعزلة الروحية والحزن ، اللذين ترتبا على رغبته فى أن يكون عادلا مع الطرفين فى الخلافات المذهبية التى حدثت فى عصره . وتبرز من القلنسوة شعرات بيضاء مشعثة . وله شفتان رقيقتان كالحتان ، وتقاطيع جميلة ، وإن كانت قوية ، وأنف حاد معقوف ، وجفون ثقيلة ، تكاد تغلق عينين متعبتين ، هنا فى لوحة من أعظم الصور الشخصية ترى النهضة وقد مزقها الإصلاح الدينى إرباً .

وفى أول ديسمبر عام ١٥٢٢ كتب البابا الجديد أدريان السابع إلى أرازموس بألفاظ توحى بسلطانه غير العادى على كلا الطرفين : يتوقف عليك ، وأسأل الله أن يعينك ، أن تهدى من أضلهم لوثر عن الطريق المستقيم ، وأن تقف إلى جانب من لا يزالون صامدين . . . ولست فى حاجة إلى أن أعرب لك عن مدى غبطتى عند ما أتلقى ثانية هؤلاء الهراطقة دون حاجة إلى قرعهم بعصا القانون الإمبراطورى . وأنت تعرف إلى أى حد تتنافى مثل هذه الطرق الفظة مع طبيعتى . أنا لا أزال كعهدك بى عند ما كنا ندرس معاً . تعال إلى فى روما ، وسوف تجد هنا ما تنشده من الكتب ، وسوف تجدنى أنا وآخرين من الرجال المستنيرين ، لنتبادل المشورة ، وإذا فعلت ما أطلبه منك فإنك لن تندم أبداً »(٩٧) .

وبعد تبادل تمهيدى لخطابات تعهد فيها كل منهما للآخر بالحفاظ على السرية ، فتح أرازموس قلبه للبابا وقال : « إن قداستك تطلب منى النصيحة ، وترغب فى أن ترانى . وكم كان يسعدنى أن أذهب إليك لو سمحت بذلك صحتى . أما بالنسبة للكتابة ضد لوثر ، فأنا لست على درجة كافية من العلم ، وأنت تعتقد أن لكلماتى سلطاناً ، ولكنى للأسف أرى

أن شعبيتى ، التى اكتسبتها فيما مضى قد استحالت إلى كراهية . لقد كنت يوماً أميراً للبيان ، ونجماً من نجوم ألمانيا . . . وكاهناً أعظم للعلم ومنافحاً عن لاهوت أكثر نقاء . أما الآن فقد تبدل الوضع ، ففريق يقول أنى أتفق فى الرأى مع لوثر ، لأنى لا أعارضه ، وفريق آخر يرى أنى على خطأ لأنى أعارضه . . . وفى روما وفى رابانت يصفوننى بأنى هرطيق ، وزعيم شعبة من الهراطقة ، وداعية إلى الانشقاق ، والحق أنى لا أتفق بتاتاً مع لوثر . وأنهم ليستشهدون بهذه الفقرة أو تلك ، ليبينوا أننا متشابهان ، ومع ذلك فنى وسعى أن أجد مائة فقرة يبدو فيها أن القديس بولس يعلم العقائد التى يستنكرها عند لوثر . وخير من يمحضك النصح هم الذين يشيرون باتخاذ إجراءات خفيفة . والرهبان — يطلقون على أنفسهم العمالقة الذين يسندون كنيسة تهتز وتوشك أن تنقض — ينفرون من يمكن أن يكونوا أنصاراً لها . . . ويعتقد البعض أنه لا علاج لهذه الحالة إلا القوة . وأنا أرى غير هذا . . . فسوف تؤدى إلى سفك مروع للدماء . إن المسألة ليست الجزاء الذى تستحقه الهرطقة ، ولكنها الطريقة الحكيمة التى تعالج بها . . . وأنا من جهتى أرى اكتشاف جذور المرض واقتلاع ما يجب البدء به منها . لا تعاقب أحداً . وأعتبر ما حدث عقوبة أنزلتها العناية الإلهية ، وامنح عفوا عاماً . وإذا كان الله يغفر لى خطاياى ، فإن كاهن الرب يمكن أن يغفرها ، وفى وسع الحكام أن يمنعوا قيام ثورة مسلحة ، وإذا أمكن يجب مراجعة المواد المطبوعة . ثم دع العالم يعرف ويرى أنك تنوى جاداً رفع المظالم ، التى يشكو منها الناس بحق . وإذا أردت قداستك أن تعرف ما هى الجذور التى أشير إليها ، فأرسل أشخاصاً تثق بهم إلى كل جزء من أجزاء العالم المسيحى اللاتينى ، ودعهم يتبادلون الرأى مع أعقل من يجدون من الرجال فى مختلف البلاد وسرعان ما تعرف بعد ذلك[٩٨] .

يا لأدريان المسكين الذى تجاوزت نياته الطيبة حدود قواه ! لقد مات

كسير الفؤاد عام ١٥٢٣ . واستمر خلفه كليمنت السابع فى حث أرازموس على الانخراط فى سلك المناهضين للوثر . وعند ما خضع العالم أخيراً ، لم يكن هجومه على لوثر بصفة شخصية ، ولم يكن لديه اتهام عام للإصلاح الدينى ولكنه ناقشه مناقشة موضوعية مهـــذبة بإرادة حرة (De Libro arbitrio) — (١٥٢٤) . وسلم بأنه لم يستطيع أن يسبر غور لغز الحرية الأخلاقية ، ولا أن يوفق بينها وبين علم الله بكل شيء وقدرته على كل شيء . ولكن ما من عالم بالإنسانيات يستطيع أن يتقبل العقائد ، التى تقول بحتمية القدر ومذهب الجبر ، دون تضحية بكرامة الإنسان أو الحياة البشرية وقيمتها : هنا فارق أساسى بين الإصلاح الدينى والنهضة . وبدا واضحاً لأرازموس أن الإله الذى يعاقب على الخطايا ، التى ترتكبها مخلوقاته ، ولا حيلة لهم فى الامتناع عنها ، وحش لا خلاق له لا يستحق العبادة أو الثناء ، ونسبة مثل هذا السلوك إلى « الأب الذى فى السماء » كفر فظيع . ووفق افتراضات لوثر يكون أسوأ المجرمين شهيداً بريئاً ، ذلك أن الرب قدر عليه الخطيئة ، ثم حكم عليه المنتقم الجبار بالعذاب فى نار جهنم خالداً فيها ، فكيف يستطيع أى مؤمن بحتمية القدر أن يقدم أى مجهود خلاق ، أو يعمل على تحسين أحوال البشر ؟ وأقر أرازموس بأن اختيار الإنسان رهن بآلاف الظروف ، التى لا يستطيع أن يتحكم فيها ، ومع ذلك فإن شعور الإنسان يصر على أن يؤكد أن له بعض الحرية ، وبدونها يكون آلة ذاتية الحركة لا معنى لها . وانتهى أرازموس إلى القول : على أية حال دعونا نسلم بجهلنا وبعجزنا فى التوفيق بين حرية الإنسان فى التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين سابق علم الله أو سبب وجوده فى كل مكان . دعونا نؤجل الحل إلى يوم القيامة ، ولكن فى الوقت نفسه دعونا نتجنب كل فرض يجعل من الإنسان مجرد دمية ، ومن الرب طاغية أنسى من أى طاغية عرف فى التاريخ .

وأرسل كليمنت السابع مائتى فلورين (٥,٠٠٠ ؟ دولار) إلى أرازموس ،

عند ما تسلم منه الرسالة ، وشعر معظم الكثالكة بخيبة الأمل بسبب اللهجة الفلسفية ، التى تنشد المصالحة ، والتى تنطوى عبارات الكتاب عليها ، فقد كانوا يأملون أن يسمعوا خبر إعلان حرب يطربون لها . والحق أن ميلانكتون الذى أعرب عن وجهة نظره فى الجبرية بكتاب **Loci Communes** تأثر كثيراً بالرأى الذى أبداه أرازموس ، وحذف نظريته فى هذا الموضوع ، وذلك فى الطبعات التى ظهرت فيما بعد[٩٩]. وكان هو أيضاً لا يزال يراوده الأمل فى السلام — ولكن لوثر دافع عن الجبرية بلا هوادة فى رد متأخر عنوانه **De Servo arbitro** عام ١٥٢٥ ، وقال :

« إن الإرادة البشرية مثل دابة الحمل ، إذا امتطاها الرب رغبت ، وانطلقت كما يشاء الرب ، وإذا امتطاها الشيطان رغبت ، وانطلقت كما يهوى الشيطان . وهى لا تستطيع أن تختار راكبها . . . والركاب يتنازعون على امتلاكها . . . والرب يعلم الغيب ، ويقدر ويعمل كل شىء ، بإرادة فعالة أزلية ، لا تتبدل ، وبهذه الإرادة القاهرة تغوص الإرادة الحرة ، وتتفتت فى التراب[١٠٠] » .

ومن الأمور ذات المغزى عن المزاج السائد فى القرن السادس عشر ، أن لوثر رفض التسليم بحرية الإرادة ، لا لأنها تتعارض مع حكم قانون عالمى وعلّية عالمية ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفكرين فى القرن الثامن عشر ، ولا لأنه يبدو أن الوراثة والبيئة والظرف تحدد ، كثالوث آخر ، الرغبات التى يبدو أنها تحدد الإرادة ، كما ذهب إلى ذلك كثيرون فى القرن التاسع عشر ، بل إنه رفض التسليم بالإرادة الحرة على أساس أن قدرة الله على كل شىء ، تجعله تعالى السبب الحقيقى لكل الحوادث وكل الأفعال ، وبالتالى فإنه تعالى ، وليست فضائلنا أو خطايانا ، هو الذى يحكم علينا بالخلاص أو العذاب الأبدى : ويواجه لوثر مرارة منطقه برجولة فيقول : « لقد أسىء إلى حسن الإدراك والعقل الفطرى ، إلى حد كبير ، بالقول بأن الله يتخلى عن عبده ويقسو عليه ويعذبه بمحض إرادته تعالى ، كما لو كانت

الخطيئة تسره ، والعذاب الأبدى يسعده ، وهو الذى يقال إنه رؤوف رحيم . ومثل هذا المفهوم عن الله يبدو خبيثاً قاسياً لا يغتفر ، ومن أجله ثار عدد من الرجال فى جميع العصور ، وأنا نفسى أسىء إلى مرة إساءة ، أردتنى فى هوة اليأس ، إلى حد أنى تمنيت لو أنى لم أخلق قط . ولا جدوى من محاولة الهروب من هذا بإيجاد فوارق بارعة ، ومهما أحس العقل الفطرى بما لحقه من إساءة فلا مفر من تسليمه بنتائج علم الله بكل شىء وقدرته على كل شىء . . . وإذا كان من الصعب الإيمان برحمة الله ورأفته ، عند ما يعذب من لا يستحقون العذاب ، فإننا يجب أن نتذكر أن عدالة الله لا تكون إلهية إذا أحاط بها عقل الإنسان »(١٠١) .

ومما امتاز به هذا العصر الرواج الذى حظيت به الرسالة التى عنوانها : « الإرادة المستعبدة » فقد بيع منها عدد كبير فى سبع طبعات باللغة اللاتينية وطبعتين باللغة الوطنية ، واشتد الإقبال عليها فى خلال سنة واحدة . وأثبت ذلك أنها أعظم مصدر للاهوت البروتستانتى ، وهكذا وجد كالفن عقيدة الجبر والاختيار والرفض **reprobation** ، التى نقلها إلى فرنسا وهولنده وسكوتلنده وانجلترا وأمريكا . ورد أرازاموس على لوثر فى مقالين نشرا فى كراستين دينيتين بعنــوان **Hyperaspistes** (المدافع) ١ و ٢ (١٥٢٦ — ١٥٢٧) ، ولكن رأى العصر كان فى جانب الرأى الذى انتهى إليه المصلح فى المناظرة . واستمر أرازموس ، حتى فى هذه المرحلة ، يبذل جهوده فى سبيل السلام . وأوصى كل من بعث إليهم برسائل بالتسامح واللطف فى المعاملة . . . ولقد ظن أن الكنيسة عليها أن تسمح لرجال الدين بالزواج وتناول القربان المقدس بالأسلوبين المعروفين ، وأنها يجب أن تتنازل عن بعض أملاكها الواسعة للسلطات الزمنية ، لكى تستخدمها فى مرافقها ، وأن أمثال المسائل الحاسمة كالجبر والاختيار وحضور المسيح بجسده فى القربان المقدس ، يجب أن تترك دون تحديد ومفتوحة

لمختلف التفسيرات[١٠٢] . وأشار على الدوق جورج صاحب ساكسونيا بمعاملة اللامعمدانيين بالرفق ، وقال : « ليس من العدل أن تعاقب بالنار على أى خطأ يرتكب ما لم يكن مقترناً بشغب أو بأية جريمة أخرى تعاقب عليها القوانين بالإعدام »[١٠٣] . وحدث هذا فى عام ١٥٢٤ ، ومهما يكن من أمر فإنه دافع عام ١٥٣٣ عن سجن الهراطقة ، الذى دعا إليه توماس مور[١٠٤] ، متأثراً بالصداقة أو الشيخوخة ، أما فى أسبانيا حيث أصبح بعض علماء الإنسانيات من مؤيدى أرازموس فقد بدأ رهبان محكمة التفتيش يفحصون أقوال أرازموس فحصاً منسقاً مستهدفين إدانته باعتباره هرطيقاً (١٥٢٧) . ومع ذلك فإنه استمر فى نقده لفجور الرهبان والجمود اللاهوتى ، باعتبارهما الحافزين الرئيسيين إلى الإصلاح الدينى . وكرر عام ١٥٢٨ الاتهام بأن كثيراً من الأديرة ، التى تضم الرهبان والراهبات ، « بيوت عامة للدعارة » وأن « آخر ما يوجد من فضائل فى أديرة كثيرة إنما هى فضيلة العفة[١٠٥] » . وأدان فى عام ١٥٣٢ الرهبان ، باعتبارهم متسولين يسألون فى إلحاح ، ومضللين يغوون النساء ، وصيادين ينطلقون فى إثر الهراطقة ، ومتصيدين للتركات ومزيفين للشهادات[١٠٦] . وكان يؤيد كل شىء لإصلاح الكنيسة بينما كان يستهجن الإصلاح الدينى . ولم يستطع أن يروض نفسه على التخلى عن الكنيسة ، أو أن يراها مشطورة إلى نصفين ، وقال : « إنى أتحمل الكنيسة إلى اليوم الذى أرى فيه كنيسة أفضل[١٠٧] » .

وارتاع عند ما سمع بنبأ نهب روما على يد فرق بروتستانتية وكاثوليكية تعمل فى خدمة الإمبراطور (١٥٢٧) . وكان قد راوده الأمل فى أن شارل سوف يشجع كليمنت على أن يتصالح مع لوثر ، ولكن البابا والإمبراطور كانا وقتذاك يمسك كل منهما بتلابيب الآخر . وأصيب بصدمة أكبر عند ما دمر المصلحون الدينيون ، فى ثورة ، التماثيل فى الكنائس (١٥٢٩) ، مع أنه كان قبل ذلك بعام واحد فقط قد ندد بعبادة التماثيل

وقال : « يجب أن يعلم الناس أن هذه ليست إلا رموزاً ، ومن الخير ألا يكون هناك شيء منها على الإطلاق ، وأن توجه الصلاة للمسيح وحده . ولكن ليكن رائدنا الاعتدال فى جميع الأمور »(١٠٨) . وهذا بالضبط موقف لوثر من الموضوع نفسه . ولكنه رأى أن التجريد الأهوج الغبي للكنائس من التماثيل رجعية همجية ، تتسم بضيق الأفق . وغادر بازيل ، وانتقل منها إلى فرايبورج — الواقعة على نهر برايسجاو ، فى أرض نمسوية كاثوليكية فاستقبلته سلطات المدينة بالترحيب والتكريم ، ومنحته قصر ماكسمليان الأول الذى لم يتم ، ليقيم فيه . وعند ما لم يصله المرتب ، الذى خصصه له الإمبراطور بانتظام أرسل إليه آل فوجر كل ما احتاج إليه من أموال ، بيد أن رهبان فرايبورج وعلماء اللاهوت فيها هاجموه باعتباره من معتنقى مذهب الشك فى الخفاء ، والسبب الحقيقى لما حدث فى ألمانيا من فتنة .

وعاد إلى بازيل عام ١٥٣٥ فخرج إليه وفد من أساتذة الجامعة مرحبين بعودته ، وخصص له جيروم فروبن ابن جوهان غرفاً فى منزله .

وكان وقتذاك قد بلغ التاسعة والستين ، بوجه هزيل تغضن بفعل السنين وكان يعانى من القروح والإسهال وداء النقرس والحصوة ونزلات البرد المتكررة . . . لاحظ اليدين المتورمتين فى رسم دورر . وحبس نفسه ، فى سنواته الأخيرة ، فى حجراته ، وكثيراً ما كان يلازم الفراش . وأضناه الألم ، وفقد بسمته الجميلة المألوفة ، التى كانت تحببه إلى أصدقائه ، وأصبح دائم العبوس ، وهو يكاد يسمع كل يوم عن هجمات جديدة يوجهها إليه البروتستانت والكثالكة . ومع ذلك فقد كانت ترد إليه يومياً تقريباً رسائل ، تفيض بالإخلاص والاحترام ، من ملوك أو بطاركة أو سياسيين أو علماء أو ماليين ، وكان مسكنه كعبة يحج إليها الأدباء . وأصيب فى السادس من يونية عام ١٥٣٦ بدوسنطاريا حادة ، وعرف أنه سوف يموت وشيكاً ، ولكنه لم يطلب قسيساً أو كاهناً يعترف له ، ومات (١٢ يونيه) ،

دون أن تجرى له الطقوس الدينية ، التى فرضتها الكنيسة ، وأخذ يكرر مبتهلا اسمى مريم والمسيح . وشيعته بازيل فى جنازة تليق بأحد الأمراء ، ودفن فى مقبرة بالكاتدرائية . واشترك علماء الإنسانيات وأسقف المدينة فى إقامة لوح حجرى فوق جثمانه ، ولا يزال هذا اللوح فى مكانه ، وقد أشادوا فيه بما اتصف به من « سعة علم لا تضارع فى كل فرع من فروع المعرفة » . ولم يترك فى وصيته ميراثاً لأغراض دينية ، ولكنه خصص مبالغ للعناية بالمرضى أو المسنين ، ولتقديم صداق للفتيات الفقيرات ، ولتعليم الشبان الواعدين .

ويتذبذب موقفه فى الأجيال القادمة مع تذبذب هيبة عصر النهضة ، فكل الطوائف تقريباً ، وصفته بأنه مذبذب جبان ، وذلك فى حماسة الثورة الدينية ، واتهمه أنصار الإصلاح الدينى بأنه قادهم إلى حافة الهاوية ، وأغراهم بأن يقفزوا ثم لاذ بالفرار . ووص فى مجلس مدينة ترنت بأنه هرطيق فاسق ، وحرمت مؤلفاته على الفقراء الكاثوليك . وفى أواخر عام ١٧٥٨ وصفه هوراس والبول بأنه « طفيلى متسول لديه من الشمائل ما يكفى لأن يتوصل إلى الحقيقة ، ولكنه يفتقر إلى الشجاعة لكى يعترف بها » [١٠٩]. وفى أواخر القرن التاسع عشر ، عند ما انقشع دخان المعركة ، أسف مؤرخ بروتستانتى صائب الرأى على مفهوم أرازموس عن الإصلاح الدينى ، وقال : « مفهوم لعالم . . . سرعان ما أوقف وطرح جانباً بوسائل فظة خشنة . ومع ذلك يحق لنا أن نتساءل أما كانت ، بعد كل شىء ، الطريقة البطيئة هى فى النهاية أكثر الطرق أمناً ، وهل كان أى عامل من عوامل تقدم الإنسانية يمكن أن يكون بديلا للثقافة على الدوام . لقد كان الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر من عمل لوثر ، ولكن إذا ظهر فى الأفق أى إصلاح دينى جديد . . . فإنه لا يمكن أن ينهض إلا على أساس مبادئ أرازموس » [١١٠] . ويضيف مؤرخ كاثوليكى تقديراً يكاد يكون مطابقاً

مطابقاً لمقتضيات العقل : « إن أرازموس كان ينتمى فكرياً إلى عصر لاحق علمى وعقلانى أكثر من عصره . والعمل الذى قد بدأ به والذى أوقفته الاضطرابات التى حدثت فى عهد الإصلاح الدينى استأنفه علماء القرن السابع عشر فى وقت لقى فيه قبولا أكثر »[(١١١)] ، وكان لا بد أن يكون لوثر ، ولكن عند ما قام بعمله ، وهدأت سورة الانفعال ، حاول الناس مرة أخرى أن يتشبثوا بروح أرازموس وروح النهضة ، وأن يجددوا ، فى صبر وتسامح متبادل ، الجهد الطويل البطىء لتنوير أذهان الناس .

الفصل العشرون

العقـــائد فى حرب

(١٥٢٥ — ١٥٦٠)

١ — التقدم البروتستانتى ١٥٢٥ — ٣٠

أى تحالف بين القوى والظروف مكن للبروتستانتية الوليـــدة من أن تعيش فى مواجهة عداء البابوية والإمبراطورية ؟ إن الورع الصوفى والدراسات الإنجيلية والإصلاح الدينى والتطور الفكرى وجرأة لوثر لم تكن كافية ، فقد كان من الممكن أن يصرف عنها النظر أو تتم السيطرة عليها . ولعل العوامل الاقتصادية هى التى كانت حاسمة : الرغبة فى الحفاظ على الثورة فى ألمانيا ، والرغبة فى تحرير ألمانيا من السيطرة البابوية والاستبداد الإيطالى ، وتحويل أملاك الكنيسة بحيث تستخدم للوفاء بالأغراض الدنيوية ، ودرء الاعتداءات الإمبراطورية على السلطة الإقليمية والقضائية والماليـــة للأمراء والمدن والحكومات . أضف إلى هذا بعض الظروف السياسية التى سمحت بنجاح البروتستانت ، فبعد أن فتحت الإمبراطورية العثمانية القسطنطينية ومصر ، أخذت فى مد رقعتها بدرجة خطرة فى بلاد البلقان وأفريقيا . وابتلعت نصف هنغاريا ، وحاصرت فينا ، وهددت بإغلاق البحر الأبيض المتوسط فى وجه تجارة العالم المسيحى ، وأصبح شارل الخامس والأرشيدوق فرديناند فى حاجة ماسة إلى توحيد ألمانيا والنمسا — أموالا ورجالا من البروتستانت والكاثوليك على السواء — لمقاومة هذا التهديد الإسلامى ، الذى يوشك أن يكتسح أمامه كل شيء . وكان الإمبراطور عادة مشغولا بشئون أسبانيا أو

الفلاندرز أو إيطاليا ، أو منهمكاً فى صراع مميت مع فرانسس الأول ملك فرنسا ، ولم يكن لديه متسع من الوقت أو فائض من الأموال لشن حرب أهلية فى ألمانيا . واتفق فى الرأى مع أرازموس ، الذى كان يحصل منه على معاش ، فى أن الكنيسة فى حاجة ماسة إلى الإصلاح ، وكان فى فترات متقطعة على خلاف مع كليمنت السابع وبول الثالث ، حتى فيما يختص بالسماح لجيشه بنهب روما . ولم يستطع الإمبراطور والبابا محاربة الثورة الدينية باقتدار ، إلا عند ما أصبحا صديقين .

ولكن ما أن حل عام ١٥٢٧ حتى كانت « الهرطقة اللوثرية قد أصبحت مذهباً للمحافظين فى نصف ألمانيا ، ووجدت المدن أن البروتستانتية تعود عليها بالفائدة وقال ميلانكتون فى أسى « إنهم لا يبالون ، ولو قليلا ، بالدين ، وهم لا يتطلعون إلا إلى وضع الأملاك بين أيديهم ، وأن يتحرروا من أشراف الأساقفة »[1] . ونجوا بتغيير طفيف للمسوح الدينية من الضرائب والمحاكم ، واستطاعوا أن ينزعوا أجزاء لا بأس بها من أملاك الكنيسة[2] ، ومع ذلك يبدو أن رغبة صادقة فى دين يتميز بالبساطة والإخلاص ، قد أثارت الكثير من المواطنين . ففى ماجديبرج اجتمع عدد من أعضاء أبرشية سانت أولريخ فى فناء الكنيسة ، واختاروا ثمانية رجال ، لكى ينتخبوا بدورهم الواعظ ، وليديروا شئون الكنيسة (١٥٢٤) وسرعان ما كانت كل الكنائس فى المدينة تناول العشاء الربانى بالطريقة اللوثرية . وكانت أوجسبورج شديدة الحماسة للبروتستانتية ، إلى حد أن العامة لقبوا كامبيجيو ، عند ما وصل هناك بصفته قاصداً رسولياً للبابا ، بأنه خصم للمسيح (١٥٢٤) . وتقبل معظم أهالى ستراسبورج اللاهوت الجديد من ولفجانج فابريسيوس كابيتو (١٥٢٣) ، وحمل مارتن بوسر الذى خلفه هناك فى أولم على اعتناق الدين الجديد أيضا . وفى نورمبرج كسب كبار رجال الأعمال ، أمثال لازاروس شبينجلر وهيرونيموس باومجيرتنر ، مجلس المدينة إلى

صف العقيدة اللوثرية (١٥٢٦) ، وحولت كنيسة زيبالدوس وكنيسة مورنز الشعائر التى تقام فيهما لتكون وفق هذه العقيدة ، بينما احتفظتا بفنهما الكاثوليكى . وانتشرت مؤلفات لوثر انتشاراً واسعاً فى برونزفيك ، ورتلت أناشيده علناً ، ودرست نسخته عن العهد الجديد باهتمام وجد ، حتى أن المصلين قاموا بتصحيح خطأ وقع فيه قسيس ، وهو يستشهد بفقرات منها ، وفى نهاية الأمر أصدر مجلس المدينة أمراً إلى كل رجال الدين بألا يرددوا فى عظاتهم إلا ما وجد فى نصوص الكتب المقدسة ، وأن يقوموا بمراسيم العماد باللغة الألمانية وأن يناولوا القربان المقدس بكلا الشكلين (١٥٢٨) . وما إن حل عام ١٥٣٠ حتى كان المذهب الجديد قد كسب إلى صفه هامبورج وبريمن وروستوك ولوبيك وسترالزوند ودانزج ودوربات وريجا وريفال وكل المدن الإمبراطورية فى سوابيا تقريباً . وشبت ثورات لتحطيم الأصنام فى أوجسبورج وهامبورج وبرونزفيك وسترالزوند . ولعل جانباً من هذا العنف كان رد فعل لاستخدام رجال الدين للتماثيل والصور الزيتية ، لغرس أساطير مضحكة ، تعود عليهم بالربح ، فى عقول الناس .

وليس من شك فى أن الأمراء الذين تبنوا باغتباط القانون الرومانى ، الذى يجعل الحاكم الزمنى قادراً على الكثير باعتباره مفوضاً من « الشعب صاحب السيادة » ، قد رأوا فى البروتستانتية ديناً لا يرفع من شأن الدولة فحسب ، بل جعلها تمتثل لأوامرها أيضاً ، وأصبح فى وسعهم وقتذاك أن يكونوا سادة روحيين وزمنيين على السواء ، ويمكن أن يديروا الكنيسة بأسرها أو يستمتعوا بها . وقبل جون الحازم الذى خلف فردريك الحكيم كأمير مختار لساكسونيا (١٥٢٥) أن يعتنق بصفة نهائية العقيدة اللوثرية ، وهو ما لم يفعله فردريك قط ، وحينما مات جون (١٥٣٢) فإن ابنه جون فردريك أبقى البروتستانتية موطدة فى سكسونيا الانتخابية ، وكون فيليب الشهم لاندجراف هس مع جون حلف جوثا وتورجا لحماية اللوثرية

ونشرها ، وانخرط فى سلك اللوثرية أمراء آخرون : أرنست اللونيبرجى ، وأوتو وفرانسس أمير برونزفيك لونيبرج ، وهنرى أمير ميكلينبورج وأولريخ أمير فيرتتيمبرج . واستمع ألبرت ، البروسى كبير رهبان دير الفرسان التيوتونيين ، إلى نصيحة لوثر ، وتخلى عن عهوده الرهبانية ، وتزوج وخصص الأراضى التى تملكها طائفته للأغراض الدنيوية ، ونصب نفسه دوقا على بروسيا (١٥٢٥) . ورأى لوثر نفسه ، فيما يبدو ، بقوة شخصيته وفصاحته فحسب ، يكسب إلى صفه نصف ألمانيا .

ولما كان الكثيرون من الرهبان والراهبات يتركون أديرتهم وقتذاك ، وبدا أن الجمهور لا يريد أن يؤيد من بقى منهم ، فإن الأمراء اللوثريين اضطهدوا كل الأديرة الواقعة فى أقاليمهم ، ولم يستثنوا إلا قلة كان نزلاؤها قد اعتنقوا العقيـــدة البروتستانتية ، ووافق الأمراء على أن يتقاسموا الأملاك المصادرة والدخول مع النبلاء والمدن وبعض الجامعات ، ولكن هذا التعهد نقض فى تراخ . وندد لوثر بتخصيص الثروة الكنسية لغير الأغراض الدينية أو التعليمية ، وأدان استيلاء طبقة النبلاء المتسم بالتهور على مبانى الكنيسة وأراضيها . وتم التنازل عن جانب متواضع من الغنائم للمدارس وللتفريج عن الفقراء . أما الباقى فقد احتفظ به الأمراء والنبلاء . وكتب ميلانكتون (١٥٣٠) يقول : « تحت ستار الإنجيل كانت نية الأمراء متجهة إلى سلب الكنائس فحسب»[٣] . وأخذ التحول العظيم يسير قدماً إلى الأمام للخير أو للشر ، لأغراض روحية أو مادية ، واعتنقت مقاطعات بأكملها — إيست فريزلاند وسيليزيا وشليزفيج وهولستين — البروتستانتية بالإجماع تقريباً . ولا شىء يمكن أن يوضح مدى ما وصلت إليه الكاثوليكية المحتضرة خير من هذا . وحيثما بقى القساوسة استمروا فى تأييدهم لاتخاذ حظايا[٤] ، ورفعوا عقائرهم بالصياح ، مطالبين بالسماح لهم بالزواج الشرعى ، كما يفعل رجال الدين من أتباع لوثر[٥] . وأبلغ الأرشيدوق فرديناند البابا بأن الرغبة فى الزواج تكاد تكون عامة بين رجال الدين الكثالكة من غير الرهبان ، وأنه لا يكاد يوجد واحد من بين كل مائة من القسس

لم يتزوج علناً أو سراً . وتوسل الأمراء الكاثوليك للبابا وأبلغوه أن إلغاء العزوبة المفروضة على رجال الدين قد أصبحت ضرورة أخلاقية[٦] . وشكا كاثوليكي مخلص (١٥٢٤) من أن الأساقفة استمروا في إقامة الولائم الفخمة[٧] ، على الرغم من أن الثورة كانت تطرق أبوابهم . وكتب مؤرخ كاثوليكي ، وهو يتحدث عن البرخت كبير أساقفة ماينز ، يصف « الشقق الفاخرة الأثاث التي استغلها هذا الأمير الدنس من أمراء الكنيسة لمضاجعة عشيقته سراً »[٨] . ويقول نفس المؤرخ : « لقد أصبح كل إنسان يناصب القسس العداء ، إلى حد أنهم يقابلون بالسخرية ، ويتعرضون للمضايقات أينما ذهبوا »[٩] ، وكتب أرازاموس (٣١ يناير عام ١٥٣٠) يقول : « إن الناس في كل مكان يؤيدون العقائد الجديدة »[١٠] . ومهما يكن من أمر فقد كان هذا صحيحاً في شمال ألمانيا فقط ، وحتى هناك أصر الدوق جورج أمير ساكسونيا والأمير المختار جواكيم البراندنبورجي على أن يظلا كاثوليكيين أما جنوب ألمانيا وغربها ، اللذان كانا جزءاً من الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وتلقى أهلها شيئاً من الثقافة اللاتينية ، فإنهما ظلا في معظم أجزائهما يدينان بالولاء للكنيسة ، وآثر جنوبها الطرق المرحة الملونة التي تنحو نحو التساهل في المسائل الجنسية ، والتي تميزت بها الكاثوليكية ، وفضلتها على فلسفة الرواقية التي تقول بالجبر ، وتسود في الشمال . وحافظ كبيرو الأساقفة المختارون الأقوياء في ماينز وترير وفي كولونيا (إلى عام ١٥٤٣) على أن تسود الكاثوليكية في بلادهم ، وأنقذ البابا أرديان السادس بافاريا بمنح دوقاتها خمس دخل الكنيسة في ولايتهم ، لصرفه على شئونهم الدنيوية . وهدأت منحة مماثلة من دخول الكنيسة من سورة غضب فرديناند في النمسا .

ودخلت هنغاريا إلى المسرح بصورة جوهرية . وكان ارتقاء لويس الثاني للعرش قبل الأوان ، وهو في العاشرة من عمره ، ووفاته أيضاً في سن مبكرة ، من العوامل التي أسهمت في تكوين المأساة الهنغارية . بل إن مولده حدث قبل الأوان وأنقذ الأطباء في ذلك العهد حياة الطفل الضعيف

بوضعه داخل الجثث الدافئة للحيوانات التي كانت تذبح ، لتوفر له الحرارة . وترعرع لويس وأصبح شاباً وسيما رقيق الفؤاد كريماً ، ولكنه اعتاد التبذير وإقامة الولائم رغم موارده الهزيلة ، وسط حاشية فاسدة تفتقر إلى الكفايات . وعند ما أرسل السلطان سليمان سفيراً إلى بودا رفض النبلاء أن يستقبلوه ، وطافوا به حول البلد وجدعوا أنفه ، وصلموا أذنه ، وأعادوه إلى سيده[١] . فما كان من السلطان الحانق إلا أن غزا هنغاريا ، واستولى على معقلين من أعظم معاقلها حيوية ، وهما ساباكس وبلغراد (١٥٢١) . وبعد تمهل طويل ووسط خيانة نبلائه وجبنهم جهز لويس جيشاً قوامه ٢٥,٠٠٠ من الرجال ، وزحف في بطولة متهورة ليواجه ١٠٠,٠٠٠ تركي في ميدان قرب موهاكس (٣٠ أغسطس سنة ١٥٢٦) . وقتل الهنغاريون عن بكرة أبيهم تقريباً . وغرق لويس نفسه ، بعد أن كبا به جواده ، وهو يحاول الفرار . ودخل سليمان مدينة بودا منتصراً ونهب جيشه العاصمة الجميلة وأحرقها ، ودمر كل مبانيها العظيمة ما عدا القصر الملكي ، وأشعل النيران في الجانب الأكبر من مكتبة ماتياس كورفينوس الثمينة .

وانتشر الجيش المنتصر في النصف الشرقي من هنغاريا ، وأخذ يحرق وينهب ، واستاق سليمان ١٠٠,٠٠٠ أسير مسيحي إلى القسطنطينية .

وانقسم الأقطاب ، الذين بقوا على قيد الحياة ، فرقاً وأحزاباً ، يناصب بعضها بعضاً العداء ، ورأت جماعة أن المقاومة مستحيلة ، فاختارت جون زابوليا ملكاً وخولته سلطة توقيع معاهدة استسلام ، وسمح له سليمان أن يحكم في بودا ، باعتباره تابعاً له ، أما النصف الشرقي من هنغاريا فقد ظل في الواقع تحت سيطرة الأتراك حتى عام ١٦٨٦ . واتخذ حزب آخر مع النبلاء في بوهيميا لمنح فرديناند تاج كل من هنغاريا وبوهيميا ، وذلك بأمل ضمان الحصول على مساعدة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأسرة هابسبورج القوية . وعند ما عاود سليمان الهجوم (١٥٢٩) ، وسار ١٣٥ ميلا من

بودا على طول نهـــر الدانوب إلى أبواب فينا دافع فرديناند بنجاح عن عاصمته ، ولكن فى خلال هذه السنوات الحرجة كان شارل الخامس قد أكره على مهادنة البروتستانت ، حتى لا تسقط أوربا كلها فى أيدى الإسلام ، وليس من شك فى أن تقدم الأتراك غرباً قد وفر الحماية للبروتستانتية حتى أن فيليب الهسى كان يطرب لانتصارات الأتراك . وعند ما فشل سليمان فى اقتحام فينا عاد إلى القسطنطينية ، وبذلك أصبح الكثالكة والبروتستانت أحراراً ليدخلوا من جديد فى صراع من أجل روح ألمانيا .

٢ ــ مجالس الدايت لا توافق
(١٥٢٦ ــ ١٥٤١)

لما كانت الحرية الداخلية تختلف (بينما تتساوى أمور أخرى) باختلاف درجات الأمن الخارجى ، فإن البروتستانتية تورطت ، أثناء فترة أمنها ، فى انقسام طائفى ، يبدو أنه كان كامناً فى مبادئ الحكم الفردى وسيادة الضمير . وكتب لوثر عام ١٥٢٥ : « هناك اليوم طوائف وعقائد بقدر عدد الرؤوس تقريباً »[١٢] . وشغل ميلانكتون نفسه فى حزن بالتخفيف من حدة سيده ، وأخذ يتلمس صيغاً مبهمة للتوفيق بين اليقينيات المتناقضة . وأشار الكاثوليك باغتباط إلى الأحزاب البروتستانتية ، التى تتبادل الاتهامات ، وتنبأوا بأن حرية التفسير وحرية الاعتقاد تؤديان إلى فوضى دينية . وانحلال خلقى ، وشكية بغيضة إلى البروتستانت والكاثوليك على السواء[١٣] . وفى عام ١٥٢٥ أقصى من مدينة نورمبرج البروتستانتية ثلاثة من الفنانين لأنهم تساءلوا عن مؤلف الإنجيل ، وعن وجود المسيح بجسده حقاً فى القربان المقدس ، وعن ألوهية المسيح .

وبينما كان سليمان يعد الحملة ، التى مزقت هنغاريا إلى شطرين ، اجتمع فى سبير (يونيه سنة ١٥٢٦) مجلس نيابى من الأمراء والبطارقة والأوساط من الألمان ، لتبادل الرأى فى المطالب التى تقدم بها الكاثوليك ، ومؤداها أن مرسوم ورمس يجب أن ينفذ بالقوة والنظر فى الاقتراح المضاد الذى

تقدم به البروتستانت ، ومؤداه أن الدين يجب أن يترك حراً ، إلى أن يقضى فى النزاع مجلس عام ، تحت رعاية ألمانيا . ورجحت كفة البروتستانت وقضى مرسوم هذا المجلس النيابى فى الختام — وهو معلق على مجلس مثل هذا — بأن كل ولاية ألمانية « يجب أن تعيش وتحكم وتتحمل أعباء نفسها ، بالطريقة التى يعتقد أنها يمكن أن تتفق مع أمر الله والإمبراطور » ، وذلك فى موضوع الدين ، وأنه يجب ألا يعاقب أحد على ما ارتكبه من إساءات لمرسوم ورمس ، وأن كلمة الله يجب أن يعظ بها كل الأحزاب ، دون أن يتدخل أحدها فى شئون الآخرين . وفسر البروتستانت هذا بأنه « مرسوم سبير » ، باعتبار أنه أباح تأسيس الكنائس اللوثرية ، ووفر السيادة الدينية لكل أمير فى إقليمه ، وحرم إقامة القداس فى المناطق التى تدين بمذهب لوثر . ورفض الكثالكة التسليم بهذه الدعاوى ، ولكن الإمبراطور ، وهو مشتبك مع البابا ، قبلها مؤقتاً ، وسرعان ما انشغل فرديناند ، إلى أقصى حد ، بشئون هنغاريا ، فلم يستطع أن يبذل أى جهد فعال للمقاومة .

وبعد أن حقق شارل السلام بينه وبين كليمنت ، عاد إلى سياسة المحافظين ، التى فطر عليها كل ملك ، وأمر المجلس النيابى فى سبير أن يعود إلى الانعقاد يوم أول فبراير عام ١٥٢٩ . وقام المجلس الجديد تحت تأثير الأرشيدوق ، الذى تولى رئاسته ، والإمبراطور الذى تغيب عن الحضور بإلغاء « المرسوم » الذى وافق عليه عام ١٥٢٦ ، وأصدر مرسوماً يسمح بأداء الصلاة وفق مذهب لوثر ، ولكنه يقضى بالتسامح فى أداء الصلوات الكاثوليكية ، فى الولايات التى تعتنق مذهب لوثر . ويحرم تماماً الوعظ بمبادئ لوثر أو إقامة الشعائر حسب مذهبه فى الولايات الكاثوليكية . وأيد تنفيذ مرسوم ورمس ، واعتبار الطوائف الزونجلية واللامعمدانية فى كل مكان خارجة على القانون . وفى يوم ٢٥ أبريل عام ١٥٢٩ نشرت الأقلية اللوثرية « احتجاجاً **Protest** » أعلنوا فيه أن الضمير يحرم عليهم قبول هذا المرسوم ، والتمسوا من الإمبراطور عقد مجلس عام . وفى الوقت

نفسه أعلنوا أنهم على استعداد للتمسك بمرسوم سبيير الأصلى بأى ثمن . وأطلق الكاثوليك اسم بروتستانت على من وقعوا هذا الاحتجاج ، وبالتدريج استخدم للدلالة على الألمان المتمردين على روما .

وأدرك شارل أنه لا يزال فى حاجة إلى اتحاد ألمانيا ضد الأتراك ، فدعا إلى الانعقاد مجلساً نيابياً آخر ، فانعقد فى أوجسبورج (٢٠ يونيه عام ١٥٣٠) برئاسته . وفى خلال دورة هذا المجلس أقام مع أنطون فوجر ، وكان وقتئذاك رئيساً للمؤسسة ، التى جعلت منه إمبراطوراً . وطبقاً لقصة قديمة أدخل المصرفى السرور على قلب الحاكم بإشعال نار ألقى فيها بشهادة ، يقر فيها الإمبراطور بمد يونيته[١٤] ، ولما كان آل فوجر مرتبطين مالياً مع البابوات ، فإن الحركة المذكورة ربما تكون قد دفعت شارل إلى أن يخطو خطوة يقترب بها من البابوية . ولم يحضر لوثر لأنه كان لا يزال تحت الحظر الإمبراطورى ، ومن الممكن أن يقبض عليه فى أى لحظة ، ولكنه ذهب إلى كوبورج الواقعة على حدود ساكسونيا ، واستمر فى الاتصال بالوفد البروتستانتى عن طريق الرسل . وشبه المجلس بجمع من غربان الزرع ، التى تصفق أجنحتها ، وتناور أمام نوافذ بيته ، وشكا من أن « كل أسقف جاء ومعه شياطين كثيرة ، بقدر عدد البراغيث على جسد كلب فى يوم عيد القديس يوحنا»[١٥] . وكان من الواضح فى هذا العهد أنه ألف أعظم أناشيده « الحصن الحصين هو ربنا » .

وفى يوم ٢٤ يونيه التمس الكاردينال كامبيجيو من المجلس النيابى تحريم إنشاء الطوائف البروتستانتية تحريماً تاماً . وفى الخامس والعشرين قرأ كريستيان باير الإمبراطور وبجانب من المجلس إقرار أوجسبورج الشهير ، الذى كان ميلانكتون قد أعده ، والذى قدر له أن يصبح بشىء من التعديلات العقيدة الرسمية للكنائس اللوثرية . ولأن ميلانكتون قد خشى قيام القوات الإمبراطورية والبابوية معاً بحرب ضد البروتستانت المنقسمين من ناحية ، ولأنه كان يميل بفطرته إلى المهادنة والسلام من ناحية أخرى ، أضفى على الإقرار

(كما يقول باحث كاثوليكي) «لهجة مشرفة معتدلة مسالمة»(١٦) . وسعى إلى تقليل الخلافات بين آراء الكاثوليك وآراء اللوثريين ، وأفاض فى الهرطقات التى أدانها الإنجيليون (كما كان اللوثريون يسمون أنفسهم بسبب اعتمادهم فحسب على الأناجيل أو على العهد الجديد) والكاثوليك الرومان على السواء ، وفرق بين الإصلاح اللوثرى والإصلاح الزونجلى ، وترك الأخير يتحايل لنفسه . وخفف من العقائد التى تقول بالجبرو «التجسيد» والتزكية بالإيمان ، وكتب باعتدال عن مظالم رجال الدين ، التى كانت البروتستانتية قد قللت منها ، ودافع مجاملا عن تناول القربان المقدس فى كل من الشكلين ، وعن التحلل من عهود الرهبانية ، وعن زواج رجال الدين ، وطلب من الكاردينال كامبيجيو أن يتقبل هذا الإقرار بقبول حسن ، كما دبجه به . وأسف لوثر لبعض ما قدمه من تنازل ، ولكنه أعرب عن رضاه ، الذى لم يكن منه مفر ، عن هذه الوثيقة ، وأرسل زونجلى تقريره إلى الإمبراطور وقد أعرب فيه بصراحة عن عدم إيمانه بوجود المسيح بجسده فى القربان المقدس ، وقدمت ستراسبورج وكونستانس وليندا‌و وممنجن إقراراً منفصلا هو : Tetra Politana ، وفيه جاهد كابيتو وبوسر لسد الثغرات ، التى بدت بين العقائد اللوثرية والزونجلية والكاثوليكية .

ورد الحزب المتطرف من الكاثوليك الذى يتزعمه إيك رداً مدعماً بالبراهين ، فندوا فيه الاتهام بصورة لا تقبل التفاهم ، إلى حد أن المجلس رفض أن يقدمه إلى الإمبراطور ، حتى خففت لهجته مرتين . وعلى الرغم من مراجعته فإنه أصر على التجسيد والشعائر السبع والتوسل بالقديسين وفرض العزوبة على رجال الدين ومناولة القربان بالخبز والقداس باللغة اللاتينية ، ووافق شارل على هذا الرد المدعم بالبراهين ، وأعلن أن على البروتستانت أن يقبلوه وإلا واجهوا الحرب .

ولقد تفاوض حزب أكثر اعتدالا من الكاثوليك مع ميلانكتون ،

وعرضوا عليه السماح بتناول القربان بالخبز والنبيذ . فوافق ميلانكتون بدوره على التسليم بالاعتراف السماعى والصيام والسلطة القضائية للأساقفة ، بل وسلطة البابوات ، مع بعض التحفظات ، غير أن الزعماء البروتستانت الآخرين رفضوا أن يذهبوا فى الاتفاق إلى هذا الحد ، واحتج لوثر ، وقال : إن إعادة الولاية القضائية للأساقفة سيؤدى إلى إخضاع القسس الجدد للدرجات الكهنوتية فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وإلى تصفية الإصلاح الدينى فى أقرب وقت . ورأى عدد من الأمراء البروتستانت استحالة الاتفاق ، فعادوا أدراجهم إلى أوطانهم .

وفى التاسع عشر من نوفمبر أصدر المجلس النيابى ، الذى كان قد نقص عدد أعضائه ، مرسومه النهائى أو مرسومه الأخير ، وقد أدينت فيه كل وجوه البروتستانتية ؛ ونص على تنفيذ مرسوم ورمس ، وعلى مجلس العدالة الإمبراطورى أن يبدأ فى اتخاذ الإجراءات القانونية ضد جميع الذين انتزعوا أملاك الكنيسة ، وأعطى البروتستانت مهلة تنتهى فى ١٥ أبريل عام ١٥٣١ لقبول الرد المدعم بالبراهين بطريقة سلمية . وأضفى توقيع شارل على « مرسوم أوجسبورج » صفة المرسوم الإمبراطورى ولا بد أن الإمبراطور قد خال أن منح المتمردين مهلة الشهور الستة ، لكى يروضوا أنفسهم على تنفيذ إرادة المجلس النيابى ، ذروة التعقل ، وفى خلال تلك الفترة عرض عليهم الإعفاء من تنفيذ مرسوم ورمس ، ولذلك فإنه قد يتقدم ، إذا سمحت واجبات أخرى ، القواعد المتناظرة فى علم اللاهوت إلى محكمة الحرب العليـــا .

وبينما كان المجلس النيابى فى ذورة انعقاده أقامت عدة ولايات حلفاً كاثوليكياً فيما بينها ، للدفاع عن العقيدة التقليدية واستعادتها . وفسر هذا بأنه نذير بالحرب ، فنظم الأمراء البروتستانت والمدن البروتستانتية الحلف الشمالكالدى ، الذى اتخذ اسمه من موطنه الأصلى بالقرب من أرفورت .

وعندما انتهت مهلة العفو ، اقترح فرديناند ، الذى أصبح وقتذاك ملكاً على الرومان ، أن يبدأ شارل بالحرب ؛ ولكن شارل لم يكن على استعداد ، وكان سليمان يخطط لهجوم آخر على فينا ؛ كما أن باربروسا حليف سليمان كان يغير على السفن التجارية فى البحر الأبيض المتوسط ، يضاف إلى ذلك أن فرانسيس ملك فرنسا — وهو حليف سليمان أيضاً — كان يتأهب للانقضاض على ميلان فى اللحظة التى يتورط فيها شارل فى حرب أهلية بألمانيا . وفى أبريل عام ١٥٣١ أوقف شارل مرسوم أوجسبورج بدلا من وضعه موضع التنفيذ ، وطلب المعونة من البروتستانت لقتال الأتراك ؛ فاستجاب لوثر والأمراء معربين عن ولائهم ، ووقع اللوثريون والكاثوليك معاهدة سلام فى نورمبرج (٢٣ يوليه عام ١٥٣٢) ، وتعهدوا بتقديم العون إلى فرديناند ، والتسامح الدينى فيما بينهما إلى أن ينعقد مجلس دينى عام . واحتشد جيش كبير من الألمان البروتستانت والكاثوليك ؛ ومن الأسبان والإيطاليين والكاثوليك ، تحت لواء الإمبراطور فى فينا ، فوجد سليمان أن الظروف غير مواتية . فعاد أدراجه إلى القسطنطينية ، بينما انتشى الجيش المسيحى بخمر النصر ، الذى خلا من إراقة الدماء ، وأعمل يد السلب والنهب فى المدن والبيوت ، وقال شاهد عيان هو توماس كرانمر الإنجليزى « وأوقع بالبلاد كارثة أعظم مما جلبه الأتراك أنفسهم »(١٧) .

ولقد أضفت وطنية البروتستانت على حركتهم رفعة جديدة ودفعة قوية ، وعند ما عرض إليانلدر ، الذى عين رسولا بابوياً مرة أخرى ، على الزعماء اللوثريين سماع دعواهم أمام مجلس عام ، إذا وعدوا بالامتثال لقرارات المجلس النهائية ، رفضوا الاقتراح ، وبعد مرور عام (١٥٣٤) قبل فيليب الهسى العون الفرنسى ، لكى يستعيد الدوق أولريخ البروتستانتى السلطة فى فيرتمبورج ، مستخفاً بإدانة لوثر لانتهاج سياسة هجومية . وقضى هناك على حكم فرديناند ، ونهبت الكنائس وأغلقت الأديرة ، واستولت الحكومة على أملاكها(١٨) . وأصبحت الظروف مرة أخرى مواتية للبروتستانت .

فقد كان فرديناند مشغولا فى الشرق ، وشارل منهمكاً فى الغرب ، وكان من الواضح أن اللامعمدانيين يدعمون ثورة شيوعية فى منستر . واستولى المتطرفون فى يورجن فولنفيفر على لوبيك (١٥٣٥) ، وأصبح الأمراء الكاثوليك فى ذلك الوقت فى حاجة إلى عون لوثر ، لمواجهة الثورة الداخلية ، بقدر حاجتهم إليه فى حربهم ضد العثمانيين ، وفضلا عن هذا فإن اسكنديناوة وانجلترا تخلتا عن روما فى هذا الوقت ، وأخذت فرنسا الكاثوليكية تنشد التحالف مع ألمانيا اللوثرية ضد شارل الخامس .

وطرب الحلف الشمالكالدى بهذه القوة النامية ، فطالب بحشد جيش قوامه ١٢,٠٠٠ رجل ، وعندما سأل البابا الجديد بول الثالث عن الشروط ، التى يقبل بها الحلف مجلساً دينياً عاماً ، أجاب بأنه لن يعترف إلا بمجلس ينعقد مستقلا عن البابا ، ويتألف من زعماء ألمانيا الزمنيين والدينيين على السواء ، وأنه يرحب بالبروتستانت ليشتركوا فيه على قدم المساواة[١٩] ، ولا يعتبرهم هراطقة . ورفض الحلف قبول مجلس العدالة الإمبراطورى ، وأبلغ نائب رئيس وزراء الإمبراطور أنه لن يسلم بحق الكاثوليك فى الاحتفاظ بأملاك الكنيسة : أو بحقهم فى القيام بالعبادة وفق شعائرهم فى أراضى الأمراء البروتستانت[٢٠] . وجددت الولايات الكاثوليكية تكوين حلفها ، وطالبت شارل بدعم السلطات المخولة لمجلس العدالة الإمبراطورى ، فرد عليهم بكلمات رقيقة ، ولكن خوفه من أن يطعنه فرانسيس الأول فى ظهره جعله فى حرج .

واستمر المد البروتستانتى يتعاظم ، ويقول مؤرخ كاثوليكى : « فى اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٥٣٨ كتب أليانندر إلى البابا من مدينة لينز يقول إن الحالة الدينية فى ألمانيا منهارة تقريباً ، وقد كادت تتوقف عبادة الله ، ومناولة القربان . وكان الأمراء الزمنيون جميعاً ، ما عدا فرديناند الأول ، إما من أتباع لوثر المخلصين ، أو ممن يمقتون نظام القساوسة مقتاً بالغاً ، ويطمعون فى أملاك الكنيسة . أما البطارقة ، فكانوا يعيشون فى بذخ

كعهدهم من قبل . وتضاءلت الرتب الدينية إلى ما يعد على أصابع اليدين ، ولم يكن رجال الدين من غير الرهبان أكثر عدداً ، وكانوا على درجة من الانحلال والجهل . إلى حد أن بعض الكثالكة أعرضوا عنهم »[٢١] .

وعند ما توفى الدوق الكاثوليكى جورج صاحب البرتين ساكسونيا ، خلفه شقيقه هنرى . وكان من أتباع لوثر ، وخلف موريس بدوره هنرى وكان المنقذ العسكرى للبروتستانتية فى ألمانيا . وفى عام ١٥٣٩ شيد يواقيم الثانى الأمير المختار فى براندنبورج كنيسة بروتستانتية فى عاصمته برلين معتزاً باستقلالها عن كل من روما وفيتنبرج . وفى عام ١٥٤٢ أضيفت إلى قائمة البروتستانت دوقية كليفس وأسقفية نارمبورج بل وكرسى أسقفية ألبرخت فى هال بطريقة جمعت بين السياسة والحرب كل فى حينه . وفى عام ١٥٤٣ روع الكونت هرمان فون فيد ، كبير أساقفة كولون وأميرها المختار ، روما بتحوله إلى المذهب اللوثرى ، وكان الزعماء اللوثريون واثقين بأنفسهم إلى حد أن لوثر وميلانكتون وآخرين أصدروا فى يناير عام ١٥٤٠ بياناً ينص على أن السلام لا يمكن أن يسود إلا بتخلى الإمبراطور ورجال الدين الكاثوليك عن « عبادتهم للأوثان وضلالهم » . ولن يتم ذلك إلا باعتناقهم العقيدة الطاهرة ، التى وردت فى إقرار أوجسبورج ، واستطردت الوثيقة تقول : « حتى إذا كان على البابا أن يسلم لنا بما نعتنقه من عقائد ، وما نقوم به من شعائر ، فإننا مضطرون إلى معاملته باعتباره ظالماً متعسفاً ، منبوذاً ، ما دام أنه لن يتبرأ من أخطائه فى ممالك أخرى » . وقال لوثر : « لقد انتهى كل ما بيننا وبين البابا كما انتهى ما بيننا وبين ربه ، الشيطان »[٢٢] .

ووافق شارل ، أو كاد ، لأنه اتخذ زمام المبادرة من البابا فى أبريل عام ١٥٤٠ ، ودعا زعماء الكاثوليك والبروتستانت فى ألمانيا إلى الاجتماع فى « ندوة مسيحية » ، ليبحثوا مرة أخرى عن تسوية سلمية لخلافاتهم . وكتب قاصد رسولى « ما لم يتدخل البابا بطريقة حاسمة ، فإن ألمانيا بأسرها سوف تسقط فى براثن البروتستانت » . وفى مؤتمر تمهيدى بورمس دار

جدال طويل بين إيلث وميلانكتون ، انتهى إلى أن الكاثوليك ، الذين كانوا يرفضون من قبل التفاهم ، قبلوا على سبيل التجربة المبادئ ، التى تدل على رحابة الصدر ، والتى صيغت فى إقرار أوجسبورج[٢٣] . وتشجع شارل فاستدعى جماعتين إلى راتيسبون (رجنزبورج) ، وهناك عقدا اجتماعا تحت رئاسته (٥ أبريل — ٢٢ مايو عام ١٥٤٢) . وتقاربت آراؤهما إلى أقصى حد ، للوصول إلى تسوية ، وكان بول الثالث على استعداد للسلام ، وكان كبير مندوبيه الكاردينال جاسبارو كونتاريني رجلا حسن النية وعلى خلق رفيع . أما الإمبراطور فقد أزعجته تهديدات فرنسا واستغاثة فرديناند به ، لمعاونته على صد الأتراك ، الذين عادوا للإغارة عليه . وهذا كان تواقا جداً إلى عقد الاتفاق المنشود ، إلى حد أن الكثيرين من زعماء الكاثوليك ارتابوا فى أن له ميولا بروتستانتية . وتلاقت آراء المشتركين فى المؤتمر وانتهت إلى السماح بزواج رجال الدين ، وتناول القربان بالأسلوبين المعروفين ، ولكن ما كان لأى شعوذة أن تجد فى الحال صيغة تؤكد وتنفى فى الوقت نفسه رئاسة البابوات الدينية والتجسيد فى القربان المقدس ، ولم يجد كونتاريني تفكهة فى سؤال وجهه إليه بروتستانتى عما إذا كان الفأر الذى يقرض قطعة سقطت من القربان المقدس ، يأكل الخبز أم الرب[٢٤] ، وفشل المؤتمر ، لكن شارل قطع على نفسه عهداً موقوتاً للبروتستانت ، وهو يخف للحرب ، بعدم اتخاذ أى إجراء ضدهم لتمسكهم بالعقائد المنصوص عليها فى إقرار أوجسبورج ، أو لاحتفاظهم « بأملاك الكنيسة المصادرة » .

وفى خلال هذه السنوات التى اشتد فيها الجدال وازداد ، كانت العقيدة الجديدة قد أنشأت كنيسة جديدة ، وأطلقت على نفسها اسم الكنيسة الإنجيلية بناء على اقتراح من لوثر . وكان أصلا قد ناضل فى سبيل تحقيق ديمقراطية كهنوتية ، تنتخب فيها كل طائفة من المصلين قسيسها الخاص ، وتحدد ما تقوم به من شعائر ، وما تعتنقه من عقيدة ، ولكن اعتماده المتزايد على الأمراء اضطره إلى التسليم بهذه الامتيازات للبعثات التى عينتها الدولة ، وتعد مسئولة عنها .

وفى عام ١٥٢٥ أصدر جون الأمير المختار لساكسونيا أمراً لجميع الكنائس الواقعة فى دائرة دوقيته بأداء الصلاة وفق المذهب الإنجيلى ، كما صاغه ميلانكتون بالاتفاق مع لوثر ، وكل من يرفض الامتثال لهذا الأمر من القساوسة يفقد مستحقاته ، ويُنفى العلمانيون المتشبثون بآرائهم بعد فترة يمهلون فيها[٢٥] . وحذا حذوه أمراء آخرون من أنصار لوثر واتخذوا إجراء مماثلا . وكتب لوثر فى خمس صفحات **Kleiner Katechismus** ، ويتألف من الوصايا العشر ، التى وردت فى عقيدة الرسل ، وتفسيرات موجزة لكل وصية ، وكان من الممكن أن يعد نصاً محافظاً جداً ، يعود إلى القرون الأربعة الأولى للمسيحية .

كان القساوسة الجدد بوجه عام رجالا يتصفون بالأخلاق الحميدة متضلعين فى الكتاب المقدس ، لا يعبأون بالتضلع فى علوم الإنسانيات ، ويكرسون حياتهم لأداء واجباتهم فى أبرشياتهم . وروعيت إقامة الصلوات يوم الأحد ، كما كانت تقام يوم السبت عند اليهود ، وهنا رضى لوثر باتباع التقاليد ، أكثر مما راعى ما ورد فى الكتاب المقدس . واحتفظت « عبادة الرب » بكثير من شعائر الكاثوليك — المذبح والصليب والشموع والثياب الكهنوتية وأجزاء من القداس باللغة الألمانية ، ولكن الموعظة حظيت باهتمام أكبر ، لتلعب دوراً أعظم ، ولم تكن هناك صلوات تقام للعذراء والقديسين ، ونبذت الصور والتماثيل الدينية ، وتحولت عمارة الكنيسة ، بحيث تتيح للعابدين سماع الواعظ بسهولة ، وأصبحت الأروقة معلماً مألوفاً فى الكنائس البروتستانتية . ومن أجمل ما استحدث المشاركة الفعلية لجماعة المصلين فى عزف الموسيقى ، التى تصحب أداء الشعيرة . فحتى صاحب الصوت النشاز يتوق للاشتراك فى التراتيل ، وفى وسع كل صاحب صوت الآن أن يسمع نفسه فى شغف ، دون أن يخشى أن يتعرف عليه أحد فى هذا الجمع الحاشد . وأصبح لوثر شاعراً بين عشية وضحاها ، وكتب أناشيد تعليمية ، يتخللها الحوار ، وتثير الإلهام . وتتسم

بالقوة والجزالة ، وتنبض بالرجولة ، التى تتميز بها شخصيته ، ولم يكتف العابدون بترتيل هذه الأناشيد وغيرها من أمثالها البروتستانتية ، وإنما دعوا إلى إجراء تجارب عليها فى غضون الأسبوع ، ورتلتها عائلات كثيرة فى البيوت . وقال أحد رجال الدين من اليسوعيين الذين أزعجهم هذا الأمر « إن أناشيد لوثر قضت على الأرواح (أخرجتها من دينها) أكثر مما فعلت عظاته »(٢٦) ، وارتقت الموسيقى البروتستانتية لتنافس التصوير الكاثوليكى فى عصر النهضة .

٣ — أسد فيتنبرج ١٥٣٦ — ٤٦

لم يشترك لوثر مباشرة فى المؤتمرات السلمية فى سنوات الأفول هذه ، وأصبح الأمراء لا المشتغلون باللاهوت زعماء البروتستانت وقتذاك ، لأن مواضيع النزاع كانت تدور حول الملكية والسلطان ، أكثر مما تدور حول العقيدة والشعيرة . ولم يخلق لوثر للمفاوضة ، وكان قد تقدم فى السن ، فلم يعد قادراً على الكفاح بأسلحة أخرى غير العلم . ووصفه رسول بابوى عام ١٥٣٥ ، بأنه ما زال قوياً ، يميل إلى المزاح (كان أول سؤال وجهه إلى هو هل سمعت الخبر ، الذى يتردد فى إيطاليا ، وهو أنى سكير ألمانى)(٢٧) ، ولكن هيكله المديد كان مأوى لكثير من الأمراض — سوء هضم وأرق ودوار ومغص وحصوات فى الكليتين ودمامل فى الأذنين وقرحات وداء النقرس وروماتزم وعرق النسا وخفقان فى القلب . واعتاد أن يجرع الخمر ليخدر إحساسه بالألم ، ويستعين بها على النوم ، وجرب جرعات من عقاقير وصفها له الأطباء ، وعكف على الصلاة ضجراً ، واشتدت عليه الأسقام ، وخيل إليه فى عام ١٥٣٧ أنه سيموت متأثراً بداء الحصوة ، فأصدر إنذاراً نهائياً للرب قال فيه : « إذا استمر هذا الألم يعصرنى أكثر من هذا فإنى سوف أجن وأعجز عن إدراك رحمتك »(٢٨) . وكان مزاجه المتدهور يعكس ، بعض الشىء ، ما يقاسيه من آلام . وانصرف

أصدقاؤه عنه ، يوماً بعد يوم ، لأنه كما وصفه أحد مريديه فى حزن : «كان من الصعب على أحدنا أن يفلت من غضبه واقتصاصه منه علناً » ، وكان ميلانكتون المعروف بالصبر يتلوى ألماً ، لكثرة ما يلقى من إذلال على يد صنمه ، الذى صنعه دون أن يصقله ، ومما يؤثر عن لوثر أنه قال أما أوكيولامباديوس وكالفن . . . والمراطقة الآخرون فهم قلوب فاسدة ، ذلك لأن الشيطان احتواهم من الباطن والظاهر ، ومن الرأس إلى القدم ، ولهم ألسنة لا تنطق إلا كذباً »(٢٩) .

ولكم حاول جاهداً أن يتوخى الاعتدال فى رسالته «عن المجالس والكنائس » (١٥٣٩) ، وشبه الوعود البابوية المتكررة وتأجيل عقد مجالس عام أكثر من مرة بإثارة حفيظة حيوان جائع ، وذلك بتقديم الطعام له ثم انتزاعه منه . واستعرض تاريخاً ارتكز على المصالحة ، وذلك بصورة تنم على علم غزير ، وسجل أن عدة مجالس كهنوتية كانت قد دعيت إلى الانعقاد ، ورأسها أباطرة — وفى هذا تلميح لشارل ، وأعرب عن شكه فى أن يقوم أى مجلس ، دعاه البابا إلى الانعقاد ، بإصلاح المحكمة الرومانية ، وقبل إقرار حضور البروتستانت فى مجلس للكنيسة « يجب أولا أن ندين أسقف روما ، باعتباره طاغية ، وأن نحرق كل منشوراته ومراسيمه »(٣٠) .

وتوحى أراؤه السياسية فى السنوات الأخيرة من عمره بأن السكوت من ذهب حتماً بعد سن الستين . وقد كان طوال حياته من المحافظين فى فى السياسة ، حتى عندما اتضح أنه يشجع على قيام ثورة اجتماعية . وكانت ثورته الدينية موجهة إلى ممارسة الشعيرة ، أكثر مما وجهت إلى المبادئ النظرية . فقد اعترض على الثمن الفادح الذى يدفع مقابل الحصول على صكوك الغفران ، واعترض فيما بعد على استبداد البابوات . ولكنه قبل إلى آخر لحظة من حياته أشق العقائد فى مسيحية المحافظين — الثالوث وولادة العذراء والتكفير عن الخطايا وحضور المسيح بجسده فى القربان المقدس

والجحيم — وجعل بعض هذه العقائد تبدو مستساغة فى نظر الناس أكثر من ذى قبل . وكان يزدرى العامة من الناس ، وما كان أحراه بعد ذلك أن يصحح خطأ لينكولن الشهير فى عدم الاكتراث بالعامة ، إن السيد « الجمهور » فى حاجة إلى حكومة قوية ، حتى لا يطلق الناس غرائزهم الهمجية من عقالها ، ويتبدد السلام ، وتبور التجارة . . . لا حاجة لأن يعتقد أحد أن العالم يمكن أن يحكم دون إراقة الدماء . . . إن العالم لا يمكن أن يحكم بمسبحة »(٣١) ، ولكن عند ما تفقد حكومة المسبحات سلطانها ، فمن الواجب أن تحل مكانها حكومة تعتمد على حد السيف . وعلى هذا كان لزاماً على لوثر أن ينقل إلى الدولة معظم ما كانت تنعم به الكنيسة من سلطة ، ومن ثم فقد دافع عن الحق الإلهى للملوك ، وفى هذا يقول : « إن اليد التى تدير السيف الدنيوى ليست يداً بشرية وإنما هى يد الرب . والرب(٣٢) ، لا الإنسان ، هو الذى يشنق ، ويحطم الضلوع على دولاب التعذيب ، ويقطع الرءوس بالمقصلة ، ويجلد بالسياط . والرب أيضاً هو الذى يشهر الحرب » . وفى هذا التمجيد للدولة ، كما هو الحال الآن ، نجد أن المنبع الوحيد للنظام يضع بذور فلسفات هوبز وهيجل الاستبدادية ، وهو نذير بقيام ألمانيا الإمبراطورية . ولقد وجد هنرى الرابع فى لوثر ما يؤيد إحضار هيلدبراند إلى مدينة كانوسا .

وعند ما تقدم لوثر فى السن أصبح محافظاً أكثر من الأمراء أنفسهم ، وأقر الإكراه البدنى على العمل ، والضرائب الإقطاعية الباهظة المفروضة على الفلاحين . وعند ما أحس أحد البارونات بتأنيب ضميره طمأنه لوثر على أساس أن مثل هذه الأعباء الثقيلة ، إذا لم تفرض على العامة ، فإنهم سوف يشمخون بأنوفهم ، إلى حد لا يطاق(٣٣) .

واستشهد بآيات من العهد القديم تبريراً للرق « الأغنام والماشية والعبيد والجوارى كانت كلها ممتلكات يجوز لأصحابها أن يبيعوها كما يشاءون . ومن

الخير لو ظل هذا معمولا به الآن ، لأنه بدون هذا لا يمكن لامرئ أن يكره طبيعة الرقيق على العمل ، أو يروضها عليه »(٣٤) . وعلى كل إنسان أن يقوم بواجبه فى جلد ، وأن يتخذ نهج الحياة الذى فرضه الله عليه » ، « وفى وسع كل امرئ أن يعبد الله بأن يبقى فى وظيفته ومهنته ، مهما كانت وضيعة وبسيطة » . وقد أصبح هذا المفهوم عن الوظيفة دعامة لمذهب المحافظين فى البلاد البروتستانتية .

وتسبب أمير كان نصيراً مخلصاً للقضية البروتستانتية ، فى خلق مشكلة معضلة للوثر عام ١٥٣٩ . فقد كان فيليب الهسى جندياً محارباً ومحباً عاشقاً ورجلا حى الضمير فى آن واحد . وكانت زوجته كريستين من (الساكسونية) ، امرأة تفتقر إلى الوسامة ، ولكنها مخلصة ولود . وتردد فيليب فى أن يطلق زوجة كهذه تستحق التكريم ، وكان يشتهى مرجريت السالية of Saale ، التى لقيها ، وهو فى طور النقاهة من مرض الزهرى(٣٥) ، وبعد أن اقترف جريمة الزنى فترة من الوقت ، قرر أنه غارق فى الإثم إلى أذنيه ، ومن الواجب أن يمسك عن تناول العشاء الربانى . ولما كانت التجربة جد مزعجة ، فقد أبدى رأيه إلى لوثر بأن الدين الجديد ، الذى يعتمد على العهد القديم إلى حد كبير ، يجب أن يسمح مثله بالزواج مرة أخرى ، وهو أمر كانت عقوبته القانونية السائدة الإعدام . وفضلا عن ذلك ألم يكن هذا أكثر لباقة مما أقدم عليه فرانسس الأول ، من أن يرث المشيئات ، وأكثر شفقة من الأعمال الهوجاء التى جنح إليها هنرى الثامن فى زيجاته ؟ كان فيليب تواقاً للوصول إلى حل يعتمد على الإنجيل ، حتى إنه أعلن أنه سوف يتخلى عن المعسكر الإمبراطورى ، بل والبابوى ، إذا لم يستطع علماء اللاهوت فى فيتنبرج أن يتبينوا ضوء الكتاب المقدس . وكان لوثر على استعداد . والحق أنه كان قد فضل فى رسالته « الأسر البابلى » الزواج مرة أخرى على الطلاق ، وقد نصح بالزواج مرة أخرى ، باعتباره أفضل حل لمشكلة هنرى الثامن(٣٦) . وكان الكثيرون من علماء اللاهوت فى القرن السادس عشر منفتحى الأذهان بالنسبة لهذا الأمر(٣٧) . أما ميلانكتون

فكان ينفر منه ، إلا أنه اتفق أخيراً مع لوثر على أنه لا مفر من أن يعربا عن موافقتهما ، ولكن يجب ألا يباح هذا للجمهور . ووافقت كريستين بدورها على شريطة أن يقوم فيليب بواجباته الزوجية نحوها أكثر من ذى قبل »[٣٨] . وفى يوم ٤ مارس عام ١٥٤٠ تزوج فيليب رسمياً ، وإن يكن ذلك سراً ، من مرجريت ، واعتبرها زوجة ثانية ، وذلك بحضور ميلانكتون وبوسر . وما كان من اللاانجراف المعترف بالجميل إلا أن أرسل إلى لوثر حمل عربة من النبيذ على سبيل الهبة[٣٩] . وعندما تسرب نبأ الزواج أنكر لوثر أنه تم بموافقته ، وكتب يقول : « إن لفظ نعم سراً يجب أن يظل لا علناً لصالح كنيسة المسيح »[٤٠] .

وخر ميلانكتون صريعاً بمرض خطير ، ويبدو أنه كان يعانى من وخز الضمير والإحساس بالعار ، وأمسك عن الطعام ، إلى أن هدده لوثر بالحرمان من الغفران[٤١] وكتب لوثر يقول : « إن ميلانكتون شعر بحزن عميق بسبب هذه الفضيحة ، أما أنا فإنى ساكسونى صعب المراس ، وفلاح صلب العود ، وقد ازداد جلدى غلاظة إلى درجة تجعلنى أستطيع أن أتحمل مثل هذه الأمور »[٤٢] . ومهما يكن من أمر فإن معظم الإنجيليين افتضحوا . وطرب الكاثوليك وتفكهوا ، دون أن يعرفوا أن البابا كليمنت السابع نفسه ، كان قد فكر فى السماح لهنرى الثامن بالزواج مرة أخرى[٤٣] . وأعلن فرديناند ملك النمسا أنه على الرغم من ميله القليل إلى العقيدة الجديدة ، فإنه أصبح الآن يمقتها أشد المقت . وانتزع شارل الخامس من فيليب تعهداً بتأييده فى جميع الانقسامات السياسية فى المستقبل ، وذلك مقابل عدم اضطهاده لفيليب .

وأصبح لوثر نارى الطبع كلما دنت منيته ، فقد هاجم فى عام ١٥٤٥ « المؤمنين بأن القربان المقدس مجرد رمز » من أنصار زونجلى بعنف شديد ، دفع ميلانكتون إلى أن يعرب عن أساه بسبب اتساع الهوة بين البروتستانت

فى الجنوب والبروتستانت فى الشمال . وعند ما طلب الأمير المختار جون من لوثر أن يستأنف حملته ضد الاشتراك فى مجلس يديره البابا مباشرة ، دبج لوثر خطاباً مقذعاً بعنوان : « ضد البابوية فى روما التى أسسها الشيطان » (١٥٤٥) بدت فيها بوضوح نزعته إلى الطعن التى جاوزت الحد . وارتاع كل أصدقائه ، ما عدا المصور لوكاس كراناش ، الذى زين الكتاب برسوم محفورة على الخشب ، تنطوى على هجاء مقذع ، فأحدها يصور البابا ممتطياً ظهر خنزير ، يبارك كومة من الروث ، وأخرى تمثله هو وثلاثة من الكرادلة معلقين على مشانق ، أما صورة الغلاف فتصور الحبر الأعظم جالساً فوق عرشه ، تحيط به الشياطين ويتوج رأسه داو « لجامع قمامة » وألهبت كملة « شيطان » نص الخطاب . . . ووصف البابا بأنه « أعظم أب جهنمى » و « هذا الخنثى الرومانى » و « البابا السدومى » ، أما الكرادلة فقال عنهم أنهم « أولاد الشيطان الضالون . . . الحمير الجهلة . . . لكم يود المرء أن يصب عليهم لعنته ، وأن تنقض عليهم صاعقة ، تبيدهم ، وأن يحرقوا فى نار جهنم ، وأن يصابوا بالطاعون والزهرى والصرع والاسقربوط والجذام والحمرة وسائر الأمراض[٤٤] . ورفض مرة أخرى التسليم بالرأى القائل بأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة منحة من البابوات ، ورأى على النقيض أن الوقت قد حان لكى تبتلع الإمبراطورية الولايات البابوية :

فلتبدأوا الهجوم الآن أيها الإمبراطور والملك والأمراء والسادة ، ولتنظروا من يبدأ معكم ، إن الله لا يسعد الأيدى العاطلة . خذوا من بابا روما ، أولا وقبل كل شىء ، رومانيا وأوربينو وبولونيا وكل ما يملك ، باعتباره بابا ، لأنه حصل على هذه البلاد بالأكاذيب والخداع ، واختلسها وسرقها من الإمبراطورية بالكفر وعبادة الأوثان ، فى غير ما خجل ، وداسها بقدميه ، ومن ثم دفع بأرواح لا تحصى إلى جهنم ، لتلقى جزاءها خالدة فيها . . . ومن ثم يجب أن يؤخذ البابا وكرادلته وكل طغمته من الدهماء ، من عبدة

الأوثان ، وأنصار قداسته البابوية ، واعتبارهم كفرة ، وانتزاع ألسنتهم من أقفيتهم ، وشد وثاقهم فى صفوف على المشانق(٤٥) .

ولعل الضعف قد بدأ يتسرب إلى ذهنه عند ما كتب هذه الدعوة الصارخة إلى استخدام العنف . ولعل التسمم التدريجى للأعضاء الداخلية بمرور الوقت وتناول الطعام والشراب ، قد وصل إلى ذهنه وعطله عن التفكير . وأصبح لوثر فى سنى حياته الأخيرة بديناً إلى درجة مزعجة ، بخدين متهدلين وذقن ملتو . . . وكان شعلة من النشاط ، عملاقاً لا يهدأ ، ويقول : « إذا استرحت فسوف يصيبنى الوهن »(٤٦) ، أما الآن فقد تطرق إليه التعب ووصف نفسه (١٧ يناير عام ١٥٤٦) بأنه « شيخ هرم مترهل متعب ، لا يكترث لشىء ، ليس له عين سليمة »(٤٧) . وكتب يقول : « لقد سئمت الحياة الدنيا وسئمت هى منى »(٤٨) وعندما تمنت له الأميرة أرملة منتخب ساكسونيا أن يعيش أربعين عاماً أخرى رد عليها بقوله « سيدتى : إنى لأتنازل عن فرصتى فى دخول الجنة فهذا أحب إلى من أن أعيش أربعين عاماً أخرى »(٤٩) . وقال « إنى لأضرع إلى الرب أن يبادر بالحضور ليحملنى من هنا . ألا فليقبل بصفة خاصة مع اليوم الآخر . وعندئذ سوف أمد عنقى ويدوى الرعد وأرقد فى سلام »(٥٠) . وظل حتى آخر نسمة من حياته تلوح له رؤى من الشيطان . وتراوده الشكوك بين آن وآخر فى رسالته . وفى هذا يقول : « إن الشيطان يتعدى على بالاعتراض بأن لسانى أساء إلى الكثيرين ، وأطلق سيلا من الألفاظ الآثمة . وبهذا كثيراً ما يتركنى فى حيرة شديدة »(٥١) . وكان فى بعض الأحايين يتملكه اليأس من مستقبل البروتستانتية : « إن الصالحين من العباد يقلون يوماً بعد يوم » والطوائف والأحزاب(٥٢) تزداد عدداً ، وتتسع بينها هوة الخلاف و « بعد وفاة ميلانكتون سوف تمر فترة انحلال يؤسف لها »(٥٣) على العقيدة الجديدة . ولكن عندئذ عاودته شجاعته ، وقال : « لقد أمسكت المسيح والبابوات من الآذان . ولهذا لن أزعج نفسى أكثر من ذلك ، وعلى الرغم من أنى حصرت نفسى

بين الباب والمفصلات ، وأن عودى يهصر هصراً ، فإنى لا أبالى بهذا الأمر ، ولسوف يكابد المسيح ما كابدت »(٥٤) .

وبدأ وصيته بحروف كبيرة، بقوله : « إنى معروف تماماً فى السماء وعلى الأرض وفى الجحيم » . وروت كيف أن «آثماً تعساً يستحق اللعنة ، لقى من الرب العون لنشر إنجيل ابنه ، وكيف أنه ظفر بالاعتراف به ، أستاذاً للحق ، يزدرى الحرمان المفروض عليه من البابا والإمبراطور والملوك والأمراء والقساوسة ، والكراهية من كل الشياطين » وانتهت بهذه العبارة : « ولهذا السبب ، ومن أجل تقرير هوان شأنى ، أرجو أن يكفى الشاهد بخطى ، وأن يقال : « لقد كتب هذا الدكتور مارتن لوثر موثق الرب وشاهد إنجيله »(٥٥) ، ولم يراوده الشك قط فى أن الرب كان فى انتظاره للترحيب به .

وفى يناير عام ١٥٤٦ سافر فى شتاء قارس البرد إلى مسقط رأسه أيسليبين ، ليحكم فى نزاع ، وبعث خلال تغيبه هناك برسائل شائقة إلى زوجته — منها الرسالة المؤرخة أول فبراير : أتمنى أن تجدى فى المسيح السلام والبركة ، وأبعث إليك بحبى الضعيف العتيق المسكين . عزيزتى كاتى لقد كنت عليلا وأنا فى الطريق إلى أيسليبين ، ولكن هذا إنما يرجع إلى خطئى . فقد هبت ريح صرصر عاتية من خلفى ، واخترقت قلنسوتى فوق رأسى ، فشعرت بأن مخى قد تجمد واستحال إلى ثلج ، وكان هذا حرياً بأن يعيننى على ما يصيبنى من دوار . أما الآن فأنا ، ولله الحمد ، بصحة جيدة ، إلى الحد الذى يجعلنى أشعر بميل شديد إلى الجميلات من النساء ، فما بالك وأنا كيس ظريف . وليبارك الله(٥٦) .

وتناول عشاءه يوم ١٧ فبراير فى مرح ، وفى الصباح المبكر من اليوم التالى سقط مريضاً يعانى من آلام حادة فى المعدة . ووهن جسده بسرعة ، وأدرك أصدقاؤه ، الذين تجمعوا إلى جانب فراشه ، أنه يحتضر وسأله أحدهم « أيها الأب الجليل هل تقف راسخاً كالطود إلى جانب المسيح والعقيدة

التى بشرت بها ؟ » فرد عليه قائلا « نعم » ، ثم أصيب بنوبة فالج ، أفقدته النطق ، ومات على أثرها (١٨ فبراير سنة ١٥٤٦) . ونقل الجثمان إلى فيتنبرج ، ودفن فى كنيسة القصر ، التى كان قد علق على بابها مقالاته منذ تسعة وعشرين عاماً .

كانت هذه السنوات من أخطر السنوات فى التاريخ . وكان لوثر صوتها المدوى الذى يأخذ بمجامع القلوب ، وكانت أخطاؤه عديدة ، فقد كان يفتقر إلى تقدير الدور التاريخى ، الذى لعبته الكنيسة فى نشر المدنية بأوربا ، وكان ينقصه فهم تعطش البشرية إلى أساطير رمزية ، تجد فيها العزاء والسلوى ، وكان يعوزه البر والإحسان ، ليعدل فى معاملته مع خصومه من الكاثوليك والبروتستانت . ولقد حرر أتباعه من بابا مصعوم من الخطأ ، ولكن فى الوقت نفسه أخضعهم لكتاب منزه عن الخطأ ، مع أن تغيير البابوات أيسر من تغيير ذلك الكتاب . وتشبث بأكثر العقائد تشدداً فى ديانة القرون الوسطى . وهى عقائد لا يمكن أن تصدق ، بينما سمح بالقضاء على كل ما فى تلك الديانة من جمال تقريباً فى أساطيرها وفنها ، وأورث ألمانيا مسيحية ، ليست أصدق من القديمة ، وهى أقل منها بهجة وسلواناً ، وإن كانت أكثر صدقاً وأشد إخلاصاً فى القائمين بها . وكاد لوثر أن يصبح فى تعصب محكمة التفتيش ، بيد أن أقواله كانت أغلظ من أفعاله ، وأدين بأنه كتب مقالات ، انطوت على أقذع الألفاظ فى تاريخ الأدب ، وعلم ألمانيا كراهية لاهوتية صبغت أرضها بلون الحقد الأسود مائة عام عقب وفاته .

ومع ذلك فقد كانت أخطاؤه دعامة نجاحه ، فقد كان بفطرته محباً للحرب ، لأن الوقت كان يتطلب النزال ، ولأن المشكلات التى هاجمها قد قاومت جميع الوسائل المؤدية إلى السلام قروناً طويلة . وقضى طوال حياته فى معركة ضد الإحساس بالذنب ، وضد الشيطان والبابا والإمبراطور وزونجلى ، بل وضد الأصدقاء ، الذين كان من الممكن أن يهدئوا من

ثورته ، ويحولوها إلى احتجاج مهذب ، يسمعه الناس فى سماحة ، ثم يضيع فى غمرات النسيان . وماذا كان فى وسع رجل أرحب منه صدراً أن يفعل ، إذا ووجه بمثل هذه الصعاب وتلك القوى ؟ ما من شك فى أنه ليس فى وسع رجل متضلع فى الفلسفة ولا رجل له عقلية علمية ، لا تؤمن إلا بشىء يثبت بالدليل ، ولا رجل فطر على منح رواتب سخية لأعدائه ، أن يقذف بمثل هذا التحدى ، الذى هز العالم ، أو أن يسير قدماً . بمثل هذا التصميم إلى هدفه ، كما لو كانت هناك عصابة على عينيه . وإذا كان لاهوته ، الذى يقول بحتمية القدر ، منافياً للعقل والرأفة الإنسانية ، كأى أسطورة أو معجزة فى عقيدة أهل القرون الوسطى ، فإنه أثر فى قلوب الناس بهذه اللاعقلانية العاطفية ، فالأمل والروع هما اللذان يدفعان الناس إلى الصلاة ، وليس الدليل على أشياء يرونها بأعينهم .

ويبقى أن نذكر أنه حطم بضربات قبضته الخشنة كعكة العادات وصدفة السلطة ، التى كانت قد سدت الطريق فى وجه حركة الفكر الأوروبى . وإذا كنا نحكم على عظمة المرء بما له من نفوذ — وهذا أقل اختبار موضوعى فى وسعنا أن نلجأ إليه — فإننا نستطيع أن نضع لوثر فى مصاف كوبرنيقوس وفولتير وداروين ، باعتبارهم من أقوى الشخصيات ، التى ظهرت فى فى العالم الحديث . ولقد كتب عنه أكثر مما كتب عن أى رجل آخر فى العصر الحديث باستثناء شاكسبير ونابليون . وكان تأثيره على الفلسفة بطيئاً وغير مباشر ، ولقد أثر على يقينية **fideism** كانت وقومية فيخته ومذهب شوبنهاور فى الإرادة واستسلام الروح الهيجلى للدولة ، أما تأثيره على الأدب الألمانى واللغة الألمانية ، فكان حاسماً وشاملا ، كتأثير الإنجيل ، الذى نشره الملك جيمس ، على اللغة والآداب فى انجلترا . ولم يستشهد الناس بأقوال ألمانى آخر بمثل هذه الكثرة ، وهذا الولع . ولقد أثر هو وكارلشتادت وآخرون فى خلق الإنسان الغربى ، وعاداته التى درج عليها ، بالتنصل من العزوبة المفروضة على رجال الدين وبصبه فى الحياة الدنيوية الطاقات التى كانت

قد صرفت إلى الزهد الرهبانى ، أو إلى حياة الدعة والاسترخاء ، أو إلى الورع . وأخذ تأثيره يتقلص كلما انتشر . . . كان هائلا فى اسكنديناوه ، وعابرا فى فرنسا ، وانعدم بتأثير كالفن فى سكوتلاندة وإنجلترا وأمريكا ، أما فى ألمانيا فكان تأثيره فائقاً . ولم يقدر لمفكر أو كاتب آخر أن يكون له هذا التأثير العميق فى العقلية الألمانية والشخصية الألمانية . كان أقوى شخصية فى تاريخ ألمانيا ، ولا شك أن مواطنيه من أهل الريف يحبونه حبا جماً ، لأنه كان أشدهم جميعا تعصباً لألمانيته .

٤ — انتصار البروتستانتية ١٥٤٢ — ٥٥

ومات قبل عام من وقوع الكارثة ، التى لاح للناس أنها قاضية لا محالة على البروتستانتية فى ألمانيا .

وفى عام ١٥٤٥ أكره شارل الخامس ، الذى لقى العون من الجيوش اللوثرية ، فرانسيس الأول على توقيع صلح كريبى . وعقد سليمان ، وكان فى حرب مع فارس ، هدنة لمدة خمس سنوات مع الغرب . ووعد البابا بول الثالث أن يقدم إلى الإمبراطور ١٠٠،٠٠٠و١ دوكات و ١٢،٠٠٠ من جنود المشاة و ٥٠٠ جواد ، إذا تحول بكل قوته لمحاربة الهراطقة . . . وأحس شارل بأن فى وسعه أن يحقق آخر الأمر أمله ، وأن ينفذ سياسته . أن يسحق البروتستانتية ، وأن يمنح مملكته عقيدة كاثوليكية موحدة ، تدعم فى رأيه حكومته وتسهل مهمتها . وكيف يكون إمبراطوراً بحق فى ألمانيا ، إذا استمر الأمراء البروتستانت فى الاستهانة بسلطانه وعجز أن يملى عليهم الشروط التى يقبلون بموجبها تنصيبه إمبراطوراً ؟ ولم يكن قد اتخذ البروتستانتية ديناً بصفة جدية ، ولم تكن المنازعات بين لوثر وعلماء اللاهوت من الكاثوليك تعنيه قليلا أو كثيراً ، ولكن البروتستانتية باعتبارها لاهوت الأمراء المصلحين والمتحالفين ضده ، وباعتبارها قوة سياسية ، قادرة على تحديد مصير انتخاب الإمبراطور القادم ، وبصفتها عقيدة كتاب الرسائل ،

الذين وجهوا إليه هجاء مقذعاً ، وعقيدة للفنانين الذين رسموا له صوراً ساخرة ، وعقيدة للوعاظ الذين لقبوه باسم ابن الشيطان[٥٧] — كان في وسعه أن يتحمل هذا في صمت كئيب — أما الآن فإنه حر في أن يناضل من جديد خلال موسم سرعان ما ينقضي ، وأن يصوغ مملكته ، التي مزقتها الفوضى ، في دولة واحدة ، تؤمن بعقيدة واحدة ، ولها قوة واحدة ، واستقر رأيه على الحرب .

وحشد في مايو عام ١٥٤٦ جيوشه الإسبانية والإيطالية والألمانية ، والهولندية ، واستدعى دوق ألفا أقدر قواده للوقوف بجانبه ، وعندما أوفد إليه الأمراء البروتستانت نواباً عنهم إلى راتسبون للاستفسار عن معنى حركاته . رد عليهم قائلا بأنه قد اعتزم أن يعيد ألمانيا إلى حظيرة الإمبراطورية . وفي أثناء انعقاد ذلك المؤتمر كسب إلى صفه أقدر قائد عسكري في ألمانيا ، وهو الشاب الطموح الدوق موريس صاحب ساكسونيا الألبرتينية ، ووعد آل فوجر بتقديم العون المالي له ، وأصدر البابا منشوراً يحرم فيه من الغفران كل من يقاوم شارل ، ويعرض منح صكوك غفران ، بلا مقابل ، لكل من يساعده في هذه الحرب المقدسة .

وأصدر شارل قراراً إمبراطورياً أعلن فيه حرمان الدوق جون صاحب ساكسونيا الأرنستية ولاندجراف فيليب الهسي ، وأحل رعاياهما من الولاء لهما ، وأقسم أن يستصفي أراضيهما وأموالهما . ولكي يفرق بين المعارضة أعلن أنه لن يتدخل في شئون البروتستانتية في أية منطقة ، تكون قد استقرت فيها بصفة نهائية ، وقدم أخوه فرديناند تعهداً مماثلا لبوهيميا . وكان موريس مرتبطاً بالقضية بوعد صدر له بأن يحل محل جون كأمير مختار لساكسونيا . وتنازع الأمراء المختارون ، في كولونيا وبراندنبرج ، وكونت بالاتين ، الخوف والأمل ، أما أمير نورمبرج البروتستانتي فظل محايداً . وأدرك جون أمير ساكسونيا وفيليب الهسي وأمراء أنهالت وحكام مدن أوجسبورج وستراسبورج وأولم أن الخطر لا يتهدد لاهوتهم فحسب ،

ولكنه يتهدد أموالهم أيضاً ، فعبأوا كل قواتهم ، وحشدوا فى ميدان القتال ٥٧,٠٠٠ رجل .

ولكن عندما زحف جون وفيليب جنوباً يتحديان شارل ، سار فرديناند شمالا وغرباً للاستيلاء على دوقية جون ، وانضم إليه موريس فى فى غزو ساكسونيا الأرنستية ، لكى يساعد بشيء ما . وقدر جون عاقبة هذا الأمر ، فهرع إلى الشمال للدفاع عن دوقيته . وقام بهذه المهمة خير قيام ، ولكن فى غضون ذلك بدأ جنود فيليب فى الفرار من فرقهم ، بسبب الامتناع عن دفع رواتبهم ، وسارعت المدن البروتستانتية تنشد السلام مع شارل ، بعد أن أغرتها الوعود بالعدل فى المعاملة . ولكنه أطلق حريتها بعد أن فرض عليها غرامات باهظة ، حطمت العمود الفقرى لماليتها ، مقابل الحصول على حريتها . وكان شارل وقتذاك متفوقاً فى السلاح ، وفى الدبلوماسية على السواء . وكانت القوة الوحيدة التى وقفت فى صف البروتستانت هى قوة البابا ، إذ كان بول الثالث قد بدأ يخشى ما أحرزه الإمبراطور من نجاح عظيم . فإذا لم يبق من أمراء البروتستانت من يكبح جماح السلطة الإمبراطورية ، فإن الأمور سوف تدين لها فى شمال وجنوب إيطاليا على السواء ، وسوف تحدق بالولايات البابوية وتبتلعها . وينتهى بها الأمر إلى أن تسيطر على البابوية سيطرة لا تقاوم . وفجأة (يناير سنة ١٥٤٧) أصدر بول الثالث أوامره للجيوش البابوية ، التى كانت تحارب مع شارل ، بالتخلى عنه والعودة إلى إيطاليا ، فأطاعت الأمر فى اغتباط . ووجد البابا نفسه يطرب كأى هرطيق لانتصارات الأمير المختار جون فى ساكسونيا . ولكن شارل كان مصمماً على أن يصل بالحملة إلى نهايتها الحاسمة . فزحف نحو الشمال . والتقى بقوات الأمير المختار المنهكة فى ميلبرج . على مدينة مايسن ، وقضى عليها قضاء مبرماً (٢٤ ابريل ١٥٤٧) وأسر جون . وطالب فرديناند بإعدام الأمير الباسل ، غير أن شارل الذكى وافق على أن يخفف الحكم

إلى السجن مدى الحياة ، إذا فتحت فيتنبرج أبوابها له ، فخضعت المدينة لأمره ، وهكذا سقطت عاصمة البروتستانتية الألمانية فى أيدى الكاثوليك ، بينما كان لوثر يرقد فى هدوء تحت صفائح بارزة فى كنيسة القصر .

وأقنع موريس أمير ساكسونيا وجواكيم أمير براندنبرج ، فيليب الهسى بالتسليم ووعداه بأن يطلق سراحه فوراً . ولم يكن شارل قد قطع على نفسه مثل هذا العهد ، وكان أقصى ما وصلت إليه رحابة صدره أن يعد فيليب بإطلاق سراحه بعد خمسة عشر عاماً . ويبدو أنه لم يبق هناك أحد يتحدى الإمبراطور المظفر ، إذ كان هنرى الثامن قد مات فى يوم ٢٨ يناير ، ومات فرانسيس الأول يوم ٣١ مارس . ومنذ عهد شارلمان لم تكن قوة الإمبراطورية عظيمة إلى هذا الحد .

ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن . فقد اجتمع الأمراء الألمان فى مجلس نيابى آخر فى أوجسبورج (سبتمبر سنة ١٥٤٧) ، وقاوموا جهود شارل لدعم انتصاره العسكرى ، وتحويله إلى حكم مطلق شرعى . واتهمه بول الثالث بالتغاضى عن مقتل بيرلويجى فارنيزى . الابن غير الشرعى للبابا ، وانقلبت بافاريا ضد الإمبراطور ، وكانت دائماً موالية للكنيسة ، وتكونت من جديد أغلبية بروتستانتية بين الأمراء . وانتزعوا من شارل موافقة مؤقتة على زواج رجال الكهنوت ، ومناولة القربان بالطريقتين المعروفتين ، واحتفاظ البروتستانت بأملاك الكنيسة (١٥٤٨) . وتميز البابا غضباً من دعوى الإمبراطور أن له السلطة فى أن يصدر أحكاماً ، فى مثل هذه الأمور . وتهامس الكاثوليك بأن شارل كان يهتم بمدرقعة إمبراطوريته ، وتعزيز سلطان آل هابسبورج ، أكثر من اهتمامه باستعادة العقيدة الخالصة الوحيدة . ووجد موريس وقتذاك الأمير المختار لساكسونيا نفسه فى فيتنبرج يعد بروتستانتياً ومنتصراً ، ومكروهاً إلى حد خطير وسط قوم من البروتستانت المغلوبين على أمرهم ، وكانت خيانته قد سممت ما فاز به من سلطان . وتجاهل شارل ما وجهه إليه من نداءات لإطلاق سراح اللاندجراف . وبدأ

يتساءل هل اختار الفريق الأحسن ، وانضم سراً إلى الأمراء البروتستانت ، ووقع معهم معاهدة شامبورد (يناير ١٥٥٢) ، وفيها وعد هنرى الثانى ملك فرنسا بتقديم العون لطرد شارل من ألمانيا . وفى الوقت الذى غزا فيه هنرى اللورين ، واستولى على ميتز وتول وفردون ، زحفت موريس وحلفاؤه من البروتستانت جنوباً على رأس جيش قوامه ٣٠,٠٠٠ رجل . وسرح شارل جنوده ، دون أن يقدر العواقب ، مستنداً إلى أكاليل الغار التى توجت رأسه فى أنزبروك ، ولم يكن أمامه وقتذاك ما يدافع به إلا الدبلوماسية . ولقد أثبت موريس تفوقه فى هذه اللعبة التى تحتاج إلى الدهاء ، واقترح فرديناند عقد هدنة ، وأطال موريس المفاوضات مستخدماً كل ما أوتى من لباقة ، وفى غضون ذلك أخذ يتقدم نحو أنزبروك . وفى يوم ٩ مايو انتقل شارل بصعوبة فوق محفة ، يصحبه بضع نفر من أتباعه ، تحت المطر والجليد ، متسربلا بظلام الليل . وعبر ممر برينر إلى فيلاخ فى كارنثيا . وهكذا حولت ضربة واحدة من ضربات الحظ سيد أوربا إلى شريد ، يعانى من آلام النقرس ، ويرتجف فى جبال الألب .

والتقى موريس والبروتستانت الظافرون يوم ٢٦ مايو بفرديناند وبعض زعماء الكاثوليك فى باساو . ووافق شارل ، بعد فترة شعر فيها بضآلة شأنه ، على أن يوقع فريدیناند معاهدة (٢٠ أغسطس ١٥٥٢) يطلق بموجبها سراح فيليب ، وتنص على تسريح الجيوش البروتستانتية ، وأن يتمتع البروتستانت والكاثوليك على السواء بحرية العبادة إلى أن يجتمع مجلس نيابى جديد ، وإذا فشل هذا المجلس فى الوصول إلى تسوية مقبولة ، فإن حرية العبادة هذه تستمر إلى الأبد . وهى عبارة محببة فى المعاهدات . وهكذا بدأ موريس بالخيانة ، وارتفع إلى مصاف رجال السياسة المظفرين ، وقدر له أن يموت وشيكاً (١٥٥٣) من أجل بلده بالغاً من العمر ثلاثين عاماً ، فى معركة وقعت بينه وبين ألبرخت ألسيبيادیس ، الذى كان قد حول نصف ألمانيا إلى منطقة تسودها فوضى خطيرة بالنسبة للجميع .

وعند ما يئس شارل من الوصول إلى حل لمشكلاته فى ألمانيا ، تحول نحو الغرب ليجدد صراعه مع فرنسا . ورأس فرديناند ، متذرعاً بالصبر ، المجلس النيابى التاريخى فى أوجسبورج (٥ فبراير — ٢٥ سبتمبر ١٥٥٥) ، وهو المجلس الذى منح ألمانيا أخيراً سلاماً دام نصف قرن . ورأى أن المبدأ الإقليمى ، الذى ينص على حرية الدوقات ، كان قوياً إلى الحد الذى لا يسمح فيه بمثل هذه السيادة المركزية المطلقة ، التى فاز بها الملوك فى فرنسا . وكان النواب الكاثوليك يمثلون أغلبية فى المجلس النيابى ، غير أن البروتستانت كانوا يفوقونهم فى القوة العسكرية ، فتشبثوا بكل مادة وردت فى إقرار أوجسبورج عام ١٥٣٠ ، وتمسك الأمير المختار أوغسطوس ، الذى خلف موريس فى ساكسونيا ، بوجهة نظر البروتستانت ، وأدرك الكاثوليك أن عليهم أن يخضعوا ، أو تتجدد الحرب ، وحث شارل ، وهو فى خرف دبلوماسيته ، الأمراء المختارين على تعيين ابنه فيليب خلفاً له فى حمل اللقب الإمبراطورى . وخشى الكثالكة مطمع هذا الإسبانى القاسى فى حكمهم ، ولما كان فرديناند يطمع فى ارتقاء العرش نفسه فإن الأمل لم يراوده فى أن يفوز به ، دون أن يعاضده البروتستانت فى المؤتمر الانتخابى .

وساعدت الأسلحة والظروف على رجحان كفة البروتستانت ، فطالبوا بكل شىء : يجب أن يكونوا أحراراً فى ممارسة عقيدتهم فى كل أرجاء ألمانيا ، وأن تحرم عبادة الكاثوليك فى الأرض التى تسود فيها العقيدة اللوثرية ، وأن تبقى صحيحة ولا تتعرض للإلغاء إجراءات تصفية أملاك الكنيسة فى الحاضر والمستقبل على السواء[٥٨] . وتوصل فرديناند وأوغسطوس إلى اتفاق أرضى الطرفين يتلخص فى هذه الكلمات الأربع المشهورة : **Cuius regio eius religio** ، وهى تجسم الضعف الروحى الذى انتاب الأمة والعصر . ولتحقيق السلام بين الولايات وفى داخلها ، يجب على كل أمير أن يختار بين الكاثوليكية الرومانية ، وبين اللوثرية ، وعلى كل رعاياه أن يقبلوا اعتناق دينه السائد فى دولته ، وكل من لا يحب أن

أن يعتنق هذا الدين عليه أن يهاجر من الإقليم . ولم يظهر أى جانب ميلا إلى التساهل والواقع أن المبدأ . الذى أيده الإصلاح الدينى فى فترة ثورته — الحق فى الحكم الخاص — رفضه رفضاً باتاً زعماء البروتستانت والكاثوليك على السواء . فقد أدى ذلك المبدأ إلى تعدد الطوائف واصطدامها ، إلى درجة أن الأمراء شعروا بأن لديهم ما يبرر استعادة السلطة العقيدية ، حتى لو انقسمت إلى أجزاء بقدر عدد الولايات . واتفق البروتستانت وقتذاك فى الرأى مع شارل والبابوات بأن وحدة العقيدة الدينية لا غنى عنها للنظام الاجتماعى والسلام ، وليس فى وسعنا أن نحكم عليهم حكماً عادلا ، ما لم يتكشف لأنظارنا الحقد والشقاق اللذين كانا يمزقان ألمانيا . وكانت النتائج سيئة وحسنة فى آن واحد . فالتسامح وقتذاك كان ، بعد الإصلاح الدينى ، أقل قطعاً منه قبله[٥٩] ، ومع ذلك فإن الأمراء أقصوا المنشقين بدلا من أن يحرقوهم أحياء وهذه شعيرة كانت مقصورة على الساحرات . وأضعف مراكزهم جميعاً تضاعف ما نتج عن ذلك من دعاوى العصمة .

ولم يكن الانتصار الحقيقى فى حرية العبادة ، ولكن فى الحرية التى أصبح ينعم بها الأمراء ، فقد غدا كل منهم ، مثل هنرى الثامن ملك انجلترا ، الرئيس الأعلى للكنيسة فى إقليمه ، وله الحق المطلق فى أن يعين رجال الدين ، الذين يحددون للناس العقيـدة التى يتعين عليهم أن يعتنقوها . وكان المبدأ الأراستى — وينص على أن الدولة يجب أن تحكم الكنيسة — قد استقر قطعاً . ولما كان الأمراء وليس علماء اللاهوت ، هم الذين عملوا على انتصار البروتستانتية ، فمن الطبيعى أن يجنوا ثمار هذا النصر — سيادتهم الإقليمية على الإمبراطور ، وسيادتهم الكهنوتية على الكنيسة . كانت البروتستانتية هى القومية ممتدة إلى الدين ، ولكن القومية لم تكن تعنى قومية ألمانيا ، بل كانت وطنية كل إمارة ، ولم تتقدم ألمانيا خطوة نحو الوحدة ، بل إن

(*) أطلق على المبدأ هذا الاسم نسبة إلى توماس أراستوس عالم اللاهوت السويسرى (١٥٢٤ - ٨٣) وإن كان لا يمكن العثور عليه صراحة فى أعماله

الثورة الدينية عاقت هذه الوحدة . وإن لم يكن من المؤكد أنها كانت نعمة وبركة . وعندما اختير فرديناند إمبراطوراً (١٥٥٨) كانت سلطاته الإمبراطورية أقل من السلطات التي كان يتمتع بها حتى شارل المتعب المقيد . وترتب على هذا أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تمت في عام ١٨٠٦ ، وإنما ماتت في عام ١٥٥٥ .

وضاعت المدن الألمانية ، مثل الإمبراطورية ، في غمار انتصار الأمراء . كانت المقاطعات الإمبراطورية تحت رعاية الإمبراطور ، يحميها من سيطرة الحكام الإقليمية . أما الآن — بعد أن أصبح الإمبراطور عاجزاً ، فقد صار الأمراء أحراراً في أن يتدخلوا في الشئون البلدية ، وتضاءل استقلال المقاطعات . وفي غضون ذلك ابتلعت قوة هولندة النامية معظم التجارة ، التي كانت تصب المنتجات الألمانية في بحر الشمال ، عن طريق مصبات نهر الراين ، وضعف شأن المدن الجنوبية ، بانحطاط تجارة البندقية والبحر الأبيض المتوسط نسبياً . وليس من شك في أن الإضعاف من شأن التجارة والسياسة يترتب عليه اضمحلال الثقافة ولم يتيسر للمدن الألمانيــة ، في مدى مائتي عام بعد ذلك ، أن تتمتع مرة أخرى بحيوية التجارة والفكر التي سبقت عهد الإصلاح الديني ودعمته . . .

وعاش ميلانكتون خمس سنوات بعد صلح أوجسبورج ، ولم يكن واثقاً من أنه كان يريد الإمهال . كان قد عمر أكثر من زعيمه : لا في المفاوضات مع الكثالكة فحسب ، ولكن في تحديد اللاهوت البروتستانتي . كان قد حرر نفسه من لوثر من جهة رفضه التسليم بحتمية القدر كلية ، وحضور المسيح بجسده في القربان المقدس[٦٠] ، وجاهد في الحفاظ على أهمية الأعمال الصالحات . وإن كان قد أصر مع لوثر على أنها لا يمكن أن تحقق لصاحبها الخلاص . وثار جدل مرير بين « الفلبيين » — ميلانكتون وأتباعه — وبين اللوثريين المحافظين الذين انفجروا أساساً من ينا ، وأطلق هؤلاء على ميلانكتون لقب « المملوك المارق » و « خادم الشيطان » ، ووصفهم هو بأنهم

أغبياء سوفسطائيون من عبدة الأوثان[٦١] . وكان الأساتذة يعينون أو يفصلون ، ويسجنون أو يطلق سراحهم ، حسب مد وجزر الحمم اللاهوتية . واتفق الطرفان على أن يعلنا حق الدولة فى قمع الهرطقة بالقوة . وحذا ميلانكتون حذو لوثر فى إقرار العبودية والتمسك بالحق الإلهى للملوك[٦٢] ، ولكنه تمنى لو وضعت الحركة اللوثرية نصب عينيها حماية أرستقراطيات أوساط الناس ، كما فى زيورخ وشتراسبورج ونورمبرج وجنيف بدلا من أن تأتلف مع الأمراء . وفى أكثر لحظاته دلالة تحدث مثل الأرازمى الذى كان يتطلع إلى أن يكونه : « فلنتحدث فقط عن الإنجيل وعن الضعف الإنسانى وعن رحمة الله وعن تنظيم الكنيسة وعن العبادة الحقة . أليس جوهر المسيحية أن تحقق الطمأنينة والهدوء للأرواح ، وأن تهب لها قاعدة للعمل المستقيم ، أما الباقى فإنه جدل وفلسفة كلامية ومنازعات طائفية »[٦٣]. وعندما دنت منيته رحب بالموت ، باعتباره تحريراً لطيفاً من « غضب علماء اللاهوت » ، ومن همجية « العصر السوفسطائى »[٦٤] . والحق أن التاريخ قد أخطأ فى اختياره للقيادة روحاً تنزع بفطرتها إلى البحث والصداقة والسلام ، وأجبرها على الدخول فى حرب ثورية لم تخلق لها .

الفصل الحادي والعشرون

جون كالفن

(١٥٠٩ – ١٥٦٤)

١ – شبابه

ولد فى نويون بفرنسا يوم ١٠ يوليو عام ١٥٠٩ ، وكانت مدينة لها طابع كنسى . يسيطر عليها أسقفها وكاتدرائيتها ، وهناك فى البداية وجد مثالا من حكومة يسيطر عليها رجال الدين – حكم رجال الدين لمجتمع باسم الرب .

وكان أبوه جيرار شوفان سكرتيراً للأسقف ، ووكيل أعمال فى إدارة الكاتدرائية ، ووكيلا للمقاطعة يشرف على الأعمال المالية . وقد ماتت أم جان وهو لا يزال حدثاً ، فتزوج أبوه للمرة الثانية ، ولعل كالفن يدين بجانب من روحه القاتمة إلى ما عاناه من تربية صارمة على يد زوجة أبيه . ونذر جيرار ثلاثة من أبنائه للكهنوت ، وهو على ثقة من أن فى وسعه أن يجد لهم مناصب . وحصل لاثنين منهما على صدقات بيد أن واحداً منهم انقلب إلى هرطيق ، ومات وهو يرفض تناول القربان المقدس . وحرم جيرار نفسه من الغفران بعد خلاف مالى مع إدارة الكاتدرائية ، ولقى بعض المتاعب قبل أن يوسد جثمانه فى الأرض المقدسة .

وأرسل جان إلى كلية دى مارش فى جامعة باريس . وقيد نفسه باسم جوهانس كالفينوس ، وحذق كتابة اللاتينية ببراعة فائقة ، ونقل فيما بعد إلى كلية دى مونتيجو ، ولا بد أنه سمع هناك أصداء تتردد عن تلميذها المشهور أرازموس . وظل هناك حتى عام ١٥٢٨ ، وهو العام الذى التحق

بها صنوه الكاثوليكي أجناتيوس لويولا . ويقول أحد الثقاة من الكاثوليك « أن القصص التي رويت في وقت ما عن شباب كالفن الطائش ، لا تستند إلى أساس »[١] والأمر على نقيض ذلك تماماً ، فكل الدلائل تشير إلى أنه كان طالباً مثابراً خجولا معتصماً بالصمت تقياً و « رقيباً صارماً في نقد أخلاقيات زملائه »[٢] ، ومع ذلك فإنه كان محبوباً من أصدقائه ، الآن وفيما بعد ، حباً خالصاً لا يتزعزع . وفي غمار السعي الحثيث للحصول على معرفة ما وراء الظاهر ، أو نظرية تفتن العقول ، قرأ كثيراً في الليل . ولقد طور ، حتى في تلك السنوات التي قضاها في طلب العلم ، بعض الأوصاب الكثيرة التي انتابت حياته الناضجة ، وساعدت على تكوين مزاجه .

وفي أواخر عام ١٥٢٨ جاءه على غير انتظار توجيه من أبيه بأن يذهب إلى أورليانز ، ويدرس القانون ، ويظن كما قال الابن « لأنه رأى أن علم القوانين قد أدر على الذين حصلوه الثراء العريض »[٣] . وعكف كالفن في غبطة على الدراسة الجديدة ، إذ خيل إليه أن القانون ، وليس الفلسفة أو الأدب ، هو أبرز نتاج فكرى حققته البشرية ، وأنه يصوغ نوازع الإنسان الفوضوية ويحولها إلى نظام وسلام .

ونقل إلى اللاهوت وعلم الأخلاق ، منطق قوانين جستنيان ودقتها وصرامتها ، وأطلق على خير مؤلفاته اسماً مماثلا . وأصبح ، فوق أي شيء آخر ، مشرعاً ، وصارنوما وليكورجوس مدينة جنيف .

وبعد أن حصل على درجته في ليسانس أو بكالوريوس في القوانين ، (١٥٣١) . عاد إلى باريس وعكف في نهم على دراسة الأدب الكلاسى ، وأحس بالرغبة العارمة الشائعة لبرى لنفسه مؤلفاً مطبوعاً ، فنشر (١٥٣٢) مقالا باللاتينية عن **De clementia** لسينيكا . وبدأ أشد المشرعين الدينيين صرامة حياته العملية العامة بتحية للرحمة . وأرسل نسخة إلى أرازموس ،

حياه فيها باعتباره « المعلم الثانى فى عالم المجد » (بعد شيشرون) و « أول إشراقة للآداب » . وخيل للناس أنه وقف حياته على الإنسانيات عند ما وصلته بعض عظات لوثر وأثارته بما انطوت عليه من جرأة . وكانت الدوائر الناشطة فى باريس تناقش الحركة الجديدة ؛ وليس من شك فى أنه دار حديث طويل حول الراهب المتهور ، الذى أحرق منشور البابا ، وتحدى قرار إمبراطور بتحريم التعامل معه ؛ والحق أنه قد سقط فى سبيل البروتستانتية شهداء فى فرنسا . وكان بعض الرجال الذين يحثون على إصلاح الكنيسة من بين أصدقاء كالفن ؛ وكان أحدهم وهو جيرار روسل أثيراً لدى شقيقة الملك مرجريت دى نافار . واختير صديق آخر ، وهو نيكولاس كوب ، ليشغل منصب مدير الجامعة ، ولعل كالفن كان له ضلع فى إعداد الخطاب الافتتاحى المشئوم ، الذى ألقاه كوب « أول نوفمبر سنة ١٥٣٣) . وقد بدأ الخطاب برجاء أرازمى لمسيحية مطهرة ، واستطرد ليشرح نظرية لوثر فى الخلاص عن طريق الإيمان والعفو ، وانتهى بالتماس الإصغاء فى تسامح للأفكار الدينية الجديدة . وأثار الخطاب حنقاً بالغاً ، وانفجرت جامعة السوربون غضباً ، وبدأ البرلمان فى اتخاذ إجراءات ضد كوب بتهمة الهرطقة ، ففر هارباً ، وعرضت مكافأة قدرها ثلاثمائة كراون لمن يقبض عليه حياً أو ميتاً ؛ ولكنه استطاع أن يصل إلى بازيل . وكانت وقتذاك تعتنق البروتستانتية .

وحذر الأصدقاء كالفن وأخبروه أن اسمه أدرج مع اسم روسل فى قائمة المطلوبين للقبض عليهم ، ويبدو أن مرجريت قد تشفعت له ؛ فغادر باريس (يناير سنة ١٥٣٤) ووجد ملاذاً له فى أنجوليم ؛ ولعله بدأ هناك ، بمكتبة لوى دى تييه الغنية بما تضم من كتب قيمة ، فى كتابة مؤلفه **Institutes** . وفى مايو جازف بالعودة إلى نويون ، وتنازل عن رواتبه ، التى كانت تدر عليه دخلا يعول به نفسه . وهناك قبض عليه وأطلق سراحه ، ثم أعيد القبض عليه ، ثم أطلق سراحه مرة أخرى . وعاد سراً

إلى باريس ، وتحدث مع زعماء البروتستانت ، والتقى بسير فيتوس ، الذى قدر عليه أن يحرقه . وعند ما وضع بعض المتطرفين من البروتستانت إعلانات ملصوقة مهينة فى أماكن متفرقة من باريس ، انتقم فرانسس الأول منهم بأن أمعن فى اضطهادهم ، وفر كالفن فى الوقت المناسب (ديسمبر ١٥٣٤) ، وانضم إلى كوب فى بازيل وهناك أتم ، وهو شاب فى السادسة والعشرين من عمره ، عملا يعد من أبلغ الأعمال فى أدب الثورة الدينية ، وأشدها حماسة ، وأوضحها معنى ، وأكثرها تمشياً مع المنطق ، وأعظمها تأثيراً ، وأشدها جميعاً إرهاباً .

٢ ـ عالم اللاهوت

ونشر الكتاب باللغة اللاتينية (١٥٣٦) باسم « مبادئ الدين المسيحى » ، وفى خلال عام واحد نفد الكتاب ، واستدعى الأمر إصدار طبعة جديدة ، فاستجاب كالفن ، وأعد نسخة مطولة (١٥٣٩) باللاتينية أيضاً ، وترجمها إلى الفرنسية عام ١٥٤١ . ويعد هذا الشكل من التأليف من أعظم ما أنتجته القرائح تأثيراً فى النثر الفرنسى . وحرم برلمان باريس تداول الكتاب باللغتين كلتيهما ، وأحرقت نسخ منه علناً فى العاصمة ؛ واستمر كالفن طوال حياته يعمل على إضافة فصول إلى هذا الكتاب وإعادة نشره ، وبلغت عدد صفحاته ١١١٨ فى شكله النهائى .

واستهلت الطبعة الأولى من الكتاب بـ « مقدمة إلى أعظم ملك مسيحى لفرنسا » وهى مقدمة تفيض بالمشاعر ، ولكن بأسلوب رصين . ووقع حادثان أتاحا فرصة الحوار مع فرانسس أولهما : الأمر الملكى الصادر فى يناير عام ١٥٣٥ ضد الفرنسيين البروتستانت ، وثانيهما : الدعوة التى وجهها فرانسس فى الوقت نفسه تقريباً لميلانكتون وبوسر ، كى يحضرا إلى فرنسا ، ويرتبا تحالفاً بين الملكية الفرنسية وبين الأمراء اللوفريين ضد شارل الخامس . وكان كالفن يأمل فى أن يوطد المأرب السياسى على دعامة

من الجدل اللاهوتى ، وأن يعاون فى استمالة الملك ، مثل أخته ، إلى القضية البروتستانتية ، وكان تواقاً إلى أن يفرق بين هذه القضية وحركة اللامعمدانيين ، التى اقتربت وقتذاك من الشيوعية فى منستر . ووصف المصلحين الدينيين الفرنسيين بأنهم وطنيون مخلصون للملك كارهون لكل اضطراب اقتصادى أو سياسى . وتكشف بداية ونهاية هذه المقـــدمة روعة أفكار كالفن وجزالة أساوبه :

« عند ما بدأت هذا العمل يا مولاى لم يكن هناك شىء أبعد من التفكير فى تدبيج كتاب ، يقدم فيما بعد إلى جلالتكم ، وكنت لا أقصد إلا أن أطرح أمامكم بعض مبادئ أولية يستطيع بها المتسائلون عن أمور الدين أن يفقهوا طبيعة التقوى الصحيحة . . . ولكننى عنـــد ما أدركت أن غضب بعض الأشرار فى مملكتكم قد اشتد ، إلى حد يجعلهم لا يسمحون بوجود عقيدة صحيحة فى البلاد ، رأيت من الواجب أن يستفاد منى ولو فى العمل نفسه . . . لقد عرضت اعترافى عليك ، لكى تعلم طبيعة تلك العقيدة ، التى يستهدفها هذا الغضب ، الذى لا يعرف حدوداً ، والذى يعتمل فى صدور هؤلاء المجانين ، الذين يزعجون البلاد بالسيف والنار ، ومن أجل ذلك فأنا لا أخشى التسليم بأن هذه الرسالة تحتوى على ملخص لتلك العقيدة ذاتها . والتى يستحق من يعتنقها ، طبقاً لما أثاروه حولها من دعاوى ، أن يعاقب بالسجن والنفى وإهدار الدم والتحريق وبإبادته من على ظهر الأرض . وإنى لأعلم جيداً الدسائس الأثيمة ، التى ملأوا بها أذنيك ، لكى تبدو قضيتنا بغيضة جداً فى نظرك ؛ ولكن حلمك كفيل بأن يهديك إلى التفكير فى أنه إذا كان الاتهام يكفى دليلا على الذنب ، فهو القضاء على كل براءة فى الأقوال والأفعال . . . وأنت نفسك يا مولاى تستطيع أن تتبين الوشايات الزائفة ، التى كانت تطرق أذنيك عنها (قضيتنا) ، وهى تفتضح كل يوم ؛ إن ما تصبو إليه فحسب إنما هو انتزاع صولجانات الملوك من أيديهم ، هدم جميع المحاكم . . . وتقويض دعائم النظام بأسره ، وقلب

الحكومة ؛ وتعكير صفو السلام والأمن بين الناس ؛ وإلغاء جميع القوانين ، وتبديد جميع الأموال والممتلكات ، وباختصار جعل كل شيء في حالة اضطراب شامل .

ولهذا أتوسل إليك يا مولاي — وهو بالتأكيد طلب معقول — أن تأخذ على عاتقك الفهم الكامل لهذه القضية . التي أثيرت حتى الآن بصورة مبلبلة . وبلا اكتراث . وبلا سند من القانون . وبدافع من العاطفة الهوجاء أكثر من أي دعامة قانونية . ولا يذهبن بك الظن إلى أني أفكر الآن في إعداد دفاعي عن نفسي . لكي أضمن لنفسي عودة آمنة إلى وطني الحبيب ، فأنا ، على الرغم مما أكنه له من حب ينبغي على كل انسان أن يحس به نحوه . لن أندم أبداً . في الظروف الحالية . على انتقالي منه . ولكي أدافع عن القضية أمام كل المتدينين . وبالتالي أمام المسيح نفسه . هل يحتمل أن نفكر في تقويض دعائم الممالك . نحن الذين لم يسمعنا أحد نفوه بكلمة واحدة تثير الفتنة . . . نحن الذين عرفنا طوال حياتنا أننا نعيش حياة هادئة مستقيمة عندما كنا نعيش تحت حكمك . نحن الذين لم نكف . حتى في منفانا الآن . عن الصلاة لك بالنجاح ولمملكتك بالرخاء . . . ثم إننا لم ننتفع إلا قليلا بالإنجيل بفضل الله . ولكن حياتنا يمكن أن تكون مثالا يحتذى لمن ندعوا بعفتنا وكرمنا ورأفتنا وعزوفنا عن المنكر وصبرنا وتواضعنا وكل فضيلة أخرى هنا . . .

وعلى الرغم من بغضك لنا ونفورك منا ، بل وغضبك علينا ، فإننا لا نيأس أبداً من استعادة عطفك . لو قرأت بهدوء واطمئنان إقرارنا هذا ، الذي نعتزم تقديمه إلى جلالتكم . كدفاع لنا . . . ولكن إذا كانت أذناك مشغولتين على النقيض بسماع همسات الحاقدين . التي لا تدع فرصة للمتهمين للدفاع عن أنفسهم . وإذا استمرت تلك العقبات الهوجاء في اضطهادنا بالسجن والتنكيل والتعذيب ومصادرة الأموال والحرق .

وتغاضيك عن ذلك ، فإننا سوف نغلب على أمرنا حقاً إلى أقصى حد . ونكون مثل قطيع من الأغنام ، يساق إلى الذبح . ومع ذلك هل لنا أن نحتفظ فى صبر بأرواحنا ، وننتظر أن تمتد إلينا يد الرب القوية . . . لإنقاذ الفقراء من غمهم ، ولمعاقبة المستخفين بهم . الذين يبتهجون الآن فى أمن واطمئنان تام . وإنى لأدعو الرب ملك الملوك أن يوطد عرشك بالعدل والتقوى ، وأن ينتشر فى مملكتك القسط والإنصاف »(٤) .

وليس من اليسير علينا ، فى عصر أسلم فيه اللاهوت مكانه للسياسة . باعتبارها مركزاً لاهتمام بنى الإنسان والصراع بينهم ، أن نتذكر المزاج الذى ألف به كالفن كتابه القوانين . لقد كان رجلا هائماً فى حب الله — أكثر من سبينوزا . وكان يغلبه شعور بضآلة الإنسان وعظمة الله .

وكم يكون الأمر منافياً للعقل أن نفترض أن العقل الواهى لهذا السوس ، الذى لا يكاد يرى بالعين المجردة . وهو الإنسان ، يستطيع أن يدرك العقل المفكر الذى يحكم هذه النجوم الطيعة التى لا تحصى ؟ وأن الله . رأفة بعقل الإنسان . قد أظهر لنا نفسه فى الكتاب المقدس ، وثبت أن هذا الكتاب المقدس هو كلمة الله ، (كما يقول كالفن) بما له من سلطان لا نظير له على روح الإنسان .

« اقرأ لديموستين أو شيشرون ، واقرأ لأفلاطون أو أرسطو أو لغيرهم ممن هم فى مستواهم . وأنا كفيل بأن ما تقرأه من مؤلفاتهم سوف يجتذبك ، ويشرح صدرك . ويحرك شغاف قلبك . ويخلب لبك بطريقة مدهشة ، ولكن إذا تحولت بعد قراءتها إلى تلاوة الكتاب المقدس ، سواء كنت راغباً أو غير راغب . فإنه سوف يستولى عليك بقوة عظيمة ، وينفذ إلى قلبك ، ويطبع كلماته بقوة فى ذهنك . إلى الحد الذى لو قارناه بما لتلك المصنفات من أثر قوى ، فإن الجمال الذى يتسم به كلام البلغاء والفلاسفة يتبدد كله أو يكاد . ومن اليسير أن ندرك أن شيئاً إلهياً فى الكتب المقدسة . يفوق بكثير أعظم ما أحرزه الإنسان فى عالم الصناعة والزخرف »(٥) .

وعلى ذلك فإن هذه الكلمة التى نزلت علينا يجب أن تكون مرجعنا الأخير ، لا فى الدين والأخلاقيات فحسب ، ولكن فى التاريخ والسياسة وكل شىء أيضاً . يجب أن نتقبل قصة آدم وحواء لأننا نفسر ، بعصيانهما أمر الله ، الشر الذى فطر الإنسان عليه ، وفقدانه لإرادته الحرة .

« إن عقل الإنسان لينفر كل النفور من عدل الله ، حتى إنه ليدرك ، ويرغب فى ، ويباشر كل شىء ، يتسم بالزندقة والانحراف والخسة والدس والفجور ، وطمس على قلبه بسم الخطيئة فلم يعد يصدر عنه إلا ما هو فاسد خبيث ، وإذا قام الناس فى وقت من الأوقات بعمل يبدو طيباً فى الظاهر ، فان العقل يظل دائماً متورطاً فى النفاق والخداع ، والقلب يظل عبداً لانحرافه الباطنى »(٦) .

وأنّى لمخلوق فاسد إلى هذا الحد أن يستحق النعيم الأبدى فى الفردوس ؟ ليس فى استطاعة واحد منا أن يحصل عليه مهما قدم من أعمال صالحات . حقاً أنه لا بأس بالأعمال الصالحات ، ولكن موت ابن الرب الذى ضحى بنفسه فى سبيل البشرية هو الذى يستطيع وحده أن يحقق للبشر الخلاص ، وليس للناس أجمعين ، لأن عدالة الرب تقتضى عذاب معظم البشر فى نار جهنم . ولكن رحمته تعالى قد اختارت بعضنا للظفر بالنجاة . وقد وهب تعالى هؤلاء إيماناً راسخاً بتكفير المسيح عن ذنوبهم . لأن القديس بولس قال : « لقد اختارنا الرب فى نفسه قبل خلق العالم بأن علينا أن نكون أمامه أطهاراً . لا تشوبنا شائبة فى الحب ، وقدر علينا أن نتخذ لنا أبناء . كما اتخذ المسيح عيسى ابنا له بمشيئته »(٧). وفسر كالفن هذا ، كما فسره لوثر ، فإن معناه أن الرب قد قرر بمشيئة حرة ، لا تتوقف أبداً على ما نتمتع به من فضائل ، أو نتصف به من رذائل . وقبل خلقنا بوقت طويل . من منا يكتب له النجاة ، ومن يعذب فى نار جهنم(٨) . ويجيب كالفن على السؤال الذى يتردد ، وهو : « لماذا شاء الله النجاة لبعض الناس . والعذاب لآخرين ، دون اعتبار لما قدموه من أعمال ، بكلمات بولس : « لأنه قال

لموسى إنى أتغمد برحمتى من أشاء وأعفو عمن أشاء »[٩] . ويختم كالفن حديثه بقـــوله :

« وطبقاً لهذا نؤكد أن الرب قدر بمشيئة أزلية لا تتبدل ، من يكتب له الخلاص ، ومن يحكم عليه بالعذاب والهلاك ، ونؤكد أن هذه المشيئة ، فيما يختص بالاختيار ، تقوم على رحمته ، التى يتغمد بها من يشاء ، دون اعتبار لما يستحقه الإنسان ، ولكن الذين حكم عليهم بالعذاب فى النار أغلق دونهم باب الحياة ، بمقتضى حكم عادل لا سبيل إلى نقضه ، ويدق على الفهم »[١٠] .

بل إن خروج آدم وحواء من الجنة ، وما ترتب عليه من نتائج بالنسبة للجنس البشرى فى رأى بولس « فرضته مشيئة الرب العجيبة »[١١] .

ويسلم كالفن بأن حتمية القدر تتنافى مع العقل ، ولكنه يرد بقوله : « ليس من المعقول أن يتقصى الإنسان هذه الأمور ، التى قرر الرب أن يخفيها عنا فى نفسه ويفلت من العقاب »[١٢] . ومع ذلك فإنه يعترف بأنه يعرف لماذا يقرر الرب بصورة تحكمية مصير ملايين الأرواح منذ الأزل : ذلك « لكى يزيد من إعجابنا بمجده » بعرض قوته[١٣] . ويوافق على أن هذا « حكم مروع » « ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر أن الله عرف مصير الإنسان النهائى فى المستقبل ، قبل أن يخلقه ، وأنه عرفه سالفاً ، لأنه كان قد قضى به فى حكمه »[١٤] . وقد يجادل آخرون من أمثال لوثر بأن المستقبل قد تحدد ، لأن الرب تنبأ به سلفاً ، وأن علمه بالغيب لا يمكن نفيه » . أما كالفن فإنه يرى عكس ما تقدم ، إذ أنه يعتقد أن الرب يتنبأ بالمستقبل ، لأنه شاء هذا وقرره . والحكم بالعذاب الأبدى حكم مطلق ، وليس هناك مُطهر فى لاهوت كالفن ، وليس هناك منزل فى منتصف الطريق ، يستطيع الإنسان بعد أن يقضى فيه بضع ملايين من السنين ، وهو يتعذب بالنار ، أن يمحو بها سيئاته ، وعلى هذا فلا محل للصلوات من أجل الموتى .

وقد يذهب بنا الظن إلى أنه لا معنى لأداء أى نوع من الصلاة ، وذلك بناء على افتراضات كالفن فما دام كل شيء قد تحدد بحكم الله ، فليس فى وسع فيض من الابتهالات أن يمحو ذرة واحدة من قدر الإنسان المحتوم . ومهما يكن من شيء ، فإن كالفن أكثر إنسانية من لاهوته ، فهو يقول لنا : فلنصل بتواضع وإيمان ، ولسوف يتقبل الله صلواتنا ، فالصلاة وتقبلها قد سبقا فى حكمه أيضاً . ولنعبد الله بأداء صلوات دينية متواضعة ، ولكن يجب علينا ألا ننبذ القداس ، ونعتبره ادعاء من القساوسة ، ينتهكون به الحرمات بتحويل مواد دنيوية إلى جسد المسيح ودمه ، والحق أن المسيح موجود فى القربان المقدس بروحه لا بجسده ، وعبادة رقاقة الخبز المقدسة ، بدعوى أن المسيح يحل فيها بجسده ، هى وثنية محضة . واستخدام الصور المنقوشة للرب انتهاك صارخ للوصية الثانية ، وتشجيع على عبادة الأوثان ، ويجب إزالة كل الصور والتماثيل الدينية ، بل والصليب من الكنائس .

والكنيسة الحقة هى جمهور المصلين غير المنظور من الصفوة ، الأموات أو الأحياء أو الذين سيولدون . وتتكون الكنيسة المنظورة ، من كل الذين « يعترفون معنا بنفس الرب والمسيح »[١٥] ، باعتناق عقيدة ، وبحياة مثالية ، وبالاشتراك فى مراسم التعميد والعشاء الربانى (رفض كالفن التسليم بالمراسم الأخرى) .

وليس هناك خلاص[١٦] خارج نطاق هذه الكنيسة . والدولة والكنيسة مقدستان ، وقد خلقهما الله ، لكى يعملا فى انسجام كالروح والجسد ، لمجتمع مسيحى واحد : وعلى الكنيسة أن تضع القواعد ، التى تنتظم كل التفاصيل الخاصة بالعقيدة والعبادة والأخلاق ، وعلى الدولة أن تدعم هذه القواعد[١٧] ، باعتبارها ذراع الكنيسة الطبيعى ، ويجب على السلطات الزمنية أن تكون على بصر من أن « عبادة الأوثان » (وهى ترادف إلى حد كبير الكاثوليكية فى العزف البروتستانتى) و « فضائح أخرى تمس الدين يجب

ألا تعرض وتنشر علناً بين الناس » ، وأن كلمة الله الطاهرة هي الوحيدة ، التي يجب أن يتعلمها ويتلقاها الناس[١٨] . والحكومة المثالية هي حكومة رجال الدين ، ويجب أن نعترف بالكنيسة التي تؤمن بالإصلاح الديني ، باعتبارها صوت الله .

وجدد كالفن جميع ادعاءات البابا بسيادة الكنيسة على الدولة ، وطالب بها لكنيسته .

ومما يلفت النظر مدى ما بقي من تقاليد الرومان الكاثوليك وآرائهم في لاهوت كالفن ، فهو مدين بعض الشيء لفلسفة الرواقيين ، وبخاصة سينيكا ، وبشيء لدراساته في القانون ، ولكنه اعتمد بصفة خاصة على القديس أوغسطين ، الذي استخلص القول بالجبر من القديس بولس ، الذي لم يعرف المسيح . وتجاهل كالفن بشدة ، مفهوم المسيح عن الرب بأنه أب محب رحيم ، ومر في هدوء على عدد كبير من آيات الكتاب المقدس ، التي افترضت حرية الإنسان في صياغة مصيره (٢ إصحاح بطرس ٣ : ٩ ، ١ إصحاح تيموثاوس ٢ : ٤ ، ١ إصحاح يوحنا ٢ : ٢ ، ٤ : ١٤ إلخ) .

ولم تكن عبقرية كالفن تكمن في أنه يأتي بأفكار جديدة ، ولكن في تطوير آراء من سبقوه إلى نتائج منطقية هدامة ، والتعبير عن هذه النتائج ببلاغة ، تضارع بلاغة أوغسطين ، وبصياغة تصميناتها العملية بمنهج ، يقوم على التشريع الكهنوتي . وأخذ عن لوثر عقيدة التبرير أو الاختيار بالإيمان ، ومن زونجلي التفسير الروحي للقربان المقدس ، ومن بوسر الآراء المتناقضة عن مشيئة الله ، باعتبارها سبباً لكل ما يحدث ، والحاجة إلى ورع عملي قوي ، باعتباره امتحاناً وشاهداً على الاختيار . ووصلت معظم تلك العقائد في صيغة أخف إلى التراث الكاثوليكي ، وأضفى عليها كالفن أهمية شديدة ، ولم يعبأ بالعناصر المعوضة المخففة في عقيدة القرون الوسطى .

كان أقرب إلى القرون الوسطى من أى مفكر بين أوغسطين ودانتى . ورفض رفضاً باتاً قبول إنشغال علماء الإنسانيات بأفضلية الدنيا ، وحول أفكار الناس من جديد إلى العالم الآخر ، بصورة كئيبة أكثر من قبل ، وأنكر الإصلاح الدينى فى مذهب كالفن من جديد « النهضة » .

وليس من شك فى أن لاهوتاً غير جذاب مثل هذا ، يحرز رضا مئات الملايين من الناس ، فى سويسرة وفرنسا وسكوتلنده وانجلترا وأمريكا الشمالية ، يبدو لأول نظرة سراً غامضاً ، ثم يبدو نوعاً من التجلى . ترى لماذا حارب الكالفينيون والهوجنوت والمتطهرون (البيوريتان) بمثل هذه الجرأة دفاعاً عن عجزهم ؟ ولماذا أسهمت هذه النظرية الخاصة بعجز البشر فى تكوين بعض الشخصيات ، التى تعد من أقوى الشخصيات فى التاريخ ؟ فهل حدث هذا لأن هؤلاء المؤمنين اكتسبوا ، من الاعتقاد بأنهم الصفوة القليلة ، قوة تفوق ما فقدوه منها ، بالتسليم بأن سلوكهم ليس له نصيب فى تحديد مصيرهم ؟ وكان كالفن نفسه خجولا وقوى العزم فى الوقت نفسه ، وكان واثقاً من أنه ينتمى إلى الصفوة ، ووجد فى هذا عزاء وسلوى ، إلى الحد الذى دفعه إلى أن يجد « الحكم المروع » للجبر « أمراً يؤدى إلى أبهج فائدة »(١٩) : وهل أسعد بعض من اصطفوا أنفسهم أن يتدبروا فى أن فئة قليلة كتب لها الخلاص ، وأن الكثرة الغالبة قدر عليها العذاب ؟ وليس من شك فى أن الاعتقاد بأن الله قد اصطفاهم منح كثيراً من الأرواح الشجاعة لمواجهـــة تقلبات الحياة ، والضرب فيها على غير هدى ، إلى غير ما هدف ظاهر ، مثل ما مكنت عقيدة مماثلة الشعب اليهودى من صيانة نفسه ، وسط محن كانت كفيلة بأن تهدم إرادة الحياة . حقا أن فكرة كالفن عن اختيار الله لبعض الناس قد يكون مديناً بها للصيغة اليهودية فى العقيدة ، كما تدين البروتستانتية بالكثير للعهد القديم بصفة عامة . ولا بد أن الثقة فى الاختيار الإلهى كانت درعاً يبث الشجاعة فى قلوب الهوجنوت ، لتحمل

آلام الحرب والمذابح ، وفى قلوب الحجاج وهم يجازفون بأنفسهم ، بحثاً عن أوطان جديدة على شواطئ معادية .

وإذا استطاع خاطئ مُقَوَّم أن يتشبث بهذه الثقة ، واستطاع أن يؤمن بأن تقويمه قد هيأه له الله ، فإن فى وسعه أن يقف راسخاً كالطود إلى النهاية . وقد رفع كالفن من قدر هذا الإحساس بالاعتزاز بالاختيار ، بأن جعل الصفوة ، سواء كانت معدمة أم لا ، أرستقراطية وراثية : فأبناء الصفوة يصبحون بمشيئة الله[٢٠] من الصفوة ، بطريقة آلية . وهكذا استطاع المرء بعمل بسيط من أعمال الإيمان بالنفس ، ولو كان هذا بالتصور ، أن ينال الفردوس وأن ينفذ إليها . ولمثل هذه النعم الخالدة كان أى اعتراف بالعجز صفقة رابحة .

وكان أتباع كالفن فى حاجة إلى مثل هذا العزاء ، لأنه علمهم وجهة النظر السائدة فى القرون الوسطى ، والتى تذهب إلى أن الحياة الدنيا ليست إلا وادياً للبؤس والدموع ، ورحب فى اغتباط بـ « تصحيح رأيهم الذى اعتبر أن أعظم نعمة ألا يولد المرء ، وأن أعظم نعمة بعدها أن يموت فوراً ، كما أنه لم يكن هناك شىء يتنافى مع العقل فى سلوك هؤلاء الذين كانوا ينوحون ويبكون عند ولادة أقربائهم ، ويبتهجون فى وقار عند تشييع جنازاتهم » ، ولم يأسف إلا لأن هؤلاء المتشائمين العقلاء ، وهم فى الغالب الأعم وثنيون جهلة بالمسيح ، قد حكم عليهم بالخلود فى نار جهنم[٢١] . وكان ثمة شىء واحد يجعل الحياة محتملة — الأمل فى سعادة مطردة بعد الموت ، وقال : « إذا كانت السماء بلدنا فما الأرض سوى منفى ؟ وأليست الدنيا لحداً ، إذا كان الرحيل عن هذا العالم معبراً إلى الحياة ؟ »[٢٢] وعلى النقيض من صورة كالفن الشعرية نجد أنه يقدم أبلغ ما سطر من صفحات ، لا فى وصف تخيلات الجحيم ، ولكن فى الحديث عن جمال السماء .

ولسوف تعانى الصفوة التقية ، دون أن تجأر بالشكوى ، كل ما فى

الحياة من آلام وأشجان ، « لأنهم سوف يضعون نصب أعينهم . ذلك اليوم الذى يستقبل فيه الرب عباده المخلصين فى مملكته الوادعة ، ويجفف كل دمعة تتساقط من عيونهم ، ويكسوهم بثياب الفرح ، ويزينهم بتيجان المجد ، ويؤانسهم بمباهج ، لا يمكن التعبير عنها ، ويرفعهم إلى درجة الزمالة لجلالته ، ويدعوهم إلى . . . المشاركة فى سعادته »(٢٣) . ولعل هـــذا كان اعتقاداً لا غنى عنه للفقراء أو التعســـاء الذين ينتشرون فى بقاع الأرض . . .

٣ — جينيف وستراسبورج : ١٥٣٦ — ٤١

بينما كان كتاب « القوانين » فى المطبعة (مارس ١٥٣٦) ، قام كالفن برحلة سريعة عبر جبال الألب إلى فرارا ، وذلك متابعة لتقليد مرعى بصفة عامة ، وإن لم ينعقد الإجماع على الخضوع له(٢٤) . ولعله ذهب إلى هناك ليطلب من الدوقة البروتستانتية رينيه ، زوجة الدوق أركول الثانى ، وابنة المرحوم لويس الثانى عشر ، أن تمد يد العون إلى البروتستانت المضطهدين فى فرنسا . وعينته مرشداً روحياً لها ، مدفوعة بقوة معتقداته الدينية ، وذلك عن طريق رسائل تفيض بالاحترام المتبادل ، ظلت موصولة حتى وفاته . وعاد كالفن إلى بازيل فى مايو ، وجازف بالذهاب إلى نويون ليبيع شيئاً من أملاكه ، ثم انطلق مع أخيه وأخته إلى ستراسبورج . وتوقفوا لبعض الوقت فى جنيف ، لأن الطريق كانت مغلقة بسبب الحرب (يوليو ١٥٣٦) .

وكانت عاصمة سويسرة الفرنسية أقدم من التاريخ نفسه . . . كانت فى عصور ما قبل التاريخ مجموعة من مآوى البحيرات ، شيدت فوق أكوام ، لا يزال بعضها يرى حتى اليوم . وكانت فى عهد يوليوس قيصر ملتقى لطرق التجارة عند الجسر ، الذى يخرج عنده نهر الرون مندفعاً من بحيرة ليمان ، ليضرب فى فرنسا بحثاً عن البحر الأبيض المتوسط . وخضعت جنيف فى العصور الوسطى لحكم أسقفها الروحى والدنيوى على السواء . وكان الأسقف

تختاره عادة إدارة الكاتدرائية ، التى أصبحت لذلك السبب قوة لها وزنها فى المدينة ، وتلك كانت بالضرورة الحكومة التى أعادها كالفن فيما بعد ، فى الشكل الذى يساير المذهب البروتستانتى . وتحرر دوقات سافوى ، التى كانت تقع خلف جبال الألب مباشرة ، من سيطرة إدارة الكاتدرائية فى القرن الخامس عشر ، ورقوا إلى منصب الأسقفية الرجال الذين أفادت منهم دوقية سافوى ، وأسلموا أنفسهم إلى ملذات الحياة الدنيا خوفاً من ألا يكون هناك عالم آخر . وفسدت الحكومة الأسقفية ، التى قدر لها أن تكون يوماً من أحسن الحكومات ، كما انحدرت أخلاق رجال الدين ، الذين يعملون تحت إمرتها . ووافق أحد القساوسة على تنفيذ أمر صدر له بطرد محظيته ، بشرط أن يتجرد زملاؤه من رجال الدين مثله من نخوتهم ، ورجحت كفة النخوة[٢٥] .

وفى نطاق هذا الحكم الكهنوتى الدوقى ، كونت العائلات الكبرى بجينيف مجلساً من ستين عضواً ، لإصدار القوانين البلدية ، واختار المجلس أربعة من المأمورين لتنفيذ هذه القوانين ، وكان المجلس يجتمع عادة فى مقر الأسقف لكاتدرائية القديس بطرس ، ولم يكن هناك خط فاصل بين الاختصاص الدينى والاختصاص المدنى ، فبينما كان الأسقف يسك النقود ويقود الجيش ، كان المجلس يضع الضوابط التى تحكم الأخلاق ، ويصدر قرارات الحرمان ، ويرخص للبغايا بالعمل . وكما جرى العرف فى ترير وماينز وكولونيا ، كان الأسقف أيضاً أميراً من أمراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ومن الطبيعى أنه أخذ على عاتقه القيام بوظائف ، يجد الأسقف نفسه فى حل منها الآن . وسعى بعض الزعماء المدنيين ، برئاسة فرانسوا دى بونيفار ، إلى تحرير المدينة من نير السلطة الأسقفية والسلطة الدوقية معاً . وعقد هؤلاء الوطنيون حلفاً بين فرايبورج الكاثوليكية وبرن البروتستانتية لدعم هذه الحركة . وأطلق على المنضمين لهذا الحلف الاصطلاح الألمانى **Eidgenossen** أى رفقاء القسم وهو لفظ معناه المتحالفون ، وحرفه

الفرنسيون إلى « هوجنوت . ولما أن حل عام ١٥٢٠ حتى أصبح زعماء مدينة جينيف من رجال الأعمال فى الغالب الأعم ، لأنها كانت على النقيض من فيتنبرج مدينة تجارية ، تتوسط فى التجارة بين سويسرة فى الشمال وإيطاليا فى الجنوب وفرنسا فى الغرب . وألف الأوساط من أهالى مدينة جينيف مجلسا أكبر ، يتكون من مائتى عضو ، واختار هؤلاء مجلساً أصغر يتكون من خمسة وعشرين عضواً ، وهو المجلس الذى أصبح الحاكم الحقيقى للبلدية ، وكان يزدرى سلطة الأسقف وسلطة الدوق على السواء . وأعلن الأسقف أن المدينة فى حالة تمرد ، واستدعى الفرق الدوقية لمساعدته ، فما كان من هذه الفرق إلا أن استولت على بونيفار ، وسجنته فى قصر شيلون ، وخف جيش مدينة برن إلى نجدة مدينة جينيف المحاصرة ، وهزمت قوات الدوق ، وتشتت شملها ، وفر الأسقف إلى أنيسى ، وتحرر بطل الشاعر بيرون من غياهب سجنه . وغضب المجلس الأكبر من مساعدة رجال الدين لدوقية سافوى ، فأعلن عقيدة الإصلاح الدينى ، وتولى اختصاص رجال الدين وولاية السلطة المدنية فى المدينة (١٥٣٦) ، قبل وصول كالفن بشهرين .

وكان البطل العقيدى لهذه الثورة هو ويليام فاريل . وكان مثل لوثر ، ورعاً جداً فى شبابه . وأقبل إلى باريس متأثراً بجاك ليفيفر ديتابل ، الذى أزعجت ترجمته للكتاب المقدس وتفسيره له تزمت فاريل ، لأنه لم يجد أى أثر فى نصوص الكتاب المقدس للبابوات والأساقفة وصكوك الغفران والمطهر والشعائر السبع والقداس والعزوبة المفروضة على رجال الكهنوت وعبادة مريم أو القديسين . وأنف من رسالة رجال الكهنوت ، فانطلق يجول من مدينة إلى مدينة فى فرنسا وسويسرة ، بصفته واعظاً مستقلا ، وكان ضئيل القامة ضعيف البنية جهورى الصوت قوى الروح ، له عينان متقدتان تبرقان فى وجهه الشاحب ، ولحية حمراء كاللهب ، وندد بالبابا ووصفه بأنه خصم للمسيحية ، كما ندد بالقداس ، واعتبره انتهاكاً للحرمات المقدسة ، وبأيقونات الكنيسة باعتبارها من الأوثان ، التى يجب أن تحطم ، وبدأ عام

١٥٣٢ الوعظ فى جنيف ، وقبض عليه عملاء الأسقف ، الذى رأى أن يلقى « الكاب اللوثرى » فى نهر الرون ، فتوسط المأمورون وهرب فاريل ، بعد أن أصيب ببضع سحجات فى رأسه ، وتلوثت سترته بشىء من البصاق . وكسب إلى صفه مجلس الخمسة والعشرين ، وأثار بمساعدة بينر فبريه وأنطوان فرومان الناس ، ونال الكثير من التأييد الشعبى ، مما دفع كل رجال الدين الكثالكة تقريباً إلى الرحيل . وأصدر المجلس الصغير يوم ٢١ مايو عام ١٥٣٦ مرسوماً بإلغاء القداس ، وإزالة كل التماثيل ومخلفات القديسين من الكنائس ، وحولت ممتلكات الكنيسة للوفاء باحتياجات البروتستانت الدينية ، وإلى وجوه البر والتعليم ، وجعل التعليم إجبارياً وبالمجان . وسيطر نظام أخلاقى صارم سيطرة القانون .

ودعى المواطنون لأن يقسموا على الولاء للإنجيل ، أما الذين رفضوا حضور الصلوات طبقاً لمبادئ الإصلاح الدينى فقد نفوا من البلاد[٢٦] . تلك هى جينيف التى أقبل إليها كالفن .

وكان فاريل وقتذاك فى السابعة والأربعين من عمره ، وعلى الرغم من أنه قدر عليه أن يعيش عاماً بعد كالفن ، فإنه رأى فى الشاب الصارم الفصيح . الذى يصغره بعشرين عاماً ، الرجل الذى تشتد الحاجة إليه لدعم الإصلاح الدينى ودفع عجلته إلى الأمام . وكان كالفن متردداً ، إذ كان قد رسم لنفسه حياة . يقضيها فى البحث العلمى والكتابة ، وكان يحس بالطمأنينة مع الله أكثر مما يحس بها مع الناس ، ولكن فاريل ، بطلعته التى تشبه طلعة نبى راعد من أنبياء الإنجيل ، هدد بأن يصب عليه لعنة الله ، إذا آثر دراساته الخاصة على التبشير الصعب والخطير بالكلمة التى لم يتطرق إليها الوهن .

وأذعن كالفن . ووافق المجلس ومشيخية الكنيسة ، وبدأ خدمته الدينية . دون التقيد بأى رسامة أخرى — بأن ألقى فى كنيسة القديس بطرس

أولى خطبه العديدة عن رسائل القديس بولس . وكان تأثير بولس فى كل مكان ، يدين بالبروتستانتية ، اللهم إلا بين الطوائف المتطرفة من الناحية الاجتماعية ، يحجب تأثير بطرس المؤسس الذائع الصيت لكرسى البابوية الرومانى .

وفى أكتوبر سافر كالفن برفقة فاريل وفيريه إلى لوزان ، واضطلع بدور صغير فى الجدل الشهير الذى كسب المدينة إلى صف المعسكر البروتستانتى ، ولدى العودة إلى جينيف شرع كهان أبرشية القديس بطرس ، الكبار والصغار ، فى هداية أهالى جينيف لله . وتقبلوا بإخلاص الإنجيل ، باعتباره تنزيلا من لدن الله ، وشعروا بأن عليهم التزاماً لا فكاك منه لدعم شريعته . وراعهم أن وجدوا أن كثيراً من الناس قد أسلموا أنفسهم للغناء والرقص وما أشبه من مظاهر الطرب ، وفضلا عن هذا فان بعضهم كان يقامر أو يشرب إلى درجة السكر البين ، أو يقارف الزنا .

وكان قسم بأكمله من المدينة تحتله بغايا ، تحكمهن ملكة الماخور ، وكان قبول هذا الموقف بالبشر من فاريل السريع الغضب ، وكالفن الحى الضمير ، بمثابة خيانة للرب .

وأصدر فاريل « إقراراً بالعقيدة والنظام » ، كما أصدر كالفن « عظة » سهلة الفهم ، أقرها المجلس الكبير (نوفمبر سنة ١٥٣٦) ، لكى يستعيدا الأساس الدينى لأخلاقيات مثمرة . وكان المواطنون الذين يصرون على مخالفة القانون الأخلاقى ، يحرمون من الغفران ، وينفون إلى خارج البلاد ، وأصدر المجلس فى يوليه عام ١٥٣٧ أمراً لجميع المواطنين ، بأن يذهبوا إلى كنيسة القديس بطرس ، وأن يقسموا على الولاء لإقرار فاريل .

وكان أى مظهر ينم على الكاثوليكية — مثل عمل مسبحة ، أو الاعتزاز بإحدى المخلفات المقدسة ، أو اعتبار عيد قديس يوماً مقدساً ، يعرض من يبدر منه للعقاب . وسجنت النساء لارتدائهن قبعات غير لائقة . وكان بونيفار

جد سعيد ، بما ينعم به من إباحية ، ولكنه حذر بأن يمتنع عن ممارسة أساليبه الداعرة . ووصفد المقامرون بالأغلال ، وسيق مقترفو الزنا فى الشوارع إلى المنفى .

ولما كان أهالى جينيف قد تعودوا على الخضوع لحكم كنسى ، كان يقوم على نظام أخلاقى ، يتسم بالرفق ، فرضته كاثوليكيـــة خففت من شدتها الأقاليم الجنوبية ، فإنهم قاوموا التحلل الجديد من الواجبات . ونظم الوطنيون ، الذين حرروا المدينة من الأسقف والدوق ، أنفسهم من جديد ، لتحريرها من قساوستها المتزمتين . وانضمت طائفة أخرى تطالب بحرية الضمير والعبادة ، ومن ثم أطلقت على نفسها اسم المتحررين أو الأحرار إلى الوطنيين والكاثوليك الذين يمارسون شعــيرتهم فى الخفاء ، وحصل هذا الائتلاف فى انتخابات ٣ فبراير عام ١٥٣٨ على أغلبية فى المجلس الكبير . وأبلغ المجلس الجديد القساوسة أن عليهم أن يبتعدوا عن السياسة ، فندد كالفن وفاريل بالمجلس ، ورفضا أن يناولا العشاء الربانى حتى تتواءم المدينة الثائرة مع النظام المرتكز على القسم ، فما كان من المجلس إلا أن خلع كاهنى الأبرشية (٢٣ أبريل) ، وأمرهما بمغادرة المدينة فى خلال ثلاثة أيام . واحتفل الناس بطردهما وسط مظاهر التهليل والابتهاج[٢٧] . ولبى فاريل دعوة إلى نويشاتل ، وهناك ظل يقدم عظاته إلى آخر يوم فى حياته (١٥٦٥) ، وأقيم هناك نصب تذكارى تخليداً لذكراه .

وذهب كالفن إلى شتراسبورج ، وكانت وقتذاك مدينة حرة لا تخضع إلا للإمبراطور ، وتدير شئونها الدينية كنيسة الغرباء ، وجماعة المصلين فيها بروتستانت ، جاءوا من فرنسا بصفة خاصة . ولكى يدبر أموره بمبلغ الاثنين وخمسين جيلدر (١,٣٠٠ دولار ؟) الذى كانت تدفعه له الكنيسة كل عام ، باع مكتبته ، وقبل عنده نزلاء من الطلبة . ووجد أن العزوبة لا تلائمه فى موقفه هذا ، فطلب من فاريل وبوسر أن يبحثا له عن زوجة ،

وقدم لهما بياناً بالصفات التي ينشدها ، وقال : « لست من هؤلاء العشاق المخبولين ، الذين يفتنهم وجه جميل لامرأة ، فيتجاوزون أيضاً عن أخطائها ، وهاهو الجمال الذى يغريني — أن تكون عفيفة كريمة غير متأنقة ، اقتصادية صبوراً حريصة على صحتى »[٢٨] .

وبعد أن قام بمحاولتين فاشلتين تزوج (١٥٤٠) من إيديليت دى بور ، وهى أرملة فقيرة لها سبعة أطفال ، فأنجبت منه ابناً واحداً مات فى سن الطفولة . وعندما قضت نحبها (١٥٤٩) كتب يرثيها برقة خاصة كانت تغلفها قسوته الظاهرة . وعاش وحيداً فى بيته الخمسة عشر عاماً المتبقية من حياته .

وبينما كان يشقى فى شتراسبورج ، تحركت الأحداث فى جينيف . وتشجع الأسقف المنفى عند ما علم بطرد فاريل وكالفن . ووضع خطة لعودة مظفرة إلى كاتدرائيته ، وقام بخطوة مبدئية . فأقنع ايا كوبو سادوليتو بأن يكتب « رسالة إلى أهالى جينيف » . « يحثهم فيها على أن يستأنفوا عباداتهم ، طبقاً للعقيدة الكاثوليكية » (١٥٣٩) . وكان سادوليتو رجلا مهذباً يتمتع بخلق قويم ، لم يعهده الناس فى كاردينال أو عالم بالإنسانيات ، وكان قد أشار من قبل على البابوية أن تعالج انشقاق البروتستانت برفق ، واستقبل فى مدينة كاربنتراس فيها بعد هراطقة والدانيين فارين من المذبحة ، وأسبغ عليهم حمايته (١٥٤٥) ، وكتب رسالة بلاتينية رفيعة ، تعلمها من بمبو المعصوم ، وجهها إلى إخوته الأعزاء المحبوبين ، حكام جنيف وشيوخها والمواطنين فيها ، وتتألف الرسالة من عشرين صفحة ، تحفل بالمجاملات الدبلوماسية والترغيب اللاهوتى ، ولاحظ انقسام البروتستانت إلى طوائف متحاربة يتزعمها ، كما يدعى ، رجال ماكرون ، يتشوفون إلى السلطة ، وقارن هذا بوحدة الكنيسة الرومانية ، التى دامت قروناً طويلة ، وتساءل هل من المحتمل أن يكون الحق مع تلك الأحزاب المتعارضة أكثر منه مع عقيدة كاثوليكية أثمرتها خبرة عصور واحتشاد ذكاء المجالس

الكنسية . وختم رسالته بأن عرض على مدينة جينيف ، أنه على استعداد للقيام بأية خدمة فى مقدوره .

وشكره المجلس على تحيته له ، ووعده بالمزيد من الاستجابة لمطالبه ، بيد أنه لم يكن فى جينيف أحد ، يأخذ على عاتقه ، أن يرفع السيف فى وجه عالم الإنسانيات المهذب ، أو يجاريه فى لاتينيته . وفى غضون ذلك طلب عدد من المواطنين أن يتحللوا من قسمهم ، على أن يؤيدوا إقرار العقيدة والنظام ، وخيل للناس فترة ما أن المدينة سوف تعود إلى اعتناق الكاثوليكية . وكان كالفن مدركاً للموقف ، فخف للرد على الكاردينال ، وحشد كل ما يملك من طاقة ذهنية ، وشرع قلمه للدفاع عن الإصلاح الدينى . وواجه الدماثة باللطف ، والبلاغة بالبلاغة ، ولكنه لم يتنازل قيد أنملة عن أى مبدأ من مبادئ لاهوته ، واحتج ضد إقحامه فى النزاع ، بدعوى أنه إنما ثار مدفوعاً بطموح شخصى ، فقد كان فى وسعه أن ينعم بالمزيد من الطأنينة ، لو ظل محافظاً على العقيدة . وسلم بأن الكنيسة الكاثوليكية تستند إلى أساس إلهى . ولكنه هاجمها ، وقال إن مثالب بابوات عصر النهضة قد أثبتت استيلاء المناهض للمسيحية على عرش البابوية . واعترض على حكمة المجالس الكنسية بحكمة الكتاب المقدس ، التى كان سادوليتو قد تجاهلها أو كاد ، وأسف لأن فساد الكنيسة أدى إلى الانشقاق والانقسام ، ولكن القضاء على الشرور لا يتم إلا على هذا النحو . وإذا ما تعاون الكثالكة والبروتستانت الآن ، لتطهير العقيدة والشعيرة والعاملين بكل الكنائس المسيحية ، فإن جزاءهم وحدة أبدية فى السماء مع المسيح . وكان خطاباً قوياً ولعله أغفل الفضائل العارضة لبابوات عصر النهضة : إلا أن عباراته صيغت بأسلوب رصين ، لا يخلو من المجاملة ، وهو أمر نادر فى مناظرات هذا العهد .

وعند ما اطلع عليه لوثر فى فيتنبرج ، رحب به على أساس أنه سيقضى تماماً على الكاردينال ، وهتف قائلا : « لشد ما يطربنى أن يهيئ الله أناساً . . . ينهون الحرب ، التى بدأتها ضد المناهض للمسيحية »[٢٩] . وتأثر

مجلس جنيف إلى حد أنه أمر بطبع الخطابين على نفقة المدينة (١٥٤٠) ، وبدأ يتساءل ما إذا كان ، بنفيه كالفن ، قد فقد أقدر رجل فى الإصلاح الدينى السويسرى .

وغذت الشك عوامل أخرى . فقد برهن كاهنا الأبرشية ، اللذان حلا محل فاريل وكالفن ، على أنهما لا يصلحان للوعظ ، ويفتقران إلى النظام . وفقد الجمهور احترامه لهما ، وعاد إلى الأخلاق المنحلة ، التى كانت سائدة فى الأيام السابقة للإصلاح الدينى . وتفشيت المقامرة والسكر ، واشتدت الجلبة فى الشوارع . وانتشر الزنا ، وكان الناس يرفعون عقائرهم علناً بالأغانى الداعرة . وانطلق أشخاص فى الشوارع ، عراة كما ولدتهم أمهاتهم[٣٠]. ولقد حكم بالإعدام على واحد من المأمورين الأربعة ، الذين تزعموا حركة طرد فاريل وكالفن . وذلك لارتكابه جريمة قتل ، وعلى آخر لارتكابه جريمة تزوير ، وعلى ثالث بتهمة الخيانة للوطن . أما الرابع فقد مات ، وهو يحاول الفرار من الاعتقال . ولا بد أن رجال الأعمال ، الذين كانوا يسيطرون على المجلس ، قد ساءهم هذا الإخلال بالنظام ، باعتباره معوقاً للتجارة . ولم يكن المجلس نفسه ميالا إلى أن يحل محله أسقف ، يستعبد سلطانه ، وربما يصدر قراراً بحرمانهم من غفران الكنيسة . وهكذا خطرت فكرة دعوة كالفن لغالبية الأعضاء شيئاً فشيئاً . وفى يوم أول مايو ألغى المجلس قرار النفى ، وأعلن أن فاريل وكالفن رجلان جديران بالاحترام . وأرسل مندوب إثر مندوب إلى شتراسبورج ، لإقناع كالفن باستئناف عمله فى الأبرشية بجنيف . وغفر فاريل للمدينة لأنها لم ترسل له دعوة مماثلة . وفى كرم نبيل انضم إلى المندوبين لحث كالفن على العودة . ولكن كالفن كان قد عرف كثيراً من الأصدقاء فى شتراسبورج . وشعر بأن عليه التزامات هناك ، ورأى أنه لن يجد أمامه فى جنيف إلا الخصام ، وقال : « ليس فى العالم مكان أخشاه أكثر منها » . ووافق على القيام بزيارة للمدينة فحسب . وعندما وصل إليها (١٣ سبتمبر سنة ١٥٤١) قوبل

بكثير من مظاهر التكريم ، وقدمت له عشرات الاعتذارات ، وبذلت له الكثير من الوعود ، بالتعاون معه فى توطيد النظام ، والعمل بالإنجيل فلم يطاوعه قلبه على الرفض ، وكتب فى ١٦ سبتمبر إلى فاريل يقول : « لقد تحققت أمنيتك . أنا هنا راسخ كالطود . وأسأل الله أن يمنحنا بركته »(٣١) .

٤ ــ مدينة الله

كان سلوك كالفن فى السنوات الأولى من دعوته ، يتسم بالاعتدال والتواضع فكسب إلى صفه الجميع ، إلا أقلية ضئيلة ، وعين ثمانية من مساعدى القسس للعمل تحت رئاسته لتقويم الخدمة الدينيـــة فى كنيسة القديس بطرس وغيرها من كنائس المدينة ، وكان يعمل مدة تتراوح بين اثنتى عشرة ساعة وثمانى عشرة ساعة كل يوم ، واعظاً ومدبراً وأستاذاً للاهوت ، ومشرفاً على الكنائس والمدارس ، ومستشاراً للمجالس البلدية ، وضابطاً للأخلاق العامة ، ومنظماً للطقوس الدينية فى الكنيسة . وعكف فى غضون ذلك على إضافة فصول لكتابه « القوانين » ، وكتب تعليقات على الكتاب المقدس ، وحافظ على كتابة رسائل تأتى من حيث القيمة بعد رسائل أرازموس ، وإن كانت تفوقها تأثيراً . . . ولم يكن ينام إلا قليلا ، ويأكل قليلا ، ويصوم كثيراً . وعجب خلفه وكاتب سيرته ، تيودور دى ميز ، كيف استطاع ذلك الرجل الضئيل الجسم ، أن يحمل مثل هذا العبء الثقيل المتنوع .

وكان أول عمل قام به هو إعادة تنظيم الكنيسة ، التى تناولها الإصلاح ، وعين المجلس الصغير ، بناء على طلبه ، وعقب عودته لفترة قصيرة ، لجنة من خمسة من رجال الدين ، وستة من أعضاء المجلس ، يرأسهم كالفن ، لصياغة قانون كنسى جديد . وفى اليوم الثانى من يناير عام ١٥٤٢ أجاز المجلس القوانين الكنسية ، التى لا تزال الكنائس التى تناولها الإصلاح والمشيخية فى أوربا وأمريكا تقبل معالمها الجوهرية . وقسمت الخدمة الدينية على كهان أبرشيات ومعلمين ، شيوخ كنيسة من العلمانيين وشمامسة ،

وألف كهان الأبرشيات فى جينيف « الجماعة المبجلة » ، التى حكمت الكنيسة ، ودربت المرشحين للخدمة الدينية . ولم يسمح كذلك لأحد بالوعظ فى جينيف ، دون أن يخول ذلك من الجماعة ، وكان الأمر يتطلب أيضاً موافقة مجلس المدينة وجماعة المصلين ، إلا أن الرسامات الأسقفية — وتنصيب الأساقفة — كانت محظورة .

وأصبح القساوسة الجدد ، تحت رئاسة كالفن ، أقوى منهم فى أى نظام للقساوسة عرف منذ عهد إسرائيل القديمة ، وذلك فى الوقت الذى لم يدعوا فيه قط أنهم وهبوا القوى الخارقة للقساوسة الكاثوليك ، وعلى الرغم من أنهم أصـــدروا على أنفسهم حكماً بأنهم لا يصلحون للوظيفة المدنية . وقال كالفن إن القانون الحقيقى لدولة مسيحية يجب أن يكون هو الكتاب المقدس ، وأن القساوسة هم المفسرون الحقيقيون لذلك القانون ، وأن الحكومات المدنية يجب أن تخضع لهذا القانون ، وأن تدعمه كما يفسره رجال الدين . ولعل الرجال المتمرسين فى المجالس قد راودتهم بعض الشكوك ، فى هذه النقاط ، ولكن يبدو أنهم شعروا بأن النظام الاجتماعى أجدى للاقتصاد ، ومن هنا فإن بعض الدعاوى الكنسية يحسن أن تترك موقتاً دون اعتراض ، والظاهر أن حكومة رجال الدين ظلت تسيطر على حكومة أقلية من التجار ورجال الأعمال خلال ربع قرن عجيب .

ومارس رجال الدين سلطتهم على حياة أهالى جينيف من خلال مجمع للكرادلة أو مشيخة مكونة من خمسة من كهنة الأبرشية واثنى عشر شيخاً للكنيسة من العلمانيين ، والجميع يختارهم المجلس .

وبينما كان كهنة الأبرشية يتمسكون بحقهم فى المنصب ، من خلال خدمتهم الدينية ، وشيوخ الكنيسة يظلون فى مناصبهم عاماً واحداً فقط ، فان مجمع الكرادلة كان يحكمه أعضاؤه من رجال الدين فى أمور لا تمس الأعمال بصورة جوهرية . وادعى لنفسه الحق فى تنظيم العبادة الدينية وفرض السلوك الأخلاقى على كل ساكن ، وأرسل قسيساً وشيخاً للكنيسة ، لكى

يزورا سنوياً كل بيت وكل أسرة . وكان له الحق فى استدعاء أى شخص للمثول أمامه ، لاختباره ، وكان فى وسعه زجر الآثمين ، أو حرمانهم من الغفران علناً ، وكان يستطيع أن يعتمد على المجلس فى أن ينفى عن المدينة من أصدر عليهم مجمع الكرادلة قراراً بالحرمان من غفران الكنيسة . وكان كالفن يقبض على زمام السلطة ، باعتباره رئيساً لهذا المجمع . وكان صوته أقوى الأصوات تأثيراً فى جينيف ، من عام ١٥٤١ حتى وفاته فى عام ١٥٦٤ . ولم يكن حكمه المطلق يستند إلى القانون أو سوة ، ولكنه كان يعتمد على الإرادة والخلق . ولقد أضفت عليه قوة إيمانه برسالته ، وكمال إخلاصه لواجباته ، قوة لم يستطع أحد أن ينجح فى مقاومتها ولوأن هيلدبراند بعث من قبره لطرب أيما طرب لهذا الانتصار الواضح للكنيسة على الدولة .

هكذا خول رجال الدين سلطات ، أتاحت لهم أن ينظموا أولا العبادات . « على جميع أفراد الأسرة أن يحضروا العظات يوم الأحد ، ما عدا من يتركون فى البيت ، لرعاية الأطفال أو الماشية . وإذا كان ثمة وعظ فى أيام الأسبوع ، فعلى كل من يستطيع الحضور أن يجيء » « كان كالفن يلقى عظاته ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع » « وإذا جاء أحد بعد ابتداء العظة فلينذر . وإذا لم يقوم نفسه ، فليدفع غرامة قدرها ثلاثة فلسات »[٣٢] . وليس لأحد أن يعفى من أداء الصلوات البروتستانتية ، بحجة أنه يعتنق عقيدة دينية مخالفة ، أو خاصة ، وكان كالفن مدققاً ، مثل أى بابا ، فى رفضه الفردية فى العقيدة . ولقد رفض أعظم مشرع للبروتستانتية ذلك المبدأ الخاص بالحكم الفردى ، الذى كان الدين الجديد قد بدأه . كان قد رأى انقسام الإصلاح الدينى إلى مائة طائفة ، وعرف مسبقاً أكثر من هذا ، وقرر ألا يسمح بوجود طائفة منها فى جينيف . إن هناك هيئة من رجال الدين العلماء ، تصوغ عقيدة رسمية ، وعلى الذين لا يقبلون اعتناقها من أهالى جينيف ، أن يبحثوا لهم من مواطن أخرى . وكان التغيب فى إصرار عن حضور الصلوات البروتستانتية ، أو الاستمرار فى رفض تناول القربان المقدس ، من الجرائم

التى يعاقب عليها القانون . وأصبحت الهرطقة من جديد إهانة للرب ، وخيانة للدولة ، وكل من تثبت عليه يعاقب بالإعدام . كما أصبحت الكاثوليكية التى بشرت بهذا الحكم على الهرطقة بدورها هرطقة .

وبين عامى ١٥٤٢ و ١٥٦٤ نفذ حكم الإعدام فى ثمانية وخمسين شخصاً . ونفى ستة وسبعون . بسبب مخالفتهم للقانون الجديد . وكان السحر هنا كما فى أى مكان آخر جريمة يعاقب من يزاوله بالإعدام . ولقد أرسل إلى سارية الإحراق فى عام واحد ، وبناء على ما أشار به مجمع الكرادلة ، أربع عشرة سيدة ، قيل أنهن من الساحرات . بتهمة إغرائهن للشيطان ، بأن يصيب جينيف بوباء الطاعون(٢٣) .

ولم يميز مجمع الكرادلة إلا قليلا بين الدين والأخلاق . . . كان السلوك الأخلاقى ، ومثله فى ذلك مثل العقيدة الدينية ، يجب أن يلتزم بعناية ، ذلك لأن حسن السلوك هو الهدف من العقيدة الصحيحة . وكان كالفن ، وهو رجل حازم قوى المراس ، يحلم بمجتمع يدين بنظام صارم ، إلى حد تبرهن فضائله على لاهوته ، وتجلل بالعار الكاثوليكية ، التى أثمرت حياة الترف والانحلال فى روما ، أو تسامحت فيهما . ولا بد أن يكون النظام العمود الفقرى للشخصية ، وأن يمكنها من أن ترقى بنفسها . من وحدة الفطرة البشرية ، إلى استقامة الإنسان الذى قهر شهوات نفسه . يجب أن يكون رجال الدين قدوة لغيرهم . بسلوكهم وبإدراكهم الحسى . ولهم أن يتزوجوا وأن ينجبوا ، وعليهم أن يمتنعوا عن الصيد والمقامرة واللهو والتجارة وضروب التسلية الزمنية ، وأن يقبلوا أن يقوم رؤساؤهم من رجال الكنيسة بجولة تفتيشية سنوية ، وأن يتقصوا عن أخلاقهم .

ولتنظيم سلوك الجماهير أقيم نظام ، يعتمد على الزيارات المنزلية ، يتلخص فى أن أحد شيوخ الكنيسة أو غيره ، كان يزور سنوياً كل بيت عين له فى الحى ، ويسأل السكان عن مراحل حياتهم كلها . وانضم مجمع الكرادلة

والمجلس إلى إقرار تحريم المقامرة ولعب الورق والتجديف والسكر والتردد على الحانات والرقص (الذى كان وقتذاك يعنى بالقبلات والأحضان) ، والأغانى الماجنة أو الخارجة على الدين ، والإفراط فى اللهو ، والبذخ فى العيش ، والتبذل فى اللبس . وحدد القانون اللون المسموح به فى الملابس ومقدارها ، وعدد الأطباق المسموح بها فى الوجبة الواحدة . وكانت الحلى والمخرمات تقابل بالتجهم . وسجنت امرأة ، لأنها صففت شعرها إلى ارتفاع يتنافى مع الأدب[٣٤] . واقتصرت الحفلات المسرحية على التمثيليات الدينية ثم منعت هذه أيضاً . وكان الأطفال لا يسمون بأسماء القديسين — الواردة فى التقويم الكاثوليكى ، ولكن فضل أن يطلق عليهم أسماء شخصيات ، ذكرت فى العهد القديم ، واشتغل والد عنيد أربعة أيام فى السجن ، لأنه أصر على تسمية ابنه كاود بدلا من أبراهام[٣٥] . وفرضت الرقابة على المطبوعات ، طبقاً لسوابق كاثوليكية وعلمانية ، وتوسع فيها (١٥٦٠) : فقد حُظر تداول كتب تتناول عقيدة دينية خاطئة ، أولها نزعة تتنافى مع الخلق القويم ، وقدر لمقالات مونتانى وكتاب « أميل » لروسو أن تقع تحت طائلة هذا الحظر . وكان الحديث عن كالفن أو رجال الدين بازدراء يعد جريمة[٣٦] ، وأول مخالفة لهذه القوانين كانت تعاقب بالزجر ، أما المخالفة التالية فكانت تعاقب بالغرامات ، والإصرار على المخالفة بالسجن أو النفى . أما الفسق فكان مرتكبه يعاقب بالنفى أو بالموت غرقاً ، ومن يرتكب جريمة الزنا أو الكفر أو عبادة الأوثان يعاقب بالإعدام . وفى مثل خارج على القياس قطعت رأس طفل ، لأنه ضرب والديه[٣٧] . وفى عامى ١٥٥٨ — ٥٩ رفعت ٤١٤ دعوى بسبب جرائم أخلاقية ، وبين عامى ١٥٤٢ و ١٥٥٦ أقصى عن البلاد ستة وسبعون شخصاً ، ونفذ حكم الإعدام فى ثمانية وخمسين ، وكان التعداد الكلى لسكان مدينة جينيف وقتذاك حوالى ٢٠,٠٠٠ نسمة[٣٨] . وكثيراً ما استخدم التعذيب وسيلة للحصول على اعترافات أو دليل ، كما كان يحدث فى كل مكان فى القرن السادس عشر .

وامتد التنظيم إلى التعليم والمجتمع وإلى الحياة الاقتصادية ، وأسس كالفن مدارس وأكاديمية ، وبحث فى أرجاء أوربا عن مدرسين للغات اللاتينية واليونانية والعبرية وللاهوت ، ودرب قساوسة من الشبان حملوا إنجيله إلى فرنسا وهولندة وسكوتلاندة وانجلترا ، بكل ما اتصف به المبشرون اليسوعيون من حمية وإخلاص فى آسيا ، وأرسلت مدينة جينيف فى خلال أحد عشر عاماً (١٥٥٥ — ٦٦) ١٦١ مبعوثاً من أمثال هؤلاء إلى فرنسا ، أنشد الكثير منهم المزامير الهوجنوتية ، وهم يتعرضون للاستشهاد ، ورأى كالفن أن التقسيم الطبقى أمر طبيعى ، وأسبغ تشريعه الحماية على الرتبة والمنصب ، بفرض نوع من اللباس ، ووضع حدود لنشاط كل طبقة(٣٩) . كان على كل شخص أن يتقبل وضعه فى المجتمع ، وأن يؤدى واجباته ، دون حسد لمن هم خير منه ، أو شكوى من سوء حظه . وحُظر التسول ، واستبدل ، بالإحسان دون أى تمييز ، إدارة جماعية ، تتسم بالعناية للمساعدات التى تقدم للتفريج عن الفقراء .

والتزم مذهب كالفن بالعمل الشاق والرصانة والاجتهاد والاعتدال فى النفقة ، وأصبح الاقتصاد قانوناً دينياً ، يحلل بالغار رأس المعتصم به ، ولعل ذلك هو الذى أسهم فى تطوير ما فطر عليه رجل الأعمال البروتستانتى الحديث ، من المثابرة على العمل ، ولقد بولغ فى تأكيد أهمية(٤٠) هذه العلاقة ، إذ كانت الرأسمالية قد نمت فى فلورنسا والفلاندرز الكاثوليكيتين قبل الإصلاح الدينى إلى درجة أكبر مما حدث فى جينيف مدينة كالفن . ورفض كالفن المذهب الفردى فى الاقتصاديات كما رفضه فى الدين والأخلاق .

وكانت وحدة المجتمع ، فى رأيه ليست الفرد الحر (الذى بدأ به لوثر ثورته) ، ولكن مجتمع دولة المدينة ، التى ارتبط أعضاؤها بها بقانون حازم ونظام صارم . وكتب يقول ، ليس لأحد من أعضاء الجماعة المسيحية أن يحتفظ بمواهبه لنفسه ، وأن يقصرها على استعماله الخاص ، بل

يجب أن يشرك فيها زملاءه من الأعضاء ، وليس له أن يجنى فائدة إلا من تلك الأشياء ، التى تنشأ من النفع العام للهيئة ، باعتبارها كلا لا يتجزأ »(٤١) « ولم يكن يظهر أى عطف نحو المضاربة لجمع المال أو تكديسه بصورة جائزة(٤٢) » وسمح بتقاضى فائدة على القروض مثل بعض أصحاب النظريات الكاثوليكية فى أواخر القرون الوسطى ، ولكنه حدد الفائدة نظرياً بخمسة فى المائة ، وحث على منح قروض ، دون تقاضى أية فائدة ، إلى الأفراد المعوزين أو الدولة(٤٣) . وعاقب مجمع الكرادلة ، بموافقته ، المحتكرين والمستغلين والمقرضين الذين يتقاضون فوائد باهظة ، وحدد المجمع أسعار الطعام والملابس وأجور العمليات الجراحية ، وذم التجار الذين غشوا عملاءهم أو فرض عليهم غرامات ، والبائعين المطففين الذين إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ينقصون ، وبائعى الأقمشة الذين يختلسون من الأثواب(٤٤) . وكان النظام أحياناً يسير نحو اشتراكية الدولة . فقد أسست الجماعة الموقرة مصرفاً وأدارت بعض الصناعات(٤٥) .

وإذا وضعنا فى أذهاننا هذه العوامل المقيدة ، فإننا قد نسلم بوجود اتفاق ودى صامت ومتزايد بين مذهب كالفن والعمل والتجارة ، وما كان فى وسع كالفن أن يحتفظ طويلا بزعامته ، لو أنه عاق النمو التجارى فى مدينة تعتمد فى حياتها على التجارة . وهيأ نفسه للموقف ، وسمح بتقاضى فائدة قدرها عشرة فى المائة ، وأوصى بمنح قروض للدولة ، لتمويل صناعة خاصة ، تدخل لأول مرة ، أو للتوسع فيها ، كما حدث فى صناعة النسيج أو فى إنتاج الحرير . ومالت المراكز التجارية ، مثل أنتورب وأمستردام ولندن توا للدين الجديد ، الذى تقبل الاقتصاد الحديث . وطوى مذهب كالفن فى أحضانه الطبقات الوسطى ونما بنموهم .

وماذا أسفر عنه حكم كالفن ؟ لا بد أن الصعوبات التى واجهت التنفيذ كانت هائلة ، لأنه لم يحدث قط فى التاريخ أن طولبت مدينة بمراعاة مثل هذه الفضيلة الصارمة ، وعارض فريق كبير نظام الحكم إلى درجة إعلان

الثورة الصريحة ، ولكن لا بد أن عدداً لا يستهان به من المواطنين ذوى النفوذ قد أيدوه . ولو على أساس النظرية العامة للأخلاق ، لأن آخرين كانوا فى حاجة إليها . وليس من شك فى أن تدفق الهوجنوت الفرنسيين وغيرهم من البروتستانت قد أطلق يد كالفن ، ثم أن قصر التجربة على مدينة جينيف وما وراءها قد رفع من فرص النجاح . ولا شك أن الخوف المتواتر من غزو الدول المعادية لها (سافوى وإيطاليا وفرنسا والإمبراطورية) وامتصاصها قد فرض الاستقرار السياسى والخضوع المدنى ، ورفع الخطر الخارجى من شأن النظام الداخلى ، وعلى أى حال فإن لدينا وصفاً حماسياً للنتائج التى أسفر عنها هذا الحكم ، بقلم شاهد عيان هو برناردينو أوكينو ، وهو إيطالى بروتستانتى ، وجد ملجأ فى مدينة جينيف .

«إن السب والتجديف وعدم التمسك بالعفة وتدنيس المقدسات والزنا والحياة غير الطاهرة ، كما يشيع ويغلب ذلك فى كثير من الأماكن التى عشت فيها ، غير معروفة هنا . ليس هناك قوادون ومومسات . إن الناس لا يعرفون ما هو الأحمر ، وكلهم يرتدون زيا لائقاً ، والألعاب التى تعتمد على الحظ ليست مألوفة . والخير جد وفير إلى حد أن الفقراء ليسوا فى حاجة إلى التسول . والناس يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف بطريقة أخوية كما فرض المسيح .

والدعاوى اختفت من المدينة ولم يعد فيها أى اتجار بالمقدسات أو قتل أو روح حزبية ، وعمها السلام وحب الخير ، ومن جهة أخرى ليس هناك آلات أرغن ولا أجراس تدق ولا أغانى استعراضية ولا شموع تشعل أو مصابيح تضاء (فى الكنيسة) وليس هناك مخلفات مقدسة أو صور أو تماثيل أو مظلات أو أثواب فاخرة أو هزليات أو احتفالات باردة . إن الكنائس خالية تماماً من عبادة الأوثان»(٤٦) .

ولا تتفق سجلات المجلس المستفيضة عن هذا العهد ، مع هذا التقرير ،

فهى تكشف عن نسبة مئوية عالية من الأطفال غير الشرعيين والأطفال المهجورين والزيجات التى تمت بالإكراه والأحكام الصادرة بالإعدام(٤٧) . ومن بين من أدينوا بالزنى صهر(٤٨) كالفن وابنة زوجته . ولكننا نجد مرة أخرى حوالى عام ١٦١٠ فاليتتين أندريا وهو قسيس لوثرى من فيتنبرج يثنى على مدينة جنيف ثناء لا يخلو من الحسد ويقول : « عند ما كنت فى جنيف لاحظت شيئاً عظيماً سوف أذكره وأتشوف إليه ما حييت . ففى تلك المدينة ليس هناك نظام كامل لجمهورية كاملة فحسب . ولكن هناك نظام أخلاقى يقوم باستقصاءات أسبوعية عن سلوك المواطنين بل وعن أقل عمل يتجاوزن به الحدود . وذلك كحلية خاصة . . . وكل السباب والتجديف والقمار والترف والشقاق والكراهية والغش محظورة ، وفى الوقت نفسه لا يسمع أحد عن الكبائر . فأية صفة مجيدة يتحلى بها الدين المسيحى أعظم من مثل هذه الطهارة فى الأخلاق . إننا يجب أن نبكى وننوح على أننا (الألمان) نفتقد هذه الصفات وأنها أهملت عندنا كلية .

ولولا ما بيننا من خلاف فى الدين لربطت نفسى بمدينة جنيف إلى الأبد(٤٩) .

٥ — معارك كالفن

اتسقت شخصية كالفن مع لاهوته . وتصوره اللوحة الزيتية المحفوظة فى مكتبة الجامعة بجنيف رجلا صوفياً صارماً حزيناً ذا بشرة قاتمة هربت منها الدماء ، ولحية سوداء قليلة الشعر ، وجبهة عريضة وعينين قاسيتين نفاذتين . وكان قصير القامة نحيل الجسد ضعيف البنية لا يكاد يصلح لأن يحمل مدينة بين يديه . ولكن خلف الهيكل الضعيف يتوقد ذهن حاد فذ مخلص مدقق وإرادة حازمة لا تنهر ولعلها إرادة للقوة . وكان فكره قلعة للنظام جعل منه تقريباً أكوينى اللاهوت البروتستانتى . وكانت ذاكرته تزخر بآلاف الموضوعات إلا أنها دقيقة وكان يسبق عصره فى الشك فى علم التنجيم ويواكبه فى رفض الاعتراف بكوبرنيكوس ويتخلف عنه قليلا (مثل لوثر) فى نسبة كثير من الحوادث الدنيوية إلى الشيطان . وكان

وجله يخفى شجاعته وخجله يحجب كبرياء في باطنه وذلته أمام الله أصبحت في بعض الأحايين عجرفة آمرة أمام الناس . وكان شديد الحساسية للنقد ولم يكن في وسعه أن يتحمل المعارضة بجلد امرئ يستطيع أن يدرك احتمال أنه قد يكون مخطئاً . وهده المرض وانحنى ظهره من كثرة العمل ولذا كان كثيراً ما كان يتميز غيظاً وينفجر في نوبات من الفصاحة الغاضبة ، واعترف لبوسر بأنه وجد أن من الصعب عليه أن يروض « الوحش الكامن في غضبه »(٥٠) ولم يكن من فضائله المرح الذى كان حرياً بأن يخفف من يقينياته ولا الإحساس بالجمال الذى كان كفيلا بأن يستبقى الفن الكنسي . ومع ذلك فانه لم يكن مشاغباً لاتلين قناته ، وأمر أتباعه بأن يكونوا منشرحين وأن يلعبوا ألعاباً لا ضرر منها مثل لعب الكرة ولعبة صيد الخنزير بحلقات الحبال وأن يستمتعوا بشرب النبيذ في اعتدال . وكان في وسعه أن يكون صديقاً حنوناً رقيق القلب وعدواً لا يتسامح ، وكان قادراً على إصدار أحكام قاسية وعلى الانتقام بشدة . وكان الذين يخدمونه يخشونه(٥١) ، أما الذين كانوا يحبونه فهم الذين عرفوه حق المعرفة . وكانت حياته الجنسية خالية من الزلات ، وكان يعيش في بساطة ويأكل قليلا ، ويصوم دون أن يقصد التباهي ، ولا ينام إلا ست ساعات في اليوم ، ولم يحصل قط على إجازة ، واستنفد قواه دون تحديد فيما ظن أنه عبادة الله . ورفض أن يمنح زيادة في مرتبه ولكنه سعى لكى يرفع الأموال المخصصة للبر بالفقراء . وقال البابا بيوس الرابع : « إن قوة ذلك الهرطيق تكمن في هذا : إن المال لم يكن له أقل سحر عليه . وإذا كان لدى أتباع مثله فإن مملكتى سوف تمتد من البحر إلى البحر »(٥٢) .

ورجل له مثل هذا الطبع لا بد أن يثير حقد كثير من الأعداء . وحاربهم بشدة وبلغة العصر الجدلية . . . ووصف خصومه بأنهم من الأوغاد وأنهم أغبياء وكلاب وحمير وخنازير وبهائم منتنة(٥٣) — وهى نعوت أقل لياقة بالنسبة للاتينيته الرشيقة من أسلوب لوثر الذى يشبه أسلوب المجالدين ، ولكنه واجه استفزازات . فقدحدث يوم أنقاطع جيروم بولسيك ،

وهو راهب سابق من فرنسا ، كالفن وهو يقدم عظته فى كنيسة القديس بطرس وندد بالعقيدة التى تقول بالجبر باعتبارها إهانة للرب ، فرد عليه كالفن بأن تلا آيات من الكتاب المقدس ، واعتقلت الشرطة بولسيك واتهمه مجمع الكرادلة بالهرطقة . وكان المجلس ميالا إلى الحكم عليه بالإعدام ، ولكن عند ما استأنس بآراء علماء اللاهوت فى زيورخ وبازيل وبرن دلت على أنها مبلبلة : فقد أوصت برن بالحرص فى علاج المشكلات التى تدق على إدراك الإنسان — وهى نغمة جديدة فى أدب العصر ، وحذر بولينجر ، كالفن ، أن « الكثيرين مستاءون مما تقول فى كتابك القوانين حول الجبر ، ويستخلصون نفس النتائج مثل بولسيك »(٥٤) وتراضى المجلس على النفى (١٥٥١) وعاد بولسيك إلى فرنسا وإلى الكاثوليكية .

وأهم من هذا فى النتيجة مناظرة كالفن مع جواليم ويستفال ، إذ ندد هذا القسيس اللوثرى برأى زونجلى وكالفن القائل بأن المسيح لا يحضر فى القربان المقدس إلا بروحه وعد هذا « تجديداً من وحى الشيطان » ورأى أن المصلحين الدينيين السويسريين يجب ألا يرد عليهم بأقلام علماء اللاهوت ، ولكن بعصا الحكام (١٥٥٢) ورد عليه كالفن بألفاظ بلغت من القسوة حداً دفع زملاءه من المصلحين الدينيين فى زيورخ وبازيل وبرن إلى رفض التوقيع على احتجاجه . ومع ذلك فإنه أصدره ، وعاد ويستفال وآخرون من أنصار لوثر إلى الهجوم ، فدمغهم كالفن بأنهم « قردة لوثر » وأبدى من الحجج القوية ما دفع عدة مناطق كانت وقتذاك تناصر لوثر مثل — براندنبرج والبلاتينات وأجزاء من هس وبريمين وآنهالت وبادن إلى الموافقة على وجهة نظر سويسرة والكنيسة التى خضعت الإصلاح الدينى ، ولم ينقذ باقى ألمانيا الشمالية من التحول عن العقيدة اللوثرية إلا صمت ميلانكتون (الذى كان يتفق فى الرأى سراً مع كالفن) وصدى صواعق لوثر بعد الموت .

وتحول كالفن من هذه الهجمات على اليمين وواجه إلى اليسار جماعة من المتطرفين وصلوا حديثاً إلى سويسرة من إيطاليا المعارضة لها فى الإصلاح

الدينى . وكان كايليوس سيكوندوس كوريو يلقى تعاليمه فى لوزان وبازيل. وقد صدم كالفن عند ما أعلن أن الناجين — وفيهم كثير من الوثنيين — سوف يفوقون عدداً المعذبين فى نار جهنم بكثير . أما لايليوس سوكينوس ، وهو ابن أحد كبار فقهاء القانون الإيطاليين ، واستقر فى زيورخ فقد درس اليونانية والعربية والعبرية لكى يفهم الكتاب المقدس على أحسن وجه ، وتعلم كثيراً جداً، وفقد إيمانه بالثالوث الأقدس والجبر والخطيئة الأصلية والتكفير .

وأعرب عن شكه لكالفن الذى رد عليه بقدر الإمكان . ووافق سوكينوس على أن يتجنب التعبير علناً عن شكوكه ولكنه تكلم فيما بعد معارضاً تنفيذ حكم الإعدام فى سرفيتوس ،وكان من بين القايلين الذين وقفوا يدافعون عن التسامح الدينى فى ذلك العصر المحموم .

وفى دولة يمتزج فيها الدين والحكومة فى مزيج مسكر، كان من الطبيعى أن تكون أشد المعارك التى خاضها كالفن هى معاركه مع الوطنيين والمتحررين والذين أقصوه مرة عن البلاد والذين أسفوا الآن لعودته . فقد استاء الوطنيون من أصله الفرنسى ومن أنصاره وكرهوا لاهوته ولقبوه بقابيل ، وأطلقوا على كلابهم اسم كالفن . وسبوه فى الطرقات . ولعلهم هم الذين أطلقوا فى إحدى الليالى خمسين طلقة نارية خارج بيته . وبشر المتحررون بعقيدة تقول بوحدة الوجود، وتخلوا عن ذكر الشياطين أو الملائكة أو جنة عدن أو التكفير أو الكتاب المقدس أو البابا . واستقبلتهم مارجريت ملكة نافار وأيدتهم فى بلاطها بنيراك ، ولامت كالفن على قسوته معهم .

وفى يوم ٢٧ يونيه عام ١٥٤٧ وجد كالفن إعلاناً كبيراً ملصوقاً على منبره وجاء فيه : منافق كبير إنك لن تنجى أنت ورفقاؤك بآلامك إلا النذر اليسير وإذا لم تنجوا بحياتكم بالهرب فلن يحول أحد دون القضاء عليكم . ولسوف تلعن الساعة التى تركت فيها ديرك . . . إن الناس ينتقمون لأنفسهم بعد أن عانوا طويلا . . . احذر فلن تعامل مثل السيد فيرل (الذى كان قد قتل) . . . لم يكون لنا سادة كثيرون إلى هذا الحد[٥٥] . . .

وقبض على جاك جريه، وهو أحد كبار المتحررين، إذا شتبه فى أنه كتب الإعلان ولم يقدم أى دليل . وادعى بعضهم أنه قبل ذلك ببضعة أيام تفوه بتهديدات ضد كالفن، ووجد فى حجرته أوراق قيل أنها بخط يده ، يصف فيها كالفن بأنه منافق متعجرف وطموح ويسخر فيها من أن الكتب المقدسة وحى من عند الله ومن خلود الروح . وعذب مرتين كل يوم لمدة ثلاثين يوماً إلى أن اعترف — ولا ندرى مدى ما فى اعترافه عن صدق — بأنه كان قد ثبت الإعلان الكبير وتآمر مع العملاء الفرنسيين ضد كالفن ومدينة جينيف . وفى يوم ٢٦ يوليو ربط إلى خازوق ، وهو نصف ميت ، وسمرت قدماه فيه وقطع رأسه(٥٦) .

وازدادت حدة التوتر إلى أن جاء الوطنيون والمتحررون يوم ١٦ ديسمبر عام ١٥٤٧ وهم مسلحون وحضروا اجتماعاً للمجلس الكبير وطالبوا بوضع حد لسلطة مجمع الكرادلة على المواطنين ، وفى ذورة هرج عنيف دخل كالفن إلى الحجرة وواجه الزعماء المعادين له وقال وهو يدق على صدره : « إذا كنتم تريدون سفك دمى فما زالت هنا بضع قطرات فهيا اضربوا » وسحبت السيوف ولكن أحداً لم يجسر على أن يكون القاتل الأول . وخاطب كالفن الجمع بحلم نادر وأخيراً اقنع كل الأطراف بعقد هدنة . ومع ذلك فقد اهتزت ثقته فى نفسه .

وكتب يوم ١٧ ديسمبر إلى فيريه يقول : « إن أملى ضعيف فى أن تستطيع الكنيسة أن تجد لها عضداً أكثر من هذا ، على الأقل من رجالى الذين يقومون بالخدمة الدينية . صدقنى إن سلطانى يتحطم ، اللهم إلا إذا مد الله إلى يده » . ولكن المعارضة انقسمت شيعاً وأحزاباً وهدأت إلى أن أتاحت لها محاكمة سرفيتوس فرصة أخرى .

٦ — ميكائيل سرفيتوس ١٥١١ — ٥٣

ولد ميجيل سرفيتوس فى فيلانوفا (وتقع على بعد حوالى ستين ميلا من ساراقوسه) وهو ابن موثق عقود من أسرة كريمة . ونشأ فى عهد كانت فيه كتابات أرازموس تتمتع بتسامح عابر فى إسبانيا . وكانت متأثرا إلى حد ما بأدب اليهود والمسلمين ، إذ قرأ القرآن وشق طريقه فى التأويلات التلمودية وتأثر بنقد الساميين للمسيحية (بصلواتها للثالوث ولمريم وللقديسين) باعتبارها شركاً . وأطلق عليه لوثر لقب « المراكشى » .

وفى تولوز حيث درس القانون ، رأى لأول مرة كتاباً مقدساً كاملا وأقسم ليقرأنه « ألف مرة » ، وتأثر تأثراً عميقاً بالرؤى فى سفر الرؤيا . وفاز برعاية جوان دى كوينتانا كاهن الاعتراف الخاص لشارل الخامس ، وأخذه جوان إلى بولونيا وأوجسبورج (١٥٣٠) ، واكتشف ميكائيل البروتستانتية وأحبها ، وزار أويكو لامباديوس فى بازيل ، كما زار كابيتو وبوسر فى شتراسبورج ، وسرعان ما غدا هرطيقاً فى رأيهم ، ودعى لكى يرعى فى حقول أخرى .

ونشر فى عامى ١٥٣١ و ١٥٣٢ أول وثانى طبعة من مؤلفه De Trinitatis erroribus ، وكان فيه خلط كثير ، وكتب بلغة لاتينية غير مصقولة لا بد أنها كانت تدفع كالفن إلى الابتسام لو اطلع عليها ولكنها كانت عملا مذهلا بالنسبة لفتى فى العشرين من عمره بسبب تراتها فى سعة العلم بالكتاب المقدس . وكان يسوع فى نظر سرفيتوس رجلا نفخ فيه الرب ، الأب كلمة الله ، الحكمة الإلهية ، وبهذا المعنى أصبح يسوع ابن الرب ولكنه لم يكن كفوا للأب أو سرمدياً مثله ، يستطيع أن يوصل روح الحكمة نفسها إلى الآخرين من الناس « إن الابن أرسل من الأب بطريقة لا تختلف عن تلك التى أرسل بها واحد من الأنبياء »(٥٧) ، وهذا قريب جداً من مفهوم

محمد عن المسيح . واستطرد سرفيتوس ليستشهد برأى الساميين فى القول بالثالوث الأقدس : « وكل من يؤمن بثالوث أقدس بروح الله يقول بوجود ثلاثة أرباب » . وأضاف قائلا إنهم ملحدون حقاً باعتبارهم منكرين لوجود إله واحد(٥٨) . وكان هذا تطرفاً شديداً من شاب ، ولكن سرفيتوس حاول أن يخفف من هرطقته بتأليف مقطوعات مهلهلة النسيج عن المسيح باعتباره نور العالم ، ومهما يكن من أمر فإن معظم قرائه شعروا بأنه قد أطفأ النور . وكأنما كان يريد ألا يترك حجراً دون أن يقذف به أحداً فتلاقى مع اللامعمدانيين فى أن التعميد يجب ألا تجرى مراسيمه إلا للبالغين . فأنكر عليه ذلك أويكو لامباديوس وبوسر ، فقلب سرفيتوس دليل سفر كالفن وفر من سويسرة إلى فرنسا (١٥٣٢) .

وفى يوم ١٧ يوليو أصدرت محكمة التفتيش فى تولوز أمراً بالقبض عليه . وفكر فى السفر إلى أمريكا ولكنه وجد أن باريس أحسن منها . وهناك تنكر فى شخصية ميشيل دى فيلينف (اسم العائلة) ودرس الرياضيات والجغرافيا وعلم الفلك والطب وغازل التنجيم . وكان فيزاليوس العظيم زميله فى دراسة التشريح وأثنى أساتذتهما عليهما سوياً . وتشاجر مع عميد كلية الطب ، ويبدو بوجه عام أنه أساء التصرف بتهوره وانفعاله واعتزازه بنفسه . وتحدى كالفن للدخول معه فى مناظرة ولكنه لم يظهر فى المكان والزمان المعينين (١٥٣٤) . وغادر سرفيتوس باريس مثل كالفن فى الفترة التى اشتد فيها الغضب على خطاب كوب والإعلانات الكبيرة الهرطيقية .

وفى ليون أشرف على نشر طبعة جديدة بعالم من جغرافية بطليموس ، وانتقل عام ١٥٤٠ إلى فيين (على بعد ستة عشر ميلا جنوبى ليون) ، وهناك عاش حتى آخر سنة من حياته وهو يمارس الطب ويشتغل بالبحث . واختير من بين الكثيرين من الباحثين الذين أتيح للناشرين فى ليون التعامل معهم لكى يشرف على نشر ترجمة لاتينية للكتاب المقدس قام بها سانتيس باجنينى .

وقضى فى هذا العمل ثلاث سنوات وآل إلى ست مجلدات . وفى آية عن أشعيا ٧ : ١٤ الذى كان جيروم قد جعلها « عذراء سوف تحمل » ، شرح سرفيتوس أن الكلمة العبرية لا تعنى عذراء بل امرأة شابة ، ورأى أنها لا تشير إشارة تنبئية إلى مريم بل إلى زوجة حزقيال ، وأوضح بنفس الروح أن بعض الفقرات الأخرى فى العهد القديم التى تبدو تنبئية تشير فقط إلى شخصيات أو حوادث معاصرة . وقد ثبت أن هذا محير للبروتستانت والكاثوليك على السواء .

ولا ندرى متى اكتشف سرفيتوس الدورة الدموية الرئوية — مرور الدم من الغرفة اليمنى للقلب على طول الشريان الرئوى إلى الرئتين وتدفقه خلالهما وتنقيته هناك بالتعريض للهواء ، وعودته فى الوريد الرئوى إلى الغرفة اليسرى من القلب ، وبقدر ما هو معروف الآن فإنه لم ينشر اكتشافه حتى عام ١٥٥٣ عند ما أدرجه فى مؤلفه الأخير « إعادة المسيحية » .

وقد جاء بالنظرية فى رسالة لاهوتية لأنه اعتقد أن الدم بمثابة الروح الجوهرية فى الإنسان ، ومن ثم يعد — ربما أكثر من القلب أو المخ — المقر الحقيقى للروح . وإذا أرجأنا فترة النظر فى مشكلة أسبقية سرفيتوس فى هذا الاكتشاف فحسبنا أن نلاحظ أنه من الواضح أنه أكمل رسالته « اعادة المسيحية » فى سنة ١٥٤٦ لأنه أرسل فى ذلك العام المخطوطة إلى كالفن .

وكان العنوان نفسه تحدياً للرجل الذى كتب شريعة الدين المسيحى ، بيد أن الكتاب إلى جانب ذلك رفض الفكرة القائلة بأن الله قدر على أرواح أن تعذب فى نار جهنم بغض النظر عن حسناتها أو سيئاتها ، باعتبار أن هذه الفكرة كفر وتجديف . وقال سرفيتوس إن الله لا يحكم على أحد لا يدين نفسه . ولا بأس بالإيمان ولكن المحبة خير وأبقى ، لأن الله نفسه محبة : وظن كالفن أنه يكفيه لكى يدحض هذا كله أن يرسل إلى سرفيتوس نسخة

من كتاب « القوانين » ، فأعاده سرفيتوس اليه مع تعليقات مهينة[٥٩] ، وأعقب ذلك بارسال سلسلة من الخطابات تحفل عباراتها بالازدراء الشديد إلى حد أن كالفن كتب إلى فاريل (١٣ فبراير سنة ١٥٤٦) : « لقد أرسل لى سرفيتوس مجلداً مطولا بأقواله الهارفة . وإذا وافقت فلن يتردد فى الحضور هنا ، ولكنى لن أعطيه كلمة منى لأنه إذا جاء فإنى لن أطيق أن أتركه يخرج حيا إذا كان هذا فى سلطتى »[٦٠] ، وغضب سرفيتوس لرفض كالفن استمرار المراسلة بينهما فكتب إلى آبيل بوبان ، وهو أحد قساوسة جينيف يقول :

« إن إنجيلكم بدون رب وبدون إيمان حق وبدون أعمال صالحات . فبدلا من الرب عبدتم(*) سربيروس ذا الرؤوس الثلاثة (الثالوث المقدس) وبدل الإيمان اتخذتم حلماً حتمياً . . . والإنسان عندكم بدن هامد والرب خيال للإرادة المستعبـــدة . . . إنكم تغلقون أبواب مملكة السماء فى وجوه الناس . . . الويل ! الويل ! الويل ! هذا هو ثالث خطاب أكتبه لكم لأحذركم علكم تعرفون أحسن من هذا . ولن أحذركم مرة أخرى فى معركة ميكائيل هذه أعلم أنى سوف أموت لا محالة . . . بيد أنى لن أتردد . . . أن المسيح آت ولا ريب . ولن يتمهل »[٦١] .

ومن الواضح أن سرفيتوس كان أشد خبلا من المتوسط فى عصره . فقد أعلن أن نهاية العالم قد أوشكت وأن ميكائيل رئيس الملائكة سوف يشن حرباً مقدسة ضد المناهضين للمسيحية من البابويين وأهالى جنيف على السواء ، وأنه وقد سمى باسم رئيس الملائكة سوف يقاتل ويموت فى تلك الحرب[٦٢] . وكان كتاب « الإعادة Restitutio » دعوة إلى تلك الحرب . فلا عجب إذا كان قد وجد صعوبة فى العثور على ناشر يقبله إذ أجفل منه الناشرون فى بازيل ، وأخيراً (٣ يناير عام ١٥٥٣) طبعه بالتازار

(*) كائن خرافى .

أرنوييه وجيوم جيروه فى الخفاء بمدينة فيين . ولم تذكر أسماؤهم ولا مكان النشر ووقع المؤلف باسم م . س . ف. ودفع كل النفقات وصحح بنفسه التجارب ثم أتلف المخطوط . ووصل المجلد إلى ٧٣٤ صفحة لأنه تضمن شكلا منقحاً من كتاب « **De Trinitatis erroribus** » ورسائل سرفيتوس الثلاثين إلى كالفن ، وأرسل إلى بائع كتب فى جنيف جانب من الألف نسخة المطبوعة . وهناك وقعت نشرة فى يدى جيوم ترى وهو صديق لكالفن . وقد أوضحت الخطابات الثلاثون بجلاء لكالفن أن م. س. ف. هى الحروف الأولى من اسم ميكائيل سرفيتوس الفيلانوفى . وكتب ترى فى يوم ٢٦ فبراير عام ١٥٥٣ إلى ابن عم كاثوليكى فى ليون يدعى أنطوان أرنى أعرب له فيها عن دهشته من أن الكردينال فرانسوا دى تورنون قد سمح بنشر كتاب مثل هذا فى دائرة أسقفيته . كيف عرف ترى مكان النشر ؟ لقد عرف كالفن أن سرفيتوس كان يعيش فى ليون أو فيين . وعرض آرنى الأمر على ماتياس أورى عضو محكمة التفتيش فى ليون فأبلغ أورى بذلك الكاردينال ، فأصدر أمراً إلى موجيرون نائب محافظ فيين للبحث والاستقصاء . وفى يوم ١٦ مارس استدعى سرفيتوس إلى بيت موجيرون . وقبل أن يخضع للأمر أتلف كل الأوراق التى تثبت ذنبه . وأنكر أنه ألف الكتاب ، فأرسل آرنى إلى ترى يطلب منه تقديم دليل آخر على أن سرفيتوس هو مؤلف الكتاب . وحصل ترى من كالفن على بعض الخطابات التى أرسلها له سرفيتوس . وبعث بها إلى ليون . وتبين أنها تطابق عدداً من الخطابات المنشورة فى الكتاب . وقبض على سرفيتوس فى اليوم الرابع من أبريل ، وفر بعد ثلاثة أيام بالقفز فوق سور حديقة . وفى يوم ١٧ يونيه أدانته المحكمة المدنية فى فيين وحكمت عليه بأن يحرق حياً على نار بطيئة إذا عثر عليه .

وأخذ سرفيتوس يضرب على غير هدى فى أنحاء فرنسا لمدة ثلاثة شهور ، وقرر أن يلجأ إلى نابولى وأن يذهب عن طريق جينيف ، وظل فى جنيف

شهراً لأسباب غير معروفة متخذ اسماً مستعاراً ، وفى غضون ذلك أعد ترتيباته للانتقال إلى زيورخ ، وفى اليوم الثالث عشر من أغسطس حضر الصلاة بالكنيسة ، ولعله فعل هذا لكى يتجنب استقصاء السلطات عنه . وهناك عرف وأبلغ ذلك إلى كالفن فأمر بالقبض عليه . وشرح كالفن هذا العمل فى خطاب (٩ سبتمبر عام ١٥٥٣) ، قال : « إذا كان البابويون قساة غلاظ الأكباد ويظهرون منتهى العنف دفاعاً عن خزعبلاتهم إلى حد أنهم يثورون غضباً وتقسو قلوبهم فيسفكون الدم البرىء ألا يخجل الحكام المسيحيون من أنفسهم عند ما يبدون أمام الناس أقل غيرة فى الدفاع عن الحق الذى لا ريب فيه ؟ » وتأثر المجلس الصغير بزعامة كالفن وفاقه فى القسوة والفظاظة ، ولما كان سرفيتوس مجرد عابر سبيل ولم يكن مواطناً يخضع لقوانين مدينة جينيف فإن المجلس من الناحية القانونية كان لا يستطيع أن يفعل شيئاً أكثر من نفيه خارج المدينة .

واعتقل فى قصر سابق لأحد الأساقفة تحول الآن إلى سجن . ولم يعذب إلا بالقمل الذى أغار على زنزانته . وسمح له بورق وحبر وبأى كتب يعن له شراؤها ، وأعاره كالفن بضعة مجلدات بقلم الآباء الأوائل . وأديرت المحاكمة بعناية واستمرت ما ينوف على شهرين . ودبج كالفن قرار الاتهام فى ثمان وثلاثين مادة دعمها بفقرات اشتشهد بها من كتابات سرفيتوس . ومن بين التهم أنه قبل وصف سترابو لليهودية بأنها بلد مجدب بينما وصفهاا لكتاب المقدس بأنها أرض يتدفق فيها اللبن والعسل[٦٣] . وكانت الاتهامات الرئيسية الموجهة إلى سرفيتوس هى أنه رفض التسليم بالثالوث وتعميد الأطفال ، كما اتهم أيضاً بأنه « طعن فى شخص السيد كالفن العقائد التى فرضها لإنجيل كنيسة جينيف »[٦٤] ، وفى يومى ١٧ و ٢١ من أغسطس ظهر كالفن بشخصه فى قاعة المحكمة ليوجه له الاتهام . ودافع سرفيتوس عن آرائه بشجاعة ، ومنها القول بمذهب وحدةالوجود . وقام تعاون غير مألوف بين العقائد المعادية فطلب المجلس البروتستانتى فى جينيف من القضاة الكاثوليك فى فيين إبداء

آرائهم فى فقرات خاصة من الاتهامات التى وجهت هناك ضد سرفيتوس . ومن بين التهم الجديدة الفجور الجنسى ، فرد سرفيتوس بأن الفتق قد حوله منذ زمن بعيد إلى عنين ومنعه من الزواج(٦٥) . واتهم علاوة على هذا بأنه كان قد حضر القداس فى فيين ، فدافع عن نفسه وبرر أنه إنما أقدم على هذا خوفاً على حياته . وتحدى أن تكون لمحكمة مدنية ولاية فى الفصل فى قضايا الهرطقة ، وأكد للمحكمة أنه لم يقم بإثارة شغب ولم يخالف قوانين مدينة جينيف وطالب بتعيين محام له يلم بهذه القوانين خيراً منه ، وذلك ليعاونه فى الدفاع عن نفسه ، ورفضت كل هذه الحجج وأرسلت محكمة التفتيش الفرنسية وكيلا عنها إلى مدينة جينيف للمطالبة بإعادة سرفيتوس إلى فرنسا لتنفيذ الحكم الذى صدر ضده . فتوسل سرفيتوس للمجلس والدموع تسيل من مآقيه أن يرفض هذا الطلب ، فاستجاب له المجلس ، ولكن لعل الطلب قد حفز المجلس على ألا يكون أقل قسوة من محكمة التفتيش .

وفى اليوم الأول من سبتمبر سمح لعدوين من أعداء كالفن — هما آمى بيران وفيلبرت برتليه — بأن ينضما إلى القضاة الذين يتولون المحاكمة ، فشغلا كالفن بمجادلات ، لا طائل تحتها ، ولكنهما أقنعا المجلس باستشارة الكنائس الأخرى فى سويسرة البروتستانتية عن كيفية معاملة سرفيتوس ، وفى اليوم الثانى من سبتمبر واجهت زعامة كالفن فى المدينة تحدياً فى المجلس على يد الوطنيين والمتحررين ، فواجه العاصفة حتى مرت بسلام ، ولعل رغبة المعارضة الواضحة فى إنقاذ سرفيتوس قد شددت من عزيمة كالفن على أن يلاحق الهرطيق حتى ينفذ فيه حكم الإعدام . ومهما يكن من أمر فإنه يجدر بنا أن ننوه بأن المدعى الرئيسى فى المحاكمة كان كلود ريجوه Rigot وهو من المتحررين(٦٦) .

وفى اليوم الثالث من سبتمبر قدم سرفيتوس للمجلس رداً مكتوباً على الاتهامات الثمانية والثلاثين التى وجهها له كالفن . ودحض كل اتهام بحجة

ذكية وبفقرات استشهد بها من الكتاب المقدس أو أقوال رددها آباء الكنيسة . وتساءل عن حق كالفن فى التدخل فى المحاكمة ووصفه بأنه من مريدى سيمون ماجوس وهو مجرم وسفاك للدماء(٦٧) . فرد عليه كالفن فى ثلاث وعشرين صفحة ، عرضت على سرفيتوس ، الذى أعادها بدوره إلى المجلس بتعليقات هامشية مثل « كذاب » و « دجال » و « منافق » و « تعس شقى » ، ولعل ما عاناه سرفيتوس من نصب فى السجن خلال شهر وما لاقاه من تعذيب عقلى قد حطم ضبط النفس . وتقارير كالفن ذاتها عن المحاكمة دبجت بأسلوب العصر ، فنراه يكتب عن سرفيتوس فيقول : « مسح الكلب القذر أنفه » و « السافل الغادر »(٦٨) يلوث كل صفحة و « تخريفات منافية للتقوى »(٦٩) . والتمس سرفيتوس من المجلس أن يتهم كالفن بأنه « يقمع حقيقة يسوع المسيح » وأن « يمحوه من الوجود » ويصادر أمواله ، وذلك لتعويض سرفيتوس بهذه الإجراءات عن الأضرار التى لحقت به من جراء أعمال كالفن . ولم يقابل الاقتراح بالترحيب .

وفى اليوم الثامن عشر من أكتوبر وردت الردود من الكنائس السويسرية التى طلب منها إبداء المشورة ، فرأت كلها إدانة سرفيتوس ، ولم يطلب واحد منها إعدامه . وبذل بيران آخر مجهود لإنقاذه فى اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر بالمطالبة بإعادة المحاكمة أمام مجلس المائتين ولكنه غلب على أمره . وفى اليوم السادس والعشرين أصدر المجلس الصغير حكماً بالإعدام بإجماع الآراء ، واستند فى الحكم على دليلين يثبتان الهرطقة — مذهب التوحيد ورفض التسليم بتعميد الأطفال . ويقول كالفن « إن سرفيتوس عند ما سمع النطق بالحكم « أنّ » وتأوه كرجل فقد رشده و . . . ودق صدره وزمجر قائلا بالإسبانية Misericordia ! Misericordia! ، وطلب أن يسمح له بالحديث مع كالفن وتوسل إليه طالباً الرحمة ، بيد أن كالفن لم يعرض عليه أكثر من إجراءات المواساة الأخيرة للدين الحق إذا سحب هرطقاته ، ولم يرض سرفيتوس ، وطلب أن تقطع رأسه ولا يحرق ، وكان كالفن يميل إلى دعم هذا

الطلب ولكن فاريل الطاعن فى السن ، الذى يقترب من حافة القبر زجره لما بدا منه من تسامح ، وصوت المجلس على أن يحرق سرفيتوس حياً (٧٠) .

ونفذ الحكم فى صباح اليوم التالى يوم ٢٧ أكتوبر عام ١٥٥٣ على تل تشامبل الذى يقع مباشرة جنوبى مدينة جنيف . وفى الطريق ألح فاريل على سرفيتوس أن ينال رحمة الله بالاعتراف بجريمة الهرطقة ، فأجابه الرجل المحكوم عليه ، طبقاً لما رواه فاريل : « أنا لست مذنباً ولم أكن أستحق الموت ، وابتهل إلى الله أن يغفر لمن اتهموه »(٧١) . وأوثق إلى سارية بسلاسل حديدية وربط إلى جانبه كتابه الأخير . وعند ما بلغت ألسنة اللهب وجهه صرخ من الألم . ومات بعد حرقه بنصف ساعة .

٧ — دعوة للتسامح

اتحد الكاثوليك والبروتستانت فى الموافقة على الحكم . ولما أفلتت من محكمة تفتيش فين فريستها فإنها قامت بإحراق تمثال لسرفيتوس(*) . وأعرب ميلانكتون فى خطاب له إلى كالفن وبولينجر عن «حمده لابن الرب» لـ « معاقبة الرجل الكافر » ووصفه عملية الإحراق بأنها « مثال يدل على الورع لا ينسى لكل الأجيال القادمة »(٧٣) . وأعلن بوسر من فوق منبره فى شتراسبورج أن سرفيتوس قد استحق أن تنزع أمعاؤه ويمزق إرباً(٧٤) . ووافق بولينجر ، وهو بوجه عام خير رقيق العاطفة ، على أن الحكام المدنيين يجب أن يعاقبوا بالموت من يثبت عليه الكفر(٧٥) .

ومع ذلك فقد ارتفعت بعض الأصوات تدافع عن سرفيتوس حتى فى أيام كالفن ، فقد نظم صقلى قصيدة طويلة بعنوان : De iniusto Serveti incendio ، ونشر دافيد جوريس البازيلى ، وهو لا معمدانى ، احتجاجاً ضد تنفيذ حكم الإعدام ، بيد أنه وقع عليه باسم مستعار ولما اكتشف

(*) فى سنة ١٩٠٣ أقيم نصب تذكارى لسرفيتوس فى تشامبل وكان فى أول قائمة الذين شاركوا فى نفقاته المجمع الدينى لكنيسة جنيف التى أخذت بمبادئ الإصلاح الدينى(٧٢) .

بعد وفاته أنه كاتب هذا الاحتجاج أخرجت جثته بعد الدفن وأحرقت علناً (١٥٦٦) . وبالطبع أدان خصوم كالفن السياسيون معاملته لسرفيتوس واستهجن بعض أصدقائه قسوة الحكم باعتباره مشجعاً للكاثوليك فى فرنسا على تطبيق عقوبة الإعدام على الهوجنوت . ولا بد أن هذا النقد قد انتشر انتشاراً واسعاً لأن كالفن أصدر فى فبراير عام ١٥٥٤ a Defensio orthodoxae fidei de sacra Trinitate contra Prodigiosos errores Michaelis Servetir دفاع محافظ على الشريعة عن القول بالثالوث المقدس ضد أخطاء ميكائيل سرفيتوس الفظيعة . وقال : إذا آمنا بأن الكتاب المقدس وحى من الله فإننا نعرف الحقيقة وكل من يعارضونه أعداء الله كافرون به . ولما كان ذنبهم أعظم بكثير من أى جريمة أخرى فإن على السلطة المدنية أن تعاقب المراطقة باعتبارهم أسوأ من أى سفاحين ، ذلك لأن القتل العمد يؤدى إلى هلاك الجسد فحسب بينما الهرطقة المقبولة تعرض الروح للعذاب الأبدى فى نار جهنم (وكان هذا بالضبط موقف الكاثوليك) وفضلا عن هذا فإن الرب نفسه قد علمنا بصورة قاطعة أن نقتل الهراطقة وأن نضرب بالسيف أى مدينة تتخلى عن عبادة الرب وفق العقيدة الخالصة التى كشفها لنا بنفسه . واستشهد كالفن بسفر التثنية القاسية ١٣ : ٥ — ١٥ و ١٧ : ٢ — ٥ وسفر الخروج ٢٢ : ٢٠ وسفر اللاويين ٢٤ : ١٦ وناقش بها ببلاغة ملتهبة حقاً : « كل من يتمسك بأن الهراطقة والكفار لحقهم ضرر بمعاقبتهم يورط نفسه بأن يكون شريكاً لهم فى جريمتهم . . . ولا محل هنا للحديث عن سلطة الإنسان فالرب هو الذى يتكلم ، ومن الواضح أى شريعة احتفظ بها فى الكنيسة إلى يوم القيامة . فلماذا يطلب منا مثل هذه القسوة الشديدة إذا لم يكن هذا ليرينا أننا لا نوفيه حقه من التبجيل ما دمنا لا نضع عبادته تعالى فوق أى اعتبار إنسانى بحيث لا نبقى على آصرة قربى أو صلة دم بيننا وبين أى إنسان وأن ننسى كل إنسانية عندما يكون الأمر متعلقاً بالقتال فى سبيل مجده تعالى ؟(٧٦)

ويخفف كالفن من استنتاجاته بأن ينصح بالرحمة بالذين لا تكون هرطقاتهم جوهرية أو الذين يتضح أن هرطقاتهم بسبب الجهل أو ضعف العقل . ولكن حيث أنه رضى بصفة عامة بالقديس بولس هادياً له ومرشداً فإنه رفض أن يلجأ للوسيلة البولسية (نسبة إلى بولس) التى تعلن أن القانون الجديد يحل محل القانون القديم . والحق أن حكومة رجال الدين التى كان من الواضح أنه كان يمكن أن تتحطم وتشيع فيها الفوضى إذا سمحت الخلافات فى العقيدة بإبداء الرأى علناً .

وفى غضون ذلك ماذا آلت إليه الروح الأرازمية التى تدعو إلى التسامح ؟ لقد كان أرازموس متسامحاً لأنه لم يكن على يقين تام ، أما لوثر وميلانكتون فقد تخليا عن التسامح عند ما تدرجا فى اليقين ، وأما كالفن فكاد يكون على يقين منذ بلغ عامه العشرين بتبكير قاتل فى النضج . وليس من شك فى أن قليلا من علماء الإنسانيات الذين درسوا الفكر الكلاسى والذين لم يهابوا العودة إلى الحظيرة الرومانية بالاشمئزاز من الالتجاء إلى العنف فى النزاع اللاهوتى ظلوا يرون على استحياء أن اليقين فى الدين والفلسفة أمر لا يمكن الوصول إليه ، ومن ثم فإن على المشتغلين باللاهوت والفلاسفة ألا يقتلوا أحداً .

وكان عالم الإنسانيات الذى تحدث بوضوح بعض الوقت عن التسامح وسط صدام اليقينيات واحداً من أقرب أصدقاء كالفن حيناً من الزمن . فسباستيان كاستيليو الذى ولد فى جورا الفرنسية عام ١٥١٥ أصبح حاذقاً للغات اللاتينية واليونانية والعبرية ودرس اليونانية فى ليون وعاش مع كالفن فى شتراسبورج فعينه مديراً للمدرسة اللاتينية فى جنيف (عام ١٥٤١) وهناك شرع فى ترجمة الكتاب المقدس بأسره إلى لغة شيشرون اللاتينية . وقد أعجب بكالفن رجلا ولكنه كره المذهب القائل بالجبر وأضفى قواه تحت وطأة النظام الجديد الذى تخضع له الجسد والعقـــل . واتهم فى عام ١٥٤٤ القساوسة فى جنيف بالتعصب والدنس والسكر . واشتكى كالفن إلى

المجلس ، ووجد أن كاستليو مذنب بسبب الغيبة ونفى من المدينة (١٥٤٤) ، وعاش تسع سنوات في فاقة ومسغبة وهو يعول أسرة كبيرة ، وكان يعمل أثناء الليل في إنهاء نسخته المترجمة من الكتاب المقدس . وانتهى منها عام ١٥٥١ ، ثم بدأ مرة أخرى في سفر التكوين ١ : ١ وهو وحيد يسعى في هدوء إلى إتمام البحث ، وترجم الكتاب المقدس إلى الفرنسية . وحصل أخيراً (١٥٥٣) على منصب أستاذ لليونانية في جامعة بازيل . وأحس بالعطف على الموحدين وتمنى لو استطاع أن يساعد سرفيتوس ، وراعه دفاع كالفن عن تنفيذ حكم الإعدام . ونشر هو وكامليوس كوريو بأسماء مستعارة (مارس ١٥٥٤) أول كتاب حديث من الكلاسيات عن التسامح : « هل يجب أن يضطهد الهراطقة ؟ De haereticis an Sint persequendi

وكان الهيكل الرئيسي للمؤلف مختارات من الشعر جمعها كوريو من الابتهالات المسيحية من أجل التسامح ، من لاكتانتيوس وجيروم إلى أرازموس ولوثر في بواكير حياته وكالفن نفسه . واشترك كاستيليو في الجدال بالمقدمة والخاتمة وأشار إلى أن الناس قد ناقشوا في مدة مائة عام الإرادة الحرة والجبر والسماء والجحيم والمسيح والثالوث وأموراً أخرى صعبة ولم يصلوا إلى أي اتفاق ، ومن يدري لعلهم لن يصلوا أبداً إلى اتفاق . وقال كاستيليو : لا داعي لأي اتفاق ، فمثل هذه القضايا الجدلية لا تجعل الناس خيراً مما هم عليه ، وكل ما نحن بحاجة إليه هو أن نتحلى بروح المسيح في حياتنا اليومية وأن نطعم الفقراء ونساعد المرضى ونحب أعداءنا . وبدا له أن من السخرية أن تزعم الطوائف الجديدة ، شأنها في هذا شأن الكنيسة القديمة ، أنها على حق مطلق ، وأن تكره من لها عليهم السيطرة البدنية على اعتناق عقائدها ونتيجة هذا يكون الإنسان محافظاً على العقيدة في مدينة ويصبح هرطيقاً عندما يدخل مدينة أخرى ، وعليه أن يغير دينه كما يغير نقده عند كل حد من حدود البلاد . وهل يمكن أن تتصور أن المسيح يأمر بإحراق رجل حياً

لأنه يدافع عن تعميد البالغين ؟ لقد حلت محل الشرائع الموسوية التى تدعو إلى القضاء على الحياة كل طريق شريعة المسيح التى تدعو إلى الرحمة لا إلى التعسف والإرهاب وإذا أنكر إنسان وجود حياة بعد الموت ورفض الاعتراف بكل شريعة فإنه (كما قال كاستيليو) يمكن للحكام أن يسكتوه فحسب ولكن ينبغى ألا يقتل . وفضلا عن هذا فإن اضطهاد العقائد (كما رأى) لا طائل تحته والاستشهاد فى سبيل فكرة ينشر هذه الفكرة بسرعة أكبر مما كان فى وسع الشهيد أن يفعل لو سمح له بأن يعيش . وختم كلامه بقوله أية مأساة فى أن نرى من حرروا أنفسهم أخيراً من محكمة التفتيش الرهيبة يقلدونها سريعاً فى طغيانها ، وأن يكرهوا الناس على أن يعودوا إلى الظلام السيمرى بعد فجر واعد مثل هذا[٧٧] .

وعرف كالفن نزعات كاستيليو فتعرف على خطه فى رسالته « الهراطقة » ، وفوض مهمة الرد عليها لأذكى تلاميذه تيودور دى بيز أو بيز أو بيزا . وقد ولد تيودور فى فيزيلاى من أسرة أرستقراطية ، ودرس القانون فى أورليانز وبورجس ومارسه بنجاح فى باريس ، وكتب شعراً باللاتينية ، وفتن بعض النساء بتوقد ذهنه وأكثر من هذا بنجاحه ، وعاش حياة مرحة وتزوج وسقط صريع مرض خطير ، وجرب وهو على فراش المرض تحولا معكوساً نحو تعاليم لويولا ، واعتنق البروتستانتية وفر إلى جينيف وقدم نفسه إلى كالفن وعين أستاذاً لليونانية فى جامعة لوزان ، ومما هو جدير بالملاحظة أن لاجئاً بروتستانتياً من فرنسا التى تضطهد الهوجنوت أخذ على عاتقه الدفاع عن الاضطهاد ، وقد أدى هذا بمهارة محام وإخلاص صديق ، فأصدر فى سبتمبر عام ١٥٥٤ مؤلفاً بعنوان (كتاب صغير عن واجب الحكام المدنيين فى عقاب الهراطقة) **De haereticis a civili magistratu punindis libelus** وأشار مرة أخرى إلى أن التسامح الدينى مستحيل لإنسان قبل أن الكتب المقدسة وحى من لدن الله . ولكننا إذا رفضنا التسليم بأن الكتاب

المقدس كلمة الله ، فعلى أى أساس نبنى العقيدة الدينية التى يتضح بجلاء أنه لا غنى عنها — إذا أخذنا فى الاعتبار ما فطر عليه الناس من شر — لكبح جماح الناس وللنظام الاجتماعى — والحضارة ؟ وإذن لن يتبقى إلا شكوك مهوشة تعمل على تفكيك عرى المسيحية . ولا يمكن أن يكون لمؤمن مخلص بالكتاب المقدس إلا دين واحد ، أما الديانات الأخرى فلا بد أن تكون زائفة أو ناقصة . حقاً إن العهد الجديد يبشر بسنة المحبة ولكن هذا ليس عذراً لنا لكى لا نقتص من اللصوص والقتلة ، فكيف يبيح لنا هذا أن نبقى على الهراطقة ؟

وعاد كاستيليو إلى الجدل فى كراسة دينية بعنوان : **Contra libelum Calivini** ، ولكنها ظلت نصف قرن دون أن تنشر . وسبق ديكارت فى مخطوطة أخرى بعنوان **De arte dubitnnd** بأن جعل من « فن الشك » أول خطوة فى البحث عن الحقيقة ودافع فى رسالته « المحاورات الأربع » عن الإرادة الحرة وعن احتمال خلاص عالمى . وفى عام ١٥٦٢ نشر رسالته « نصيحة إلى فرنسا الحزينة » ، توسل فيها عبثاً إلى الكاثوليك والبروتستانت بإنهاء الحروب الأهلية التى كانت تجتاح فرنسا وبأن يسمحوا لكل مؤمن بالمسيح « أن يصلى للرب وفق عقيدته هو وليس وفق عقيدة غيره من الناس »[٧٨] ، وكان من الصعب أن يسمع أحد صوتاً يشذ عن النغم السائد فى العصر .

ومات كاستيليو فقيراً بالغاً من العمر ثمانية وأربعين عاماً (١٥٦٣) ، وقال كالفن إن وفاته المبكرة حكم عادل من إله عادل .

٨ — كالفن إلى النهاية ١٥٥٤ — ١٥٦٤

ولعل كالفن قد عرف ميل كاستيليو الخفى إلى مذهب الموحدين — الإيمان بإله ليس ثلاثة فى واحد ، ومن ثم رفض التسليم بألوهية المسيح ، ويمكن أن يغتفر له أنه كان يرى فى هذا الشك الأساسى بداية النهاية للمسيحية . وخشى من هذه الهرطقة أكثر من أى شىء آخر لأنه وجدها متفشية فى مدينة جينيف ذاتها ، وفوق كل شىء بين اللاجئين البروتستانت الفارين من إيطاليا . ولم ير هؤلاء الناس أى معنى فى أن يستبدلوا بتجسد لا يصدق قدراً محتوماً لا يصدق . وهاجمت ثورتهم الدعوى الأساسية للمسيحية وهى أن المسيح ابن الله . وكان لماتيو جريبالدى ، وهو أستاذ فى فقه القانون فى بادوا ، بيت صيفى بالقرب من جينيف . وتكلم بصراحة أثناء محاكمة سرفيتوس ضد العقاب بسبب الآراء الدينية ، ودافع عن حرية العبادة — بالنسبة للجميع ، فدعى للمثول أمام المجلس ، ونفى من المدينة إذ اشتبه فى أنه يؤيد مذهب الموحدين (١٥٥٩) وكفل لنفسه التعيين فى وظيفة أستاذ للقانون فى جامعة تيبنجن . وأرسل كالفن إلى الجامعة كلمة عن شكوك جريبالدى . فألزمته بأن يوقع اعترافاً يقر فيه بالتثليث ، وبدلا من أن يخضع فر إلى برن حيث مات متأثراً بداء الطاعون فى عام ١٥٦٤ . واستدعى جيورجيو بلاندراتا ، وهو طبيب إيطالى يقيم فى مدينة جينيف للمثول أمام المجلس بتهمة مناقشة ألوهية المسيح ، ففر إلى بولندة حيث وجد شيئاً من التسامح بالنسبة إلى هرطقته .

وأعرب فالنتينو جنتيلى ، من كالابريا ، صراحة عن آرائه المؤيدة لمذهب الموحدين فى مدينة جينيف ، فألقى فى غيابة السجن حكم عليه بالإعدام (عام ١٥٥٧) فتراجع عن أقواله وأطلق سراحه وذهب إلى ليون فقبضت عليه السلطات الكاثوليكية ، بيد أنه أطلق سراحه عندما أكد لهم أن مصلحته

الرئيسية تكمن فى دحض مزاعم كالفن . وانضم إلى بلاندراتا فى بولندة ، وعاد إلى سويسرة حيث اعتقله حكام برن وأدين بتهمة الحنث بقسمه والهرطقة وقطعت رأسه (١٥٦٦) .

ووسط هذه المعارك فى سبيل الرب استمر كالفن يعيش فى بساطة وقد حكم جنيف بقوة شخصية مسلحة بأوهام أتباعه . وتدعم مركزه بمرور السنين . وكان ضعفه الوحيد فى جسده الواهن : كان يشكو من آلام فى رأسه والربو وسوء الهضم والحصوة والنقرس ، وهصرت الحمى جسده وأبرزت عظامه وشكلت وجهه فبدت تقاطيعه مشدودة تنم على القسوة والكدر . وأصيب بمرض فى ١٥٥٨ — ٥٩ استمر طويلا وتركه ضعيفاً واهناً مصاباً بنزيف متكرر من الرئتين . واضطر بعد ذلك إلى ملازمة الفراش معظم الوقت على الرغم من أنه مستمر فى الدراسة والتوجيه والوعظ حتى عند ما كان يحمل حملا فى مقعد إلى الهيكل المقدس . وحرر وصيته فى يوم ٢٥ أبريل عام ١٥٦٤ وهو واثق تمام الثقة من اختياره للمجد الأبدى . وفى اليوم السادس والعشرين أقبل المأمورون وأعضاء المجلس وجلسوا بجانب فراشه ، فطلب منهم المغفرة بسبب سورات غضبه ، ورجاهم أن يتشبثوا بالعقيدة الطاهرة للكنيسة التى اتبعت الإصلاح وجاء فاريل وكان آنذاك قد بلغ العام الثمانين من عمره من نيوشاتل ليودعه الوداع الأخير . وبعد مرور بضعة أيام قضاها كالفن فى الصلاة والعذاب وجد السلام (٢٧ مايو عام ١٥٦٤) . وكان تأثيره أعظم من تأثير لوثر ، ولكنه سار فى طريق كان لوثر قد مهده ، فقد أسبغ لوثر حمايته على الكنيسة الجديدة بإحياء القومية الألمانية لتأييدها وكانت الحركة ضرورية ، ولكنها ربطت اللوثرية رباطاً وثيقاً بالأصول التيوتونية ، ولقد أحب كالفن فرنسا وجاهد لكى يرفع من شأن قضية الهوجنوت ولكنه لم يكن وطنياً فقد كان الدين بلده ، وعلى هذا فإن عقيدته ، مهما لحقها من تعديل ، استلهمت

البروتستانتية فى سويسرة وفرنسا وسكوتلندة وأمريكا ، واستولت على قطاعات كبيرة من البروتستانتية فى هنغاريا وبولندة وألمانيا وهولندة وانجلترا . ولقد أضفى كالفن على البروتستانتية فى كثير من البلاد تعظيماً وثقة واعتزازاً بالنفس مكنتها من أن تعيش وتصمد لألف محنة .

وقبل وفاته بعام انضم تلميذه أوليفيانوس إلى أورسينوس تلميذ ميلانكتون فى إعداد وعظ هيدلبرج الذى أصبح تعبيراً مقبولا لعقيدة الإصلاح الدينى فى ألمانيا وهولنده . ووفق بيز وبولينجر بين مذهبى كالفن وزونجلى فى الإقرار السويسرى البروتستانتى الثانى (١٥٦٦) الذى أصبح وثيقة رسمية للكنائس التى اتبعت الإصلاح الدينى فى سويسرة وفرنسا وتابع بيز باقتدار عمل كالفن فى جينيف نفسها . بيد أنه ما أن مر عام حتى أخذ كبار رجال الأعمال الذين يسيطرون على المجالس فى مقاومة محاولات مجمع الكرادلة والجمعية المبجلة بنجاح ازداد شيئاً فشيئاً ليستبدلوا بها الرادع الأخلاق فى العمليات الاقتصادية ، وبعد وفاة بيز (١٦٠٨) دعم أغنياء التجار نفوذهم (سيادتهم) وفقدت الكنيسة فى جينيف مزاياه الإدارية - (التوجيهية) التى كان كالفن قد ظفر بها لها فى الشئون غير الدينية . وفى القرن الثامن عشر خفف تأثير فولتير من التقليد الكالفينى ، وقضى على سيطرة الأخلاق المتطهرة النزعة بين الناس . وكافحت الكاثوليكية فى جلد وصبر لتسترد مكانها فى المدينة ، وعرضت مسيحية خافية من الكدر ونزعة أخلاقية خالية من الصرامة ، وكان ٤٢ فى المائة من السكان فى عام ١٥٩٤ كاثوليك و٤٧ فى المائة منهم بروتستانت[٧٩] .

ولكن أعظم بناء قام به الإنسان له أثر كبير فى جينيف هو النصب التذكارى للإصلاح الدينى « المبجل الذى يمتد فى بهاء على طول سور بستان ويحتفل بانتصارات البروتستانتية وترتفع فى وسطه تماثيل فاريل وكالفن وبيز ونوكس القوية » .

وفى غضون ذلك كانت حكومة رجال الدين الصارمة التى أقامها كالفن تثبت براعم ديمقراطية ، ثم إن جهود الزعماء الكالفينيين فى سبيل توفير التعليم للجميع وتفقيهم وغرسهم شخصية مهذبة قد ساعدت أوساط الناس الأشداء فى هولنده على إبعاد الحكم المطلق الإسبانى الدخيل ودعم ثورة النبلاء ورجال الدين فى سكوتلانده ضد ملكة فاتنة ولكنها مستبدة . وكان للنزعة الرواقية فى عقيدة صارمة الفضل فى خلق أرواح قوية للمعاهدين الاسكوتلنديين والمتطهرين الإنجليز والهولنديين والحجاج فى نيوانجلاند ، وثبتت قلب كرومويل واهتدى بها قلم ميلتون الكفيف وحطمت سلطان آل ستيوارت المستبدين . وشجعت الناس الباسلين والقساة على الظفر بقارة وعلى نشر أساس التعليم والحكم الذاتى إلى أن يستطيع كل الناس أن يصبحوا أحراراً .

وسرعان ما طالب الناس الذين اختاروا كهان أبرشياتهم بأن يكون لهم حق اختيار حكامهم وأصبحت جماعة المصلين التى تحكم نفسها بنفسها بلدية تحكم نفسها بنفسها ، وهكذا أبرزت أسطورة الانتخاب الإلهى نفسها فى صنع أمريكا .

وعندما تم أداء هذا العمل أهملت النظرية البروتستانتية التى تقول بالجبر ، ولما عاد النظام الاجتماعى إلى أوربا بعد حرب الثلاثين عاماً وفى انجلترا بعد ثورتى عام ١٦٤٢ و ١٦٨٩ وفى أمريكا بعد عام ١٧٩٣ تغير الفخار بالانتخاب الإلهى إلى اعتزاز بالعمل وإنجازه وشعر الناس بأنهم أقوى وأكثر أمناً .

وقل الخوف وأسلمت القسوة المذعورة التى ولدت رب كالفن إلى رؤية أكثر رحمة ألزمت بإعادة النظر فى مفهوم الألوهية . وعقداً بعد عقد نبذت الكنائس التى تسلمت زمام القيادة من كالفن عناصر عقيــدته القاسية ، وواتت الجرأة المشتغلين باللاهوت على أن يؤمنوا بأن كل من ماتوا فى

الطفولة كتب لهم الخلاص ، وأعلن قس مبجل دون أن يسبب أى اضطراب أن « عدد الضالين نهائياً . . . سيكون طفيفاً جداً »(٨٠) . ونحن نشعر بالشكر لهذا التأكيد العظيم .

ونوافق حتى على أن الخطأ يعيش لأنه يخدم حاجة حيوية ما . ولكننا سوف نجد دائماً من الصعب أن نحب الرجل الذى أظلم الروح البشرية بأكثر المفاهيم عن الله سخفاً وكفراً فى تاريخ السخف الطويل المبجل بأسره .

المراجع مفصلة

CHAPTER XVI

1. Acton, *Lectures on Modern Hy*, 91; Thompson, *Social and Economic Hy*, 425, 428; Ranke, *Reformatiou*, 151.
2. Friar Myconius in Thatcher, O. J., *Source Book for Medieval Hy*, 339.
3. Robertson, W., *Charles V*, 1, 372.
4. Pastor, VII, 349.
5. Luthér, *Works*, I, 26; Thesis75.
6. Beard, *Luther*, 257.
7. Acton, 97.
8. *Camb. Mod. Hy*, II, 127.
9. Ranke, *Reformation*, 154.
10. Beard, 121; Smith, P., *Luther*, 2.
11. In D'Arcy, M.'C., *Thomas Aquinas*, 254.
12. Ranke, 144; Beard, 158.
13. Beard, 165.
14. Luther, *Tischreden*, lxxvii, in Gregorovius, *Hy of Rome*, VIII-1, 249.
15. Ganss, H. G., in Cath. En., IX, 441.
16. In Ganssen, III, 97.
17. Ibid., 89.
18. Cath, En., IX, 442.
19. In Pastor, VII, 354.
20. Cath. En., IX, 443.
21. In Beard, 231-3.
22. *Camb. Mod. Hy*, II, 132.
23. Ranke, 160.
24. Roscoe, Wm., *Leo X*, II, 95, 105-7.
25. Pastor, VII, 367.
26. H. von Schubert in Smith, *Luther*, ix.
27. In Pastor, VII, 378.
28. Smith, *Reformation*, 700.
29. Beard 270.
30. Ibid., 278-4; Ranke, 195; Cath. Ed., IX, 448; Acton, 94-5.
31. Pastor, VII, 882; Beard, 272.
32. Smith, *Luther*, 56.
33. Cath. En., IX, 444.
34. Smith *Luther*, 71.
35. Letter of Aug. 20, 1581, in Froude, *Erasmus*, 397.
36. In Ledderhose, *Life of Melanchthon*, 88.
37. In Beard, 279.
38. In Strauss *Hutten*, 263.
39. In Pastor, VII, 389; Janssen, III 111.
40. Strauss, 225.
41. *Werke*, VIII, 203, in Beard, 352.
42. Pastor, VII, 384; Smith, *Luther*, 75.
43. Luther, *Works*, II, 68.
44. Ibid., 69-70.
45. 76.
46. 78.
47. 83-99, italics mine.
48. 110.47.
49. 138-9.
50. *Babylonian Captivity*, in *Works*, II, 188.
51. Ibid., 257.
52. In Janssen, III, 129.
53. *Works*, II, 269-71.
54. Ibid., 298.

55. 302-10.
56. 299.
57. 331.
58. 3.8.
59. Ranke, 215; Pastor, VII, 400-8; Janssen, III, 80.
60. Ranke, 220; Beard, 175.
61. Hume, M., *The Spanish People*, 331.
62. Adams, Brooks, *Civilzation and Decay*, 98.
63. Strieder, *Jacob Fugger*, 153.
64. Michelet, III, 174.
65. Thompson, *Social and Economic History*, 428.
66. Armstrong, E., *Charles V*, I, 69.
67. Jansseu, III, 178.
68. Pastor, VII, 428.
69. Lingard, *Hy of England*, IV, 225.
70. In Janssen, III, 172; Bainton, *Here I Stand*, 175.
71. Strauss, 276f.
72. Beard, 491-3.
73. Janssen, III, 182.
74. Beard, 412.
75. Baintou, *Here I Stand*, 185.
76. Ibid.; Schaff, *German Reformation*, 29.
77. Bainton, *Here I Stand*, 185; of Cath. En. IX, 446d, and the Protestant authors there cited.
78. Creighton, *Hy of the Papacy*, VI, 176.
79. Carlyle, Thos, *Heroes aud Hero Worship*, 360.
80. Bainton, *Here I Sand*, 186.
81. Acton, 101.
82. Baintou, 189.
83. Ibid., 195.
84. Taylor, H. O., *Thought, and Expression in the 16th Century*, II, 213.
85. Bax, *Gernan Socity*, 142; Lecky, *History, of Rationalism*, I, 22.
86. Janssan, III, 246-8.
87. Bainton, 200.
88. Ibid., 305-6; Ranke, 251.
89. Luther, *Works*, III, 206-7.
90. Ibid., 211.
91. Ranke, 254
92. Bainton, 208.
93. Janssen, III, 259.
94. Ibid., 263.
95. Bainton, 214.
96. Beard , 127.
97. Janssen, IV, 98.
98. Smith, *Luther*, 155.
99. Ibid., 168.
100. 380.
101. Froude, *Erasmus*, 294.
102. Janssen, XIV, 408.
103. Luther, *Table Talke*, 118.
104 *Werke* (Walch), VIII, 2042, in Beard, *The Reformation of the 16th Century in Relation to Modern Thought and Knowledge*, 161.
105. Luther' *Table Talk*, 358.
106. Luther, *Werke* (Erlangen), VI, 142-8, in Maritain, *ThreeReformers*, 38 and Beard, *Reformation* 156.
107. In Paulsen, *German Education*, 47.
108. In Jassen, III, 240.
109. Schaff, *Geoman Reformation*, 85-6.
110. Luther, *T.T.*, 24.
111. Smith, *Luther*, xi.
112. *T.T.*, 2.
113. Ibid., 91,96.
114. 67.
115. 15.
116. 797; Smith, *Luther*, 362.

117. *T.T.*, 574.
118. Sermon of March 6, 1521; Janssen, XII, 316.
119. Maritain *Three Reformers*, 80.
120. Smith, *Reformation*, 658.
121. Lecky, *Rationalism*, I 22,
122. *T.T.*' 577, 597; Janessen, XIV, 87.
123. Janssen, XII, 817.
124. Lecky, *Rationalism*, I, 28.
125. *T.T.*, 579-86, 6
126. Luther' *Works*, III, 235-7.
127. *Works*, II, 39'.
128. Ibid., 316.
129. *T.T.*, 288.
130. Romans, x, 9.
131. Mark, xvi, 16.
132. *Works*, II, 316.
133. *Werke*, XL, 436; XXV, 330, 142, 130; *Werke* (Erlangen), XVIII, 260.
134. *Werke* (Erlangen), XX, 58; LX, 107-8; *Werke* (Weimar), X-2, 276.
135. O'Brien, G., *Economic Effects of the Reformation*, 41.
136. *Works*, II, 328-9.
137. Ibid., 331.
138. Romans, ix, 18.
139. Luther, *De servo arbitrio*, in in Janssen, IV, 104.
140. *De servo arbitrio*, in Lecky, *Rationalism*, I, 140.
141. In Fülöp - Miller, R., *Saints That Moved the World*, 291.
142. Janssen, IV. IV, 114.
143. *T.T.*, 98.
144. Ibid., 178.
145. *Works*, II, 188.
146. *Werke*, XXVIII, 142-201. In Bax, *German Society*, 188-90.
147. *Works*, III, 258-61.
148. In Janssen, III, 268.
149. In Allen, J. W., *Political Thought*, 380.
150. *Works*, IV, 25.
151. Ibid., 26, 29.
152. *Works*, II, 160.
153. bid., IV, 35.

CHAPTER XVII

1. Rechard. E., *German Civilization*, 260.
2. Janssen, III, 214.
3. Pastor, IX, 134.
4. Schapiro, J. S., *Social Reform*, 84-5.
5. Richard, 260; *Camb, Mod. Hy*, II, 174.
6. Luther, *Works*, III, 204-5.
7. *Camb. Mod. Hy*, II, 188.
8. Janssen, III, 221; Schapiro, 103-14.
9. Janssen, III, 228; *Camb. Mod.* Hy, II, 177.
10. Janssen. III, 342.
11. *Comb, Mod. Hy*, II, 193.
12. Kautsky, 116-119.
13. Ibid, 121.
14. 130.
15. Ranke, *Reformation*, 338.
16. In Kautsky, 139.
17. Ibid., 144.
18. Luther, *Works*, IV, 210-16.
19. Ibid., 220-1.
20. 240.
21. 244.
22. Ranke, 450.
23. Janssen, IV, 166; Bax, *Peasants' War*, 79-84.
24. Ranke, 348-9.
25. Robinson, J. H. *Readings, in European Hy*, 2891; Bax, *Peasants' War*, 156-60.

. Ranke, 344.
27. Bax, *Peasants' War*, 101.
28. Ibid., 118-30.
29. In Janssen, IV, 208.
30. Bax, 76, 224.
31. Ibid., 205.
32. 229.
33. Luther, *Works*, IV; 248-54.
34. Bax, 265 6.
35. Ibid., 312-5.
36. 303.
37. *Camb. Mod. Hy*, II 191.
38. Bax., 336-7.
39. Armstrong, *Charles, V*, I, 222.
40. Ranke, 360.
41. Schapiro, 86; Smith, *Luther*, 146.
42. Ibid., 165.
43. 164.
44. *Works*, IV, 261.
45. Ibid., 261-72.
46. *Camb. Mod. Hy*, II, 192.
47. Ranke, 728.
48. Payne, E., A., *Anabaptists*, 11.
49. Kautsky, 164.
50. Ibid., 166.
51. Allen, *Political Thought* 48.
52. Ranke, 732-3.
53. Schaff, *Swiss, Reformation*, 82.
54. Janssen, IV, 114.
55. Kautsky, 176.
56. Ibid., 185.
57. 187.
58. Ranke, 729.
59. Kautsky, 192.
60. Ranke, 757.
61. Kautsky, 255-6.
62. Ibid., 257.
63. 260.
64. 273.
65. Ranke, 745-6.
66. Smithson, R. J., *Anabaptists*, 179-80.
67. Kanteky, 299; Ranke, 755.
68. Smithson, 181.
69. Fosdick, *Great, Voices of the Reformation*, 285.
70. Payne, *Anapatists*, 16.

CHAPTER XVIII

1. Cath. En., XV, 773.
2. Schaff, *Swiss, Ref.*, 6.
3. Ibid.
4. Hughes, *Reformation*, I, 124.
5. Schaff, 24.
6. *Camb. Mod. Hy*, II, 713.
7. Schaff, 32.
8. Ranke, 513.
9. Schaff, 52-3.
10. Fosdick, 183.
11. Ibid., 173, 191.
12. Lea, *Auricular Confession*, I, 519.
13. Fosdick, 190.
14. Schaff, 59.
15. *Camb. Mod, Hy*, II, 321, 334.
16. Smith, *Erasmus*, 301.
17. Schaft, 94.
18. Bainton, *Hunted Heretic*, 36-8.
19. Erasmus, Epistle of May 9, 1529, in Schaff, *Swiss Reformation*, 112.
20. *Camb. Mod. Hy*, II 207-10.
21. In Janssen, V, 231.
22. Schaff, 177.
23. ibid.
24. Bossuet, *Variations*, II, 29.
25. En. Brit., XXIII, 998.
26. Schaff, 188.
27. Smith' *Luther*, 290.
28. *T. T.*, 301.

CHAPTER XIX

1. Kauffman Collection, Berlin.
2. *Werke*, XLII, 582, in Maritain, 171.
3. *Werke*, X-2, 304, in Maritain, 171.

4. *T.T.*, 715.
5. Ibid., 752.
6. Maulde, *Women of the Renaissance*, 467.
7. *Werke*, X-2, 301, in Maritain, 184.
8. Bainton, *Here I Stand*, 299.
9. *T.T.*, 715.
10. Bainton, 301.
11. *T.T.*, 737.
12. Ibid., 751.
13. In Schaff, *Swiss Reformation*, 417.
14. In Fosdick, 71.
15. Smith, *Luther*, 354.
16. Schaff, *German Reformation*, 465.
17. Bainton, 304.
18. Smith, 320.
19. Letter to Pope Leo, 1520.
20. Luther, *Works*, I, 7.
21. Janssen' XI, 340; Luther, *Works*, II, 231; Bainton, 295.
22. Bainton, 295.
23. Janssen, III, 242.
24. *Werke*, VIII, 624, In Martian, 188.
25. In Carpenter, *Pagan and Christian Creds*, 207.
26. *T.T*, 462.
27. *Werke*, XXV, 108, in Cath. En., IX, 447b.
28. *T.T.*, 319.
29. Gasquer, *Eve of the Reformation*, 173.
30. Smith, *Luther*, 407; Bainton, *Here I Stand*, 295.
31. Smith, 355.
32. Ibid., 326.
33. In Janssen, XI, 253.
34. Bainton, 225.
35. *T.T.*, 100.
36. Smith, *Luther*, 322.
37. Ibid., 349.
38. Ibid.,
39. Janssen, XII, 16; *T.T.*, 114.
40. bid., 257.
41. 91, 96.
42. 780.
43. Jusserand. *Literary History of the English People*, II, 167.
44. *T.T.*, 841.
45. Ibid., 413.
46. Luther, *Works*, I, 76.
47. bid., 142.
49. Bainton, *Here*, 314.
50. *Works*, III, 204, 207.
51. Preface to the Shorter Catechism.
52. *Werke* (Erlangen), XXIX, 46-74, in Jewish Encyc., VIII, 213.
53. *T.T.*, 275.
54. *Werke*, (Erlangen). XXXII, 217-33, in Janssen, III, 211-12.
55. *Werke*, (Erlangen), XXVIII, 144, in Maritain, 15.
56. Letter of Aug. 26, 1529, to Jos, Metsch, in Smith, *Luther*, 218.
57. In Froude, Erasmus, 389.
58. *T.T.*, 61.
59. Putnam, *Books*, II, 244.
60 *Werke*, XXXI-1, 208f.
61. *Werke*, (Erlangen) XVI. in Allen, *Political Thought*, 27.
62. Bax, *Peasants' War*, 352.
63. Smith, *Luther*, xiv.
64. Id., *Reformation*, 645.
65. Janssen, IV, 140-1.
66. Murray, *Erasmus and Luther*, 366.
67. Janssen, XIV, 503.
68. Janssen, V, 290.
69. Luther, Commentary on Psalm LXXXII.
70. Janssen, V, 491, 502, 505.
71. Janssen, VI, 46-63, 181, 190, 208-14, 348-9; Lecky, *Rationalism*, II, 15.

72. Janssen, IV, 282f.
73. Lea, *Studies in Church History*, 492.
74. *T.T.*, 889.
75. Smith, *Reformation*, 104; Panofsky, Dürer, 1283; Cath. En., IX, 447c.
76. Janssen, III, 198.
77. Ibid., 342.
78. Robertson, J. M., *Freethought*, I, 455.
79. Erasmus, letter to Pirkheimer, Feb. 21, 1529.
80. Janssen, III, 361.
81. Strauss, *Hutten*, 290.
82. Smith *Erasmus*, 233.
83. In Michelet, III, 170.
84. Smith, *Erasmus*, 384.
85. Letter of March 5, 1518.
86. Letter of October 17, 1518.
87. In Froude, *Erasmus*, 189.
88. Smith, *Erasmus*, 219.
89. Ibid., 221.
90. Ibid., 22;Froude,*Erasmus*, 283-4.
91. In Murray, *Erasmus*, 76.
92. Froude, 270-2.
93. Smith, *Erasmus*, 241.
94. Ibid., 255.
95. Erasmus, *Epistles*, I, ep. lxxxv.
96. Ibid., ep. ccclxvi.
97. Froude, 308.
98. Letter of Feb , 1523, in Froude, 310.
99. Acton, 105; Lecky, *Reformation*, I, 140.
100. Ibid.,
101. Bainton, *Here I, Stand*, 254-5.
102. Froude, 340, 381.
103. In Allen, *Political Thought*, 80.
104. Froude, 403.
105. Ibid., 357.
106. In Froude, 400.
107. Erasmus, *Heperapistes*.
108. In Froude, 352.
109. Walpole, H., *Letters*, III, 184.
110. Beard, *Luther*, 93.
111. Acton, 89.

CHAPTER XX

1. Janssen, IV, 62.
2. Cf. *Comb. Mod. Hy*, II, 159.
3. Janssen, VI, 534.
4. Janssen, V, 277.
5. Lea, *Clerical Celibacy*, 580.
6. Janssen, VII, 247.
7. Id.. IV, 47.
8. Id., IX, 180.
9. Id., XIII, 24.
10. Froude, *Erasmus*, 387.
11. Vambéry, 283.
12. Janssen, IV, 119.
13. Ibid., 109-11.
14. En. Brit., XI, 288.
15. Jansen, V, 271; Ranke, 614.
16. Cath. En.; XI, 458.
17. *Comb. Mod. Hy.* II, 219.
18. Janssen, V, 428.
19. Luther, *Works*, V, 128 ; Pastor, XI, 69, 81-7.
20. Janssen, V, 495f; *Comb. Mod. Hy*, II, 233.
21. Pastor, XI, 362-3.
22. Ibid., 375-98.
23. Ledderhose, 177-82.
24. Ibid., 188.
25. Cath. En., IX, 452d.
26. In Bainton, *Here I Stand*, 346.
27. Pastor, XI, 67.
28. Smith, *Luther*, 309.
29. *Werke* (Walch), XX, 228, in Cath. En., IX, 456d.
30. Luther, *Works*, V, 163.

31. In Tawney, *Religion and the Rise of Capitalism*, 101; Bainton, *Here I Stand*, 238.
32. *Werke*, XIX, 626, in Allen, *Political Thought*, 22.
33. Bax, *Peasants' War*, 351.
34. *Werke*, XV, 276, in Bax, 352.
35. Smith *Luther*, 374.
36. Letter of Sept. 3, 1531.
37. Smith, 196.
38. In Bebel, *Woman under Socialism*, 68.
39. Jaussen, VI. 81-6.
40. *Comb. Mod. Hy*, II, 241.
41. Ledderhose, 170.
42. Janssen, VI, 122.
43. *Camb. Mod. Hy*, II, 241.
44. In Smith, *Luther*, 399f.; Pastor, XI, 215f.
45. *Werke*, XXV, 124-55, in Janssen, VI, 271-2, and Pastor, XII, 216f.
46. Weber, Hermann, *On Means for the Prolongation of Life*, 48.
47. Smith, *Luther*, 405.
48. Ibid.. 409.
49. James, Wm., *Varieties of Religious Belief*, 137.
50. Ibid.
51. *T.T.*, 633.
52. Ibid., 15.
53. 19.
54. 235.
55. InRobertson,*Charles V*, II,158n.
56. Smith, *Luth*, 419.
57. Armstrong, *Charles V*, I, 138.
58. *Comb. Mod. Hy*, II, 276.
59. Ibid., 278.
60. Schaff, *Swiss Reformation*, 387, 548; Janssen, XIV, 149.
61. Id., VII, 139:
62. Id., IV, 862-3; Schapiro, 78; Allen, *Political Thought*, 33.
63. In La Tour, IV, 161.
64. In Janssen, VII, 189.

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفية من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى.واستمتعناأيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم.لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاظم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

